

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٨٣ - محرم ١٤٢٠ هـ - أبريل/ مايو ٢٠٠٠م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 283 - APR. / MAY. 2000

المياه الجوفية
بين الاستنزاف والتلوث

- الطُرز المعمارية في عرقة
- نظرية الأخلاق الإسلامية
- مأزق الفنان بين التوافق النفسي ومتعة الإبداع
- علاقات الإنس والجن في التراث
- الذات بين الطفولة والمراهقة المبكرة
- جوناثان سويفت الساخر العملاق
- سعير من السماء


الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

تاريخ كعب الغلاف

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٧٨٣٠٠٠، فاكس ٤٧٨١٣٣٣، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٩٦٣٠٠، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦٠٠، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦٢٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤٠٠، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢٠٠، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣٠٠، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١٠٠، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣٠٠، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥٠٠، السودان ـ دار التوزيع العام ـ ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ ـ فاكس ٧٧٥٧٧٠ ـ ١١ ـ ٢٤٩٠٠، المغرب ـ ٢٤٥٧٤٥ CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA، MOROCO TEL: فاكس ٣٢/٣١ ـ ٤٠٤٠ ـ ٢١٢ ـ ٠٠، باكستان PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: ٥٦٨٣٤٩٤ ـ فاكس ٥٦٨٢٧٠٤ ـ ٢١ ـ ٩٢ ـ ٠٠، الجمهورية اليمنية ـ محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ ـ فاكس ٢١١٥٣٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧٠٠، سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت: ٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٩٦٨٠٠





المياه الجوفية
بين الاستنزاف والتلوث

الماء عصب الحياة الذي لا غنى عنه، وتعد المياه الجوفية أحد مصادره المهمة التي يعتمد عليها كثير من سكان الكرة الأرضية في حياتهم، ولكن الإنسان، وفي كثير من الأحيان، يسيء التعامل مع هذه الثروة المهمة بالإفراط في الاستغلال أو بالتلويث، دون النظر إلى ما يسببه ذلك من آثار بيئية واجتماعية واقتصادية. كيف نقف على هذه المشكلات؟ وما الأخطار المترتبة على ذلك؟! إننا معنيون بإيجاد الحلول، فالكارثة تطل بكامل قامتها علينا وعلى الأجيال القادمة!

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ٠٢٥٨ ـ ١١٤٠

المسمّى

إن مجلة «الفيصل» لها نصيب وافر من اسم المسماة به، فالفيصل - يرحمه الله - فاصل في عصره وبين معاصريه في الثبات والاندفاع قولاً وفعلاً، ولو أردنا الاقتباس والتدليل بشيء من جهوده الإسلامية والعربية لتشعبت بنا السبل بالمرور على جغرافية القارات المتباينة بحديث ليس هذا مقام تفصيله.

فمجلتنا الشامخة أخذت الاسم معنى وعملاً، فهي بين زميلاتها المجلات الصادرة بلغة الضاد معنية بالوسطية والاعتدال في الطرح موضوعاً وكلمةً وصورة وعملاً دون الطرح الأكاديمي الموغل بالتقعر في اللغة، والتغريب في مصطلحاتها، وكذلك لا تألو جهداً في استكتاب الكفاءات من الأقطار المختلفة في موضوعات شتى: دينية، وأدبية، وطبية، وعلمية، وفنية، وأثرية بتحقيق الكلمة والصورة الناصعة بالوضوح بأفرع المعارف المتنوعة، مع الاهتمام بشؤون الأقليات المسلمة.

فالفيصل أخذت وسطية الأمة الإسلامية في الزمان والمكان منهاجاً ونبراساً بخطا حثيثة متوازنة في مواكبة الثورة المعرفية المذهلة سرعة، وتنوعاً بارتداء حلّة السهل الممتنع وحليته. أرى القلم قد طاب له التحبير في نعت المنعوتة الحسناء بشيء من الاستطراد لا يتجاوز الحقيقة في حق المحبوبة «الفيصل»، ويعد هذا الإطراء في حق المستحقة.

سبق لي نشر مشاركة متواضعة في العدد رقم «٢٧٢» لشهر صفر ١٤٢٠هـ مايو/يونيو ١٩٩٩م في باب «رسائلكم» بعد أن تباينت وجهات النظر بين الثناء والتذمر، وإن كانت نبرات التذمر آنذاك أكثر حدة بين معارضي التغيير والتجديد في غبيط الظاعنة السيار كما قال امرؤ القيس:

تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

وقد ألمحت بالمشاركة الآنفة الذكر المشار إليها أعلاه: أن التحرير الخلف لا يهدم بنيان السلف إنما يدُعم أركانه بالأعمدة الرخامية وسقفه بخشب العاج والصندل، والمتتبع للأعداد المتتالية يرى ذلك بوضوح، وقد أثار القارئ من حضرموت عبدالله ابن عامر الجعبدي بالعدد رقم «٢٨٠» لشهر شوال ١٤٢٠هـ ص (٥) بصراحة لا لبس فيها موافقاً ما سبق أن أشرنا إليه ونتوقعه. ونقول بعد هذا إن الغرس قد استوى عوده وأينع ثمره وزاحم الأثمار المجلوبة بكثرة في عقر دارها، والمتصفح لعدد شوال المشار إليه أعلاه يرى ما يبهر مقلتيه من الحسن كما قال ابن الجوزي - يرحمه الله - في كتابه صيد الخاطر مورداً قول الشاعر:

والمرء ما دام ذا عين يقلبها
في أعين العينِ موقوف على الخطر

ولكن نقول: إن المقلب عينيه في غبيط «الفيصل» الحسناء متخللاً بالنظر المباح بين الستر يرى ما يسره، وهنا لا نخالف بتصرف قول الشاعر بقولنا لقارئ المجلة موقوفاً على الظفر، وليس على الخطر، ولعل حصولي على نسخة شهر شوال ١٤٢٠هـ في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك سابقة موعد الإصدار بأيام قلائل بسبب عطلة الشهر الكريم في مدينة «وادي الدواسر» ذات الجو المعتدل، والموقع المتوسط، والتاريخ العتيق العاطر، والرمال الذهبية، والغياض، والواحات الجامعة، مما يبهج الإنسان وحواشيه مزدانة بحلية الماضي وآخذة بحلية الحاضر في حشمة ووقار، مما أعطى لي متسعاً من الوقت وشفافية للاطلاع على حدائق الفيصل المثمرة.

أخيراً أحيي بتحية الإسلام التحرير السلف والخلف والعاملين والقراء الكرام على تباعد الديار واختلاف الأمصار الذي لا يحول عن تطلع الأنظار واجتماع القلوب على المورد العذب وحدائقه الغناء، وإن كنت أود من الدكتور أستاذنا «أبوحيدر» إعادة إطلالة الفيصل لزميله الدكتور زيد الحسين، وهو على ذلك إن شاء الله قادر، وإن كنت أعلم كثرة مشاغله، والله من وراء القصد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تركي بن شجاع بن تركي الخريم
الدمام الرمز البريدي ٣١١٧٩

التحرير:

نشكر لك رسالتك، ونأمل أن نكون عند حسن الظن دوماً، وقد وجدت المجلة أن الأفضل عدم وجود زوايا ثابتة للكتاب تطلعاً إلى التجديد وعدم الثبات، ولإتاحة المجال لأكبر عدد من الكتاب للمشاركة.

الفيصل وقبة قنسرين

أشكركم كل الشكر على نشر المقالة المعنونة بـ «قنسرين: المدينة المنسية» في العدد ٢٧٨ والتي كان لها أثر طيب في نفوس أبناء قنسرين (العيس) لظهور بعض الاهتمام من الجهات المعنية حيث بدأت الترميمات للقبة التي كانت موضوع الغلاف، بعد نداء من قبل إذاعة صوت الشعب في سورية - للمعنيين للاهتمام أكثر بآثار قنسرين.

فالشكر لكل العاملين في مجلتنا العزيزة «الفيصل»

علي جمعة الخويلد
سورية - حلب - ص.ب ١٠٨٨٤

التحرير:

نشكر جهات الاختصاص على ما أبدته من اهتمام بعد نشر موضوع قنسرين، وهذا - لا شك - جزء من رسالة المجلة، ونأمل أن يكون لكل ما ينشر في المجلة من آراء، أثره السريع إن شاء الله.

استطلاع عن فلسطين

نعتز أن نشارك في حل مسابقة مجلة الفيصل العدد (٢٨٠) لأن مجلة الفيصل من أفضل المجلات الثقافية العربية، ونحن دائماً نحب قراءتها والاطلاع عليها، ونشكر إخواننا في المملكة العربية السعودية على مثل هذه المجلة لما فيها من موضوعات شائقة ومائعة ونأمل منكم التقدم بهذه المجلة العزيزة إلى الأمام وأن تضعوا بها استطلاعات بالصورة أكثر منها بالكلمة عن بلدنا الثاني المملكة العربية السعودية التي نعتز بها كثيراً، والتي هي قريبة من قلب كل عربي ومسلم، وكذلك نطلب منكم أن يشتمل العدد القادم على استطلاع عن بلادنا الحبيبة فلسطين الحرة الكريمة العزيزة بإذن الله تعالى وعونه ولكم الشكر والتقدير دائماً.

أسعد حسين عبدالرحمن البابا
الجمهورية اليمنية - صنعاء
ص.ب: ١٧٨

التحرير:

نعدك بنشر استطلاعات عن فلسطين ومدنها. وقد سبق أن أعدت «الفيصل» ملفاً خاصاً عن القدس في العدد (٢٣٢)، ونتمنى أن نستطيع تغطية كل جزء في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي؛ لأن كل تقدم لا يبدأ إلا بمعرفة الذات، والمكان يمثل جزءاً مهماً من نت الذات، ونود الإشارة إلى أننا سوف نرسل لك - على سبيل الإهداء - العدد الخاص بالقدس، مع تقديرنا ومحبتنا.

تحية وتقدير

تحية تقدير واحترام كبيرين أزفها إليكم إخواني العاملين بالمجلة الرائعة «الفيصل» هاته المجلة التي أشرقت وأشرقت معها البسمة الشفافة، هاته المجلة التي أنارت الطريق أمامنا نحو مستقبل أفضل، وحياة رائعة، وجعلت من أركانها متعة لا تنتهي مع الوقت، وأثبتت فعلاً أنها «المجلة العربية الأولى».

فمن شدة إعجابي بمجلتكم الغراء «الفيصل» ولأن هوايتي القراءة والمراسلة قررت مراسلتكم ثانية لأبلغ عن إعجابي وثنائي الشديدين.

إخواني إنني أعاني من صعوبات في الحصول على مجلة الفيصل، فهي معدومة تماماً في منطقة أولف الجزائرية، مما سبب لي فراغاً كبيراً في حياتي، فلدي عدد قديم من هاته المجلة الغراء تسلمته منذ مدة طويلة من أحد الأصدقاء، وإلى يومنا هذا لم أحصل على أعداد أخرى منها فقررت أخيراً الاتصال بكم شخصياً لاقتناعي العميق بقدرتكم على مساعدتي في اقتناء أعداد جديدة من مجلتكم القيمة، كما أهنئكم بحلول الألفية الجديدة عام ٢٠٠٠ متمنياً لكم عاماً سعيداً مملوءاً بالنجاحات المتواصلة.

وأخيراً وليس آخراً أقبلكم بأني في انتظار ردكم. وتقبلوا مني أسمى عبارات التقدير وأخلصها.

خالد الراجع

ص.ب : ٣٦٨ حي سيدي عثمان ـ أولف أدرار ـ الجزائر.

التحرير:

نشكر لك هذه الثقة، وسوف تحاول المجلة أن تحل مشكلة التوزيع في بعض مدن الجزائر، التي أعدنا التوزيع بها بعد توقف لفترة طويلة. وبالإمكان الاتصال على موزع الفيصل بالجزائر: مؤسسة E B.D. Press لتوزيع الصحف الوطنية والأجنبية رقم ٠٦ عمارة المستقبل ساحة الحرية ـ باتنة ١٠٥٠٠ الجزائر. هاتف رقم ٠٤٨٦١٥٥٥، ناسوخ ٠٤٨٦٢٤١٥. وسوف تصل إليك بعض الأعداد الأخيرة من المجلة.

عن الخط والخطاطين

أعجبني موضوع معرض الخط العربي في عددكم الأخير، نشكر لكم اهتماماتكم بتراثنا الأصيل الخط العربي حرف القرآن الكريم، رجائي تزويدي باسم الهيئة المسؤولة عن إعداد معارض الخط العربي بغية التبادل الثقافي معها، أو رفد تلك المعارض بلوحات مزخرفة لكبار الخطاطين أمثال عباس البغدادي الخطاط الأول في العراق والذي يصنفه أكثر الباحثين الخطاط الأول في العالم، وقد فاز ثلاثة من تلامذته بجوائز رئيسة في مسابقة تركيا الأخيرة التي تضم أشهر خطاطي العالم.

رجائي تزويدي بعناوين الخطاطين المذكورين في البحث مثل أحمد ضياء، وعبدالرحيم أمين، وعثمان طه، ومحمد طاهر الكردي، وهل الأخير على قيد الحياة أم لا.

وكنت قد أرسلت لكم بحثاً في الخط العربي ووعدتم بنشره، وعزمت على إرسال بعض المقالات في الخط، ولدي بحوث قيد الإعداد حال دون إرسالها تأخر نشركم لذلك البحث، ما يقارب العام. رجائي مساعدتي في إرسال العناوين، وأنتم أهل لنشر العلم والمعرفة وخدمتها والسلام عليكم.

كمال الجميلي الخطاط

مدرس ثانوية الشعب النموذجية

صنعاء ـ ص.ب: ٢٣٢١ ناسوخ ٢٢٣٣٤٦

التحرير:

نظمت الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض معرض الخط العربي الذي نشر عنه استطلاع بالمجلة في العدد (٢٧٩)، وعنوانها: الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض ـ حي السفارات. ص. ب: ٩٤٥٠١ الرياض ١١٦١٤، هاتف: ٤٨٠٣٨٨٢ ناسوخ رقم ٤٨٠٣٨٨٩. ولا تتوافر لدينا عناوين الخطاطين، ويمكن للهيئة أن تعينكم في هذا المسعى. وسوف يتم النظر في مقالتك وإبلاغك بموقفها من النشر من خلال البريد قريبا إن شاء الله.

ردود سريعة

الأخ عبدالناصر بوشكيوة ـ ولاية باتنة ـ الجزائر:

الموضوعات الدينية والعلمية مضمنة في المجلة من غير أن تكون هناك أبواب ثابتة خاصة بها، أما الموضوعات الرياضية فتختص بها مجلات أخرى كثيرة على امتداد وطننا الكبير، وكما قلنا من قبل، فإن أفضل أسلوب للتعارف بين القراء يكون بتبادل الآراء والأفكار من خلال ما ينشر في المجلة من مقالات.

الأخت فاطمة محمد حريق الأسمري ـ بللسمر ـ أبها ـ السعودية:

تم إرسال العددين ٢٧٥، ٢٧٦ حسب طلبك، علماً بأن اشتراكك المجاني بدأ من العدد ٢٦٣، وكان آخر عدد أرسل إليك هو العدد (٢٧٤). وجاء إرسال هذين العددين تقديراً لاهتمامك بالمجلة، كما أرفق معهما أعداد أخرى.

الأخ فارس عبدالله يحيى الوادعي ـ حجة ـ اليمن:

يمكنك أن توجه سؤالك إلى الجهات المتخصصة حتى لا نخوض فيما يخرج عن نطاق اختصاص المجلة، أما عن المعلومات الخاصة بجائزة نوبل والفائزين بها منذ عام ١٩٨٦ إلى ١٩٩٩م في المجالات المختلفة، فيمكنك الحصول عليها بالاتصال بالسفارة السويدية في بلادك، علماً بأن «الفيصل» تنشر سنوياً أسماء الفائزين بهذه الجائزة.

الإخوة بدر الدين هزاع قائد علي ـ تعز ـ اليمن، سيد عفنان سلامة ـ السويس ـ مصر، د. أحمد بن عبدالوهاب الإبراهيم ـ حلب ـ سورية:

نرجو كتابة إجابات المسابقة في الكوبون الخاص بذلك، وقد راعينا ألا تكون هناك مواد تحريرية في ظهر الكوبون، كما أن المدة المحددة لتلقي الإجابات زيدت إلى ٤٥ يوماً.

الأخت مريم ورد المحمد ـ حلب ـ سورية:

كنا نود لو نستطيع الاستجابة لطلبك، ولكنه ـ للأسف ـ خارج اختصاص المجلة وقدرتها، ونوجهك إلى مخاطبة جهات الاختصاص التي يمكنها أن تفيدك في مسعاك.

أما الفوز بجائزة المسابقة فيتم بفرز الإجابات الصحيحة، وإجراء القرعة بما يضمن تساوي فرص الفوز بين المتسابقين.

الطرز المعمارية التقليدية في عرقة

إبراهيم الجميعة
الرياض ـ السعودية

تميزت الطرز المعمارية للبناء في المناطق التي تقع على مجرى وادي حنيفة (الممتد على مسافة ٢٠٠ كم من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي والذي تقع مدينة الرياض في منتصف المسافة منه) باستخدام المواد المتوافرة في البيئة. كما أن نوعية البناء كانت تتماشى مع متطلبات الطقس والمناخ التي تعيشها المنطقة من حيث الحرارة والبرودة صيفا وشتاء.



لذا فإن مادة البناء الأساسية كانت اللَّبِنَ المصنوع من الطين الذي كان يجلب من الأودية والمتوافر بكميات كبيرة. وأساسات البناء من الحجر المقطوع من المنطقة نفسها، وقد ساعد هذا النمط المعماري على تلطيف الجو خلال فصل الصيف، وسرعة التدفئة في الشتاء، لكون المواد الطينية المستخدمة تتميز بهذه الخواص.

كانت لي زيارات سابقة لبعض مناطق الوسطى منذ نحو ثماني سنوات، وكانت المباني بحالة مقبولة نوعا ما وجيدة أحياناً؛ إلا أن زيارتي الأخيرة هذه السنة رأيت فيها ما يحز في النفس من اندثار عدد من هذه الأبنية، لتنحصر بذلك محاولة توثيقها ودراستها فيما تبقى منها. وقد رأى فرانك لويد رايت في كتابه المنشور عام ١٩٤١م والمعنون Wright On Aartchitecture أن أي دراسة حقيقية للفن المعماري ما زالت





مسجد صغير يطل على الوادي بني من الطين والحجر لا يبدو فيه سوى نافذتين متقابلتين في أعلى الجدار



أنماط معمارية تبين أساليب البناء التي كانت سائدة وقد تعرضت للتهدم بسبب الإهمال

تعتمد على دراسة العمارة الشعبية في المناطق المختلفة من العالم. لذا كان اعتمادي في هذا الاستطلاع على صور بعض هذه المباني لنعرف النمط المعماري المتبع في مناطق وادي حنيفة، متخذين مدينة عرقة نموذجاً، مع أن غالبية منازلها الطينية - للأسف - أصبحت مهدمة أو في طريقها إلى الزوال بسبب هجرها والعوامل الطبيعية التي تمر بها.

اتصلت عرقة حديثاً بمدينة الرياض بعد اتساع نطاق العاصمة، وهي تقع على وادي حنيفة شمال الرياض وجنوب محافظة الدرعية بنحو ٢٠كم. وهي من قرى اليمامة التي لم تدخل في صلح خالد بن الوليد يوم مسيلمة، سكنها بنو عدي بن حنيفة، وكانت مسرحاً لحرب دارت بين جيش الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود وابني دهام بن دواس عام ١١٨٥هـ.

يطلق عليها عَوْقَة وحرفت الكلمة إلى عَرقَة أو عرفت فيما بعد بعرقَة.

كانت في عهد الملك عبدالعزيز محصورة في أحياء الظهيرة والصنع والقلعة، وامتدت بعد الاستقرار الأمني لتشمل عدداً من المزارع والمباني المترامية بحسب تنامي السكان آنذاك.

كانت محاطة بأبراج مراقبة تسمى مربعة، والمرابيع فيها ثمان: مربعة القلعة، ومربعة العبيدية، ومربعة الويسلية، ومربعة الظهيرة، ومربعة الغريب، ومربعة المضيجر، ومربعة أم قصيبة، ومربعة السعودية.

أما أسوارها التي تحيط بها فكان لها أربعة أبواب، يسمى كل منها دروازة:

- من الشمال دروازة ابن ثنيان.
- من الجنوب دروازة المقصورة.
- من الشرق دروازة الإمام تركي.
- من الغرب دروازة الشعيب.

وجميعها اندثرت مع مرور الزمن وعدم الحاجة إليها.

إن العناصر المعمارية التي اتّبعت في بناء دور السكن غلب طابع النفع فيها على طابع الجمال، إلا أنها تبين المشاعر والأحاسيس التي كانت تسود قاطنيها، وتوضح ملامح الطباع والتقاليد، وتعد سجلاً شاهداً على مدنية الشعوب ونهضتها ومدى حاجتها

إلى هذا النمط المعماري بحسب ازدهارها وأمنها. ولعلنا هنا من خلال وصفنا لعناصر البيت الطيني نستشف حاجة الساكن إلى هذا النوع من البناء.

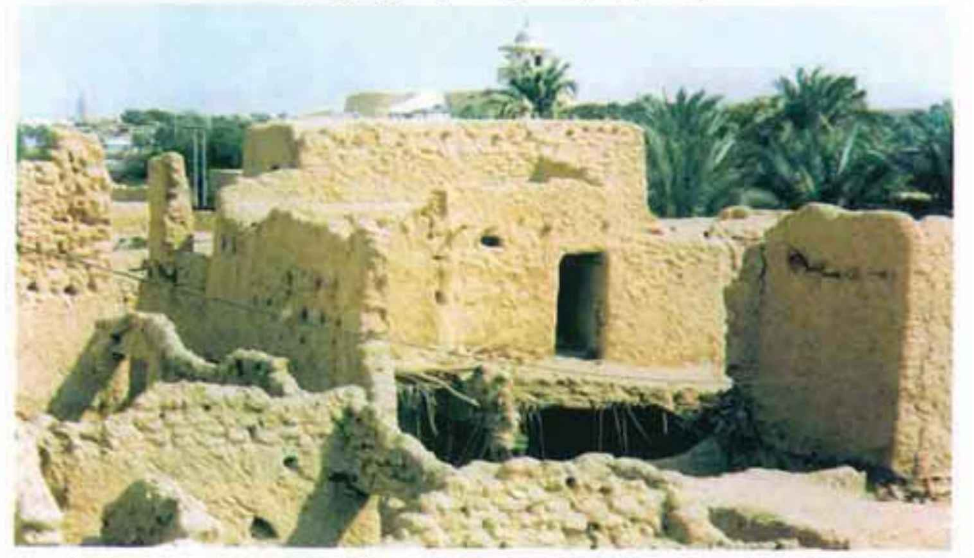


أحد المنازل في عرقة قريب من مجرى الوادي، عمد البناء إلى رفع المنزل إلى نقطة مرتفعة من طرف الجبل المحاذي، واستخدم الأحجار المقطوعة محليا لتفادي تأثير المياه

المواد المستخدمة

لجأ البناء إلى استخدام المواد المتوافرة لديه بحسب طبيعة المنطقة، ومن ثم، فإن موقع عرقة على وادي حنيفة جعل المادة الأساسية في البناء الطين «اللَّبن» وهو يتم بخلط الطين والتبن ليلاً، ومع طلوع الشمس يبدأ اللبّان بصنع اللبن في قالب من الخشب ليكون مقاس اللبن واحداً، مما يساعد على تراص الجدار. وبعد تركه في الشمس لمدة تصل إلى ثلاثة أيام يتم البناء به.

واستخدم البنّاء اللبن في الأساسات في بداية الأمر حيث يتم وضع لبنتين متجاورتين كأساس، ثم يتم البناء عليهما بحسب ارتفاع المبنى، فإذا ارتفع البناء بمتوسط عشرة أذرع أو ثمانية يحضرُ الأثلُ المعدّ للتسقيف.



منظر للأبنية المتهدمة في عرقة، ويلاحظ وجود غرفة في الدور العلوي لأحد المنازل. ربما كانت «الروشن» الذي يستخدم كغرفة أو مجلس إضافي

أما السقف فتستخدم فيه عادة جذوع الأثل، وهو متوافر في المزارع في المنطقة، ويقطع بأطوال متناسقة بحسب أطوال الغرف، كما يستخدم جريد النخل الذي يُصفّ فوق جذوع الأثل المستخدمة في السقف، والغرض من جريد النخل حفْظُ الطين من التساقط، وليعطي نوعاً من التماسك والعزل للأسطح. ثم يوضع الطين عليه بسماكة تقارب ٢٠سم بشكل متساوٍ.

بعد انتهاء هذه العملية يقوم البنّاء بالتشييع، وهو سد ثغرات اللبن في الجدار ليتساوى مستوى الطين في الجدار قبل الصقل (التلييس) بالطين الناعم والتبن للجدران من الداخل والخارج.

تطور البناء نسبيًا خصوصا في الأساسات، وقد ساعد على ذلك وجود قاطعي الحجر من المناطق القريبة، فعمد البناء إلى بناء مجموعة من الحجر بشكل متراص: نحو أربع إلى خمس حجرات بحسب طبيعة الأرض أو قربها من المياه، ومن ثم يتم بناء الجدران بطريقة البناء السابقة.

الأبواب

الأبواب جميعها من الخشب، ويتميز الباب الخارجي بالألوان الزاهية المنقوشة، ويغلب اللون



الإهمال الذي أصاب الأبنية القديمة يجعلها مهددة بالزوال

الأحمر على ألوان الزخرفة مع تداخلات باللون الأزرق والأخضر والأصفر، بأشكال هندسية متجانسة تخلو من الصور الآدمية والحيوانية.

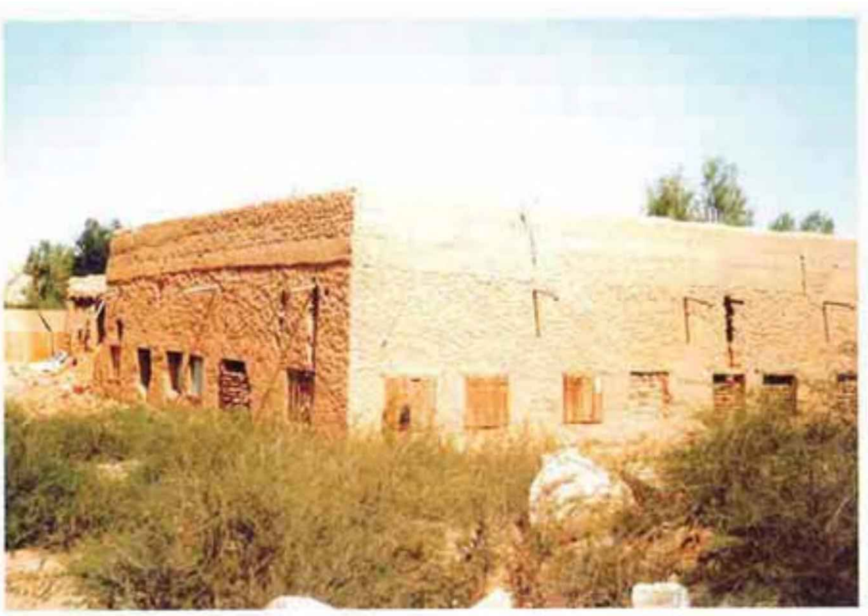
وكذلك يزخرف باب مجلس الرجال (القهوة)، أما بقية أبواب الغرف فتكون غير مزخرفة لعدم الحاجة ولبعدها عن أنظار الزوار. وقد كان للمنزل باب رئيس وآخر خلفي لأغراض المنزل ودخول النساء أحياناً، لإعطاء نوع من الخصوصية. لم نجد في موقع الزيارة أي نموذج للأبواب، وإنما تم استبدال أبواب حديدية حديثة بها، ربما بسبب الإقبال على شراء هذه النوعية من الأبواب في السنوات العشرة الأخيرة.

المداخل

لصغر البيت في منطقة الزيارة فإن مداخل البيوت، على تهدمها، لم تتميز بالاتساع الذي كان يتميز به البيت الطيني، بل كانت المداخل الرئيسة صغيرة وإن كانت تأخذ الطراز نفسه، حيث نجد القهوة على يسار الداخل إلى المنزل، وينتهي المدخل أو ما يطلق عليه الدهليز بجدار لإحدى الغرف، أو بحاجز جداري بارتفاع مترين تقريباً، ولحجب فناء المنزل عن أنظار الزائر لإعطاء خصوصية لأهل الدار.

مجالس الرجال

وهو مكان الضيافة، وعادة تكون هذه المجالس على يسار المدخل، ولها أبواب ذات زخارف ولكن بقدر أقل من الباب الخارجي، وبناؤها مربع الشكل يتم تلييس جدرانها الداخلية بالجبس الأبيض، ونجد أحياناً فتحات في الجدار (الكوة) لتوضع فيها الكتب أو الحاجات أو السرج. كما يبنى في المجلس (الكمار) وهو ألواح خشبية مغروسة بالجدار وبارزة عنه بارتفاع متر ونصف المتر تقريباً على شكل أرفف تثبت بالجبس، ويتم صف أدوات إعداد القهوة من الدلال والأباريق لإبداء الترحاب بالضيوف، ولإعداد القهوة في حضورهم أحياناً. أما أسفل هذا الكمار فيوجد الوجار، وهو مبني من الجبس بارتفاع ١٠ - ١٥سم عن الأرض، ويبعد ٧٠سم عن الجدار لإيجاد مكانٍ لمعدّ القهوة، والغرض من الوجار إيقاد النار فيه لتحميص القهوة وتسخين المياه وللتدفئة أيام الشتاء، وأحياناً يلحق به مروحة لنفخ النار للتسريع في اشتعالها. أما الدخان الناجم عن هذه العملية فيتم إخراجه عن طريق فتحة في السقف تقع مباشرة فوق الوجار، وتسمى



أحد المنازل التابعة لإحدى المزارع القريبة من عرقة ونرى تعدد النوافذ الخارجية وهو تطور عن النماذج السائدة في المنطقة


الإهمال الذي أصاب الأبنية القديمة يجعلها مهددة بالزوال

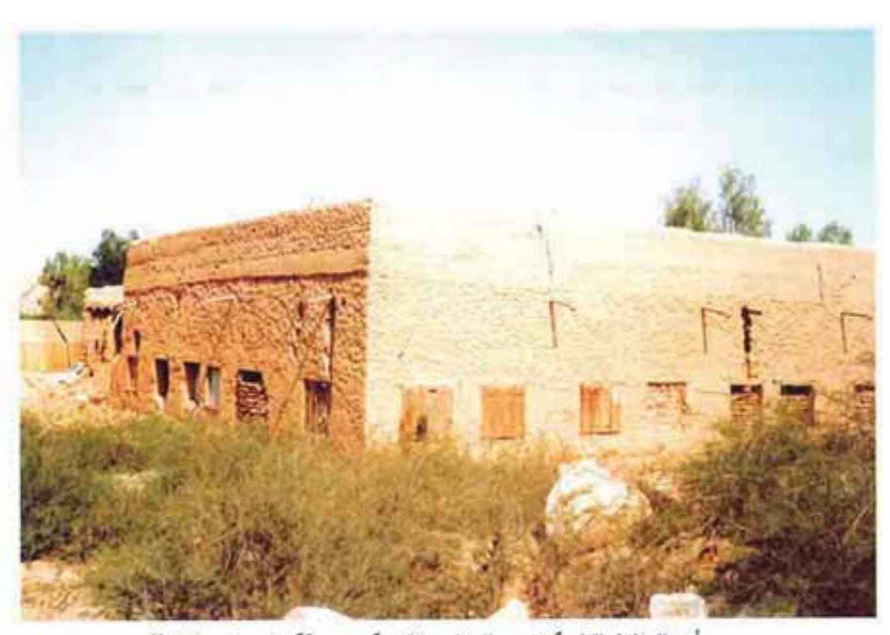
شراء هذه النوعية من الأبواب في السنوات العشرة الأخيرة.

المداخل

لصغر البيت في منطقة الزيارة فإن مداخل البيوت، على تهدمها، لم تتميز بالاتساع الذي كان يتميز به البيت الطيني، بل كانت المداخل الرئيسة صغيرة وإن كانت تأخذ الطراز نفسه، حيث نجد القهوة على يسار الداخل إلى المنزل، وينتهي المدخل أو ما يطلق عليه الدهليز بجدار لإحدى الغرف، أو بحاجز جداري بارتفاع مترين تقريباً، ولحجب فناء المنزل عن أنظار الزائر لإعطاء خصوصية لأهل الدار.

مجالس الرجال

وهو مكان الضيافة، وعادة تكون هذه المجالس على يسار المدخل، ولها أبواب ذات زخارف ولكن بقدر أقل من الباب الخارجي، وبناؤها مربع الشكل يتم تلييس جدرانها الداخلية بالجبس الأبيض، ونجد أحياناً فتحات في الجدار (الكوة) لتوضع فيها الكتب أو الحاجات أو السرج. كما يبنى في المجلس (الكمار) وهو ألواح خشبية مغروسة بالجدار وبارزة عنه بارتفاع متر ونصف المتر تقريباً على شكل أرفف تثبت بالجبس،


أحد المنازل التابعة لإحدى المزارع القريبة من عرقة ونرى تعدد النوافذ الخارجية وهو تطور عن النماذج السائدة في المنطقة

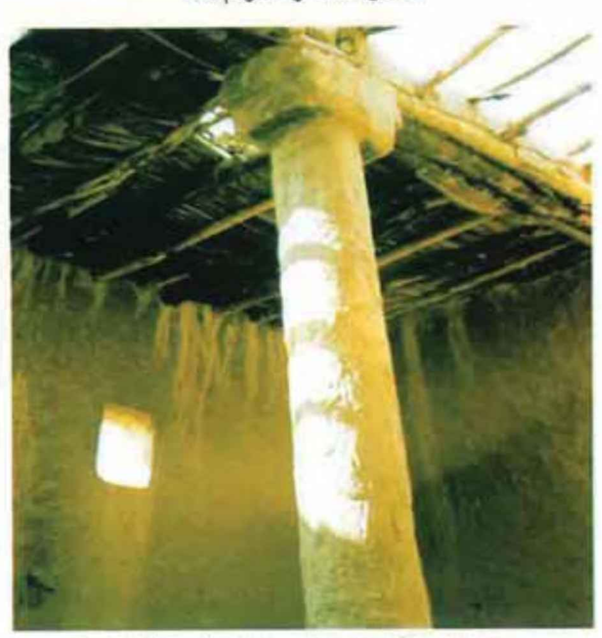
ويتم صف أدوات إعداد القهوة من الدلال والأباريق لإبداء الترحاب بالضيوف، ولإعداد القهوة في حضورهم أحياناً. أما أسفل هذا الكمار فيوجد الوجار، وهو مبني من الجبس بارتفاع ١٠ ـ ١٥سم عن الأرض، ويبعد ٧٠سم عن الجدار لإيجاد مكان لمعدّ القهوة، والغرض من الوجار إيقاد النار فيه لتحميص القهوة وتسخين المياه وللتدفئة أيام الشتاء، وأحياناً يلحق به مروحة لنفخ النار للتسريع في اشتعالها. أما الدخان الناجم عن هذه العملية فيتم إخراجه عن طريق فتحة في السقف تقع مباشرة فوق الوجار، وتسمى

الأحمر على ألوان الزخرفة مع تداخلات باللون الأزرق والأخضر والأصفر، بأشكال هندسية متجانسة تخلو من الصور الآدمية والحيوانية.

وكذلك يزخرف باب مجلس الرجال (القهوة)، أما بقية أبواب الغرف فتكون غير مزخرفة لعدم الحاجة ولبعدها عن أنظار الزوار. وقد كان للمنزل باب رئيس وآخر خلفي لأغراض المنزل ودخول النساء أحياناً، لإعطاء نوع من الخصوصية. لم نجد في موقع الزيارة أي نموذج للأبواب، وإنما تم استبدال أبواب حديدية حديثة بها، ربما بسبب الإقبال على



البنّاء استغلّ قرب المنزل من أحد الجبال فاستخدم سفح الجبل كجدار له. ونلاحظ هنا أن المنزل استخدم فيه الجص في التلبيس مع دقة بناء العمود الحامل للسقف ولعله رمم لاحقا



استخدمت الأعمدة من الحجر الدائري لحمل الأسقف وتم تلبيسها بالجبس لإضفاء منظر عليها وكانت في الفترات الماضية تستخدم جذوع النخل

الغرف، ويقوم الفناء بوظائف رئيسة من حيث التهوية وإكساب الضوء، لأنه مكشوف من دون سقف، فنجده في الصيف يعطي برودة للغرف المحيطة به، حيث إنه إذا تعرض الصحن الداخلي لأشعة الشمس الحارة فإن الهواء يسخن ويقل وزنه ويرتفع إلى أعلى، ومن ثم تتكون حركة شفط للهواء البارد من خلال نوافذ الحجرات ليحل محل الهواء الساخن.

ويطل على الفناء نوافذ الغرف وهي كبيرة نوعا ما، وكذلك أبوابها. كما أن للفناء أدوارًا أخرى، فهو ملتقى العائلة، ومكان لهو الأطفال أمام أنظار الأهل، وعنصر الحركة داخل المنزل، ويستخدم لأغراض الطبخ في حالات الولائم الكبيرة.

السطح

أسطح المنازل ذات ارتفاع بسيط، فعلى الرغم من تلاصق المنازل، فإن التقارب الاجتماعي السائد، والأمان خلال تلك الفترة لم يجعلا البنّاء يعمد إلى رفع الجدران للأسطح. وقد وضعت (المرازيم) في أماكن متفرقة من السطح للتخلص من مياه الأمطار وعدم تأثيرها في البناء. وقد استخدم السطح للنوم خلال الصيف، ولبعض المناسبات الكبيرة. وقد (لُيّست) أطراف الجدران فيما بعد للتخفيف من آثار الأمطار على الطين المستخدم في البناء.

ومع تطور البناء بنيت المنازل الطينية الواسعة ذات النوافذ المتعددة الكبيرة الحجم والمطلة على الشارع، كما استخدم الحجر المقطوع في البناء بعد توافر قطّاعي الحجر فأقيمت المنازل بكاملها من الحجر، وكذلك المساجد كما نلاحظ في الصور.

كما تعددت النوافذ المطلة على الشارع، وعلّيت الجدران، واستخدم الإسمنت بدلا من الطين بين الأحجار، وذلك قبيل ظهور النمط الحديث للمنازل.

إن هذه النظرة السريعة ربما تحمل في طياتها رسالة موجهة إلى القائمين على البلديات سواء في السعودية بمختلف مناطقها أو محافظاتها أو الوطن العربي عامة لإبقاء نماذج من العمارة التقليدية لتستفيد منها الأجيال القادمة.

المراجع

١. بلدية عرقة. رجب ١٤٠٦هـ
٢. المسكن في العمارة الإسلامية: مجدي محمد حريري. ط١. ١٩٩١م.
٣. معجم اليمامة. عبدالله بن محمد بن خميس. ط١. ١٣٩٨هـ
٤. خصائص التراث المعماري في المملكة العربية السعودية منطقة نجد. د. محمد بن عبدالله النويصر. ١٤١٩هـ
٥. الرياض مدينة وسكانًا كيف كانت وكيف عاشوا؟ أحمد بن مساعد الوشمي. رجب ١٤٠٦هـ
٦. عرض بعض الدراسات عن المعايير التصميمية للسكن الصحراوي والريفي في المملكة العربية السعودية. وزارة الأشغال العامة والإسكان. ١٤٠٤هـ

جوهرة عين الهر

أحمد جواد السويكت
الدمام - السعودية

جوهرة عين الهر هي صفة أعطيت لنوع خاص من بعض المعادن التي لها تركيب خاص، تتميز بأنها إذا قطعت بطريقة معينة أعطت خدعة ضوئية تسمى (حدقة العين القزحية) تجعلها تبدو كعين الهر.



بلورة فلسبار «حجر القمر» تظهر بشكل عين الهر «سريلانكا»



بلورات ديوبسيد عين الهر

تطلق هذه الصفة على مجموعة من المعادن التي تحتوي على شعيرات وخيوط رقيقة جداً ومتوازية تنعكس عليها الأشعة الساقطة فتكسبها بريقاً حريرياً متموجاً على هيئة حزم ضوئية.

ومن أشهر هذه المعادن التي تبرز خاصية الضوئية، كريزوبريل Chrysoberyl الذي يطلق عليه اسم كريزوبريل عين الهر، وهوحجر ذو بريق حريري، بلون أخضر مائل إلى الأصفر المسمر، وعندما ندور الحجر نلاحظ أن لمعة حليبية إلى بيضاء مخضرة تنتقل على سطحه. وهذه اللمعة تقتصر على خط ضوئي مستقيم ليشبه عين الهر Cat's Eye. كما يوجد نوعية نادرة من فصيلة معدن (كريزوبريل) الذي يعدّ من أهم أنواعه: الألكسندرايت عين الهر الذي يتميز بتغير لونه من الأحمر في الضوء الصناعي، إلى الأخضر في الضوء الطبيعي. وهذا النوع يتمتع بصلابة شديدة بعد الألماس والياقوت والسفير، وهو غالي الثمن وفي غاية الندرة. كما يظهر لنا حجر القمر (الفلسبار) أحياناً بمظهر عين الهر، عند حركته أو دورانه يكون الخط المتحرك أو الخط يمتد عبر سطح الحجر، وإذا أدير تغير الخط كما تتحول عين الهر تماماً.

وهذه الأحجار التي تظهر بتأثير ضوئي مثل عين الهر، تصقل بشكل كبوشون Cabochon لإظهار الخط الضوئي المتحرك بشكل فعال. لذا فإن قليلاً من الأحجار الكريمة، حينما يعثر عليها بحالتها الطبيعية، لا تكون جذابة، إلا بعد أن يأخذها الصانع المدقق ليضفي عليها مهارات فنه فيكسبها رونقها وبريقها الأخاذ، بعدة عمليات دقيقة في القطع والصقل والتلميع.

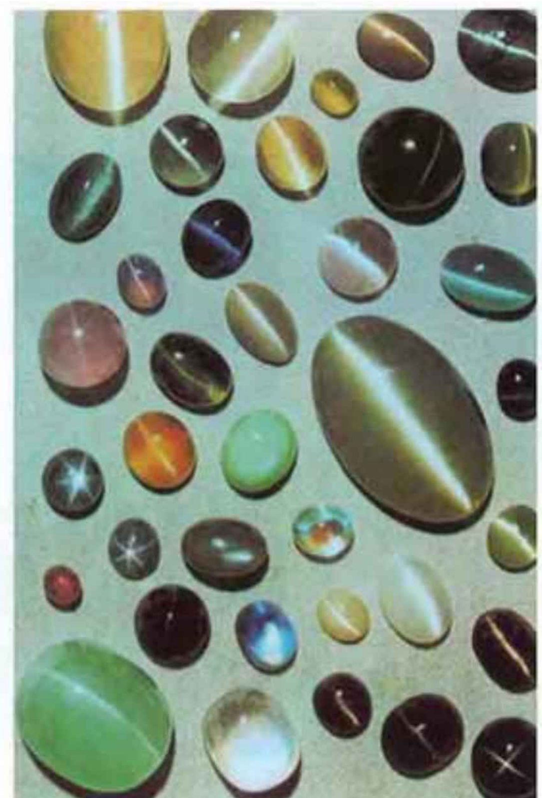
كما يوجد هناك أحجار كثيرة تظهر تأثيراً ضوئياً بشكل عين الهر، من ذلك ديوبسيد عين الهر، وأباتيت عين الهر، وكوارتز عين الهر، ونورمالين عين الهر...إلخ، وبناء على خبرتي في مجال الأحجار الكريمة، رأيت عدداً من الناس يشترون أحجاراً من نوعية «عين الهر» دون تمييز للجيدة من غير الجيدة، والأصلية من المزيفة. لأن هناك أحجاراً كثيرة يطلق عليها عين الهر تظهر خاصية ضوئية، بعضها رخيصة الثمن، وأخرى غالية الثمن. فعلى سبيل المثال: كوارتيز عين الهر: سعره رخيص جداً، وأما الألكسندرايت عين الهر فإنه غالي الثمن وفي غاية الندرة. ولكن قد لا يستطيع المشتري التمييز بينهما لنقص الخبرة والمعرفة، بل إن الجواهري نفسه في بعض الأحيان يفتقر إلى المعرفة الكافية بخصائص الأحجار الكريمة التي يبيعها.

أنواع عين الهر

عين النمر TIGER.S EYE

ينتمي هذا الحجر إلى مجموعة المرو «الكوارتز» المتبلورة، ولونه بني مصفر أو أصفر ذهبي إلى أسمر، وبريقه المتألق الجذاب يجعل منه حجراً رائعاً جميلاً، وخصوصاً عندما يصقل بشكل كبوشون لإظهار الخطوط البراقة أو اللامعة الضوئية المتحركة التي تشابه خاصية عين الهر، وتزداد عين الهر وضوحاً كلما كان القطع دقيقاً. وهذا النوع رخيص الثمن، ويستخدم، بكثرة في الخواتم والسبح وأزرار قمصان الرجال.

وأجمل بلوراته ترد من جنوب إفريقية ويطلق عليه اسم «الألماس الإفريقي» حيث إنه يشبه الألماس في أشياء كثيرة منها اللون الذهبي وأشعة الضوء البراقة. كما يوجد في الهند، وأمريكا، وأستراليا.



مجموعة بلورات عين الهر

عين الصقر FALCON EYE

وهو ينتمي إلى أحجار المرو «الكوارتز»، ولونه أزرق مائل إلى الرمادي، وله بريق حريري على هيئة حزم ضوئية، وهذه الحزم الضوئية المنعكسة لا تبقى مكانها في أثناء حركة الحجر، ولكنها تتحرك في اتجاه عكس هذه الحركة، فحركة الحجر في اتجاه ما في مسار الأشعة الساقطة والمنعكسة من الشعيرة إلى المجاورة في اتجاه عكس حركة الحجر.

وأجمل بلوراته ترد من الهند، وجنوب إفريقية، وبورما.

وصف عين الهر عند علمائنا

لقد أبدع العالم العربي الجواهري (التيفاشي) في وصف جوهرة عين الهر بقوله: إن هذا الحجر الكريم عجيب الشكل؛ وذلك لأن الغالب على لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة، إلا أنه يرى في

باطنه نقطة تميل إلى الزرقة على قدر عين الهر، الحامل للنور المتحركة في الفص، وتلك النقطة متحركة على الدوام إذا حركت الفص ظهرت لها حركة عكس حركته، بحيث إذ ميل به إلى جهة اليمين مالت متحركة إلى جهة اليسار وبالعكس(١).

كما وصفه العلامة الدمشقي المعروف «بشيخ الربوة» بدقة، وحدد صفاته وألوانه بقوله: سمي عين الهر لأنّ فيه نكتة مائية كالروح الباصرة في عين الهر، وهي تتحرك بخلاف حركته فإن تحرك يميناً مالت شمالاً، وإن حُرك شمالا مالت يميناً، ومن ألوانه ما يشوب بياضه صفرة يسيرة، وتكون النكتة المنظورة فيه شبيهة بذبابة صافية اللون، تبين في باطنه كأنها ماء متدفق يلعب يمنة ويسرة، ومنها ما يتجزع لمعانه كتجزع أعين السنانير(٢).

وأما العالم العربي داود الأنطاكي فقد وصفه في تذكرته بقوله: وهو حجر أبيض مع إشراق عظيم ومائية، وفي باطنه نقطة متحركة على الدوام على خلاف حركته وإن كسر الحجر على أقل الأجزاء ظهرت النقطة في كل جزء يظن أنه فيه ماء، وإنما هو جوهر شفاف(٣).

العناية بجوهرة عين الهر

عين الهر يتطلب عناية خاصة لأن بعض أنواعه حساسة جداً من المواد الكيماوية والأحماض ومواد التنظيف. لذا لا بد لنا من الحيطة والحذر من هذه المواد. كما أن بعضه يفقد لونه عندما يتعرض إلى الحرارة العالية؛ لذلك يجب تجنب تعريضه للحرارة.



تحفة فنية مرصعة بعين الهر



بلورات عين النمر «جنوب إفريقية»

كما يوصى بحفظه في مكان منفصل أو صندوق خاص به، بعيداً عن الأحجار الصلبة مثل الألماس والياقوت والسفير، لأن هذه الأحجار قد تتلفه عند الاحتكاك به.

الهوامش والمراجع

١. ازهار الأفكار في جواهر الأحجار ص١١٢.
٢. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص٦٦.
٣. تذكرة داود - ج١. ص٣١٨.

- الأحجار الملونة للمعهد الأمريكي لعلم الجواهر G.I.A، الجزء السادس والعشرون. عام ١٩٩٦م. صفحة٢٤.
- المجوهرات والأحجار الكريمة - تأليف أنطوانيت ل. ماتلينز. وأنطونيوس بوناتو. ترجمة شركة فتيحي. مطابع سحر ١٤١٥هـ
- الجواهر والأحجار الكريمة تأليف ياروسلاف نور. فلاديمير بوسكا. ترجمة: ميشيل خوري. دار طلاس للترجمة. الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- ازهار الأفكار في جواهر الأحجار - تحقيق: د. محمد يوسف والدكتور محمود بسيوني. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧م.
- Gem Stones Of the World - Walter Schumann - London. 1994

نظرية الأخلاق الإسلامية

عبدالراضي محمد عبدالمحسن
الرياض - السعودية

باتت أصالة الأخلاق الإسلامية محل تشكيك من الغربيين ومن تابعهم من الدارسين غير الغربيين، فيرى الغربيون - الواقعون في أسر النزعة العنصرية التي تعلي من شأن الآريين الذين يمثلهم الغرب الآن، على حساب الساميين الذين يعد المسلمون من العرب أبرز ممثليهم - أن علم الأخلاق اختراع يوناني خالص، وأن المسلمين لم يعرفوا شيئًا عنه إلا بتأثير الثقافات والأمم الأخرى ولا سيما اليونانيين(١).

يقول الدكتور توفيق الطويل: «حظُّ التفكير الأخلاقي علمًا مستقلاً عن كل الفروع من المعرفة يبدو ضئيلاً بالقياس إلى غيره من ألوان الفكر العلمي والفلسفي عند أعلام مفكري العرب، والكثير مما نقرؤه لهم من وجوه التفكير الأخلاقي الذي يتسم بطابع عملي أو فلسفي، قد زودهم به التفكير الأجنبي الدخيل الذي تهيأ لهم منذ أن اتصلوا بتراث الأمم القديمة المتحضرة منذ منتصف القرن الثامن وأخذوا ينقلون إلى العربية كنوزه»(٢).

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ذهب بعضهم إلى نفي أن يكون ما تضمنه القرآن الكريم والحديث النبوي من مبادئ الأخلاق صالحًا لتكوين مذهب أخلاقي؛ لأنه لا يعدو أن يكون طائفة من المواعظ والحكم التي تدل على الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى حسن السلوك(٣).


صورة متخيلة لابن سينا

ولم يكن الطعن في أصالة الأخلاق الإسلامية هو الغمامة الوحيدة التي حجبت جانبًا من إشراق شمس الأخلاق الإسلامية، وأعاقت سطوعها في سماء تاريخ علم الأخلاق، بل إن ظلالاً أخرى ألقيت عليها، ويسأل عنها أبناء الإسلام ومفكروه وأخلاقيوه المحدثون والقدماء الذين ندّ عن إدراكهم التصور المتكامل لحقيقة نظرية الأخلاق وجوهرها في الإسلام، ذلك الإدراك الكفيل بإثبات تفرد نظرية الأخلاق الإسلامية، وتكامل جوانبها وعناصرها على نحو لم يعرفه تاريخ الأخلاق قديمًا وحديثًا، بله إثبات أصالة الأخلاق الإسلامية ومنطلقاتها وأهدافها وغاياتها.

ثلاث طوائف

إذ إنه فيما يتعلق بالجهود والمناهج لعلماء المسلمين وطوائفهم في معالجة المسألة الأخلاقية لدى الطوائف الثلاث(٤):

الأولى: الفلاسفة التقليديون أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، ومن نهج نهجهم، واقتفى أثر اليونانيين مثل مسكويه.

وليس لنا أن نلتمس لدى أولئك جوهر نظرية الأخلاق الإسلامية؛ لأنهم كانوا ينهلون من معين أجنبي عن الثقافة الإسلامية، ويسيرون على منهج اليونان وهديهم، ويحتكمون إلى معاييرهم واختياراتهم، وإن كانوا قد مزجوا ذلك بقضايا إسلامية.

الثانية: المتكلمون، وهؤلاء قد تناولوا بعض الموضوعات المتصلة بالأخلاق كقضية الخير والشر، والحسن والقبح، والاختيار والجبر، لكن لا نعثر لديهم على مذهب أخلاقي حقيقي.

الثالثة: الصوفية، وأولئك قد وجهوا جلّ عنايتهم وجهودهم إلى جانب العمل والسلوك، مع ما يشوب منهجهم من ذاتية، وتقلّب، وافتقار لليقين المعرفي اللازم لتأسيس المبادئ والنظريات.

ويلاحظ أن الطوائف الثلاث عجزت عن الوصول إلى مذهب أخلاقي متكامل، فضلاً عن الوصول إلى جوهر نظرية الأخلاق الإسلامية، إذ أدرك كل مذهب عنصراً من عناصر النظرية الخلقية في الإسلام وفاتته بقية العناصر.

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الحديث فإن الدراسة القيمة والوحيدة التي تندرج في نطاق أعمال الفلسفة الأخلاقية، وهي الدراسة التي أعدها الدكتور محمد عبدالله دراز «دستور الأخلاق في القرآن»، قد ألمّت إلماماً واعياً ودقيقاً بحقيقة النظرية الأخلاقية في الإسلام، وقامت بتأصيل جوهر هذه النظرية، لكنها اقتصرت أيضاً على جانبين من جوانب نظرية الأخلاق الإسلامية وهما: الجانب النظري (المعرفة) والجانب العملي (الأخلاق العملية).

الإسلام لم يكتف بعامل واحد للإلزام الأخلاقي، بل عوّل على عوامل متعددة بما يناسب طبيعة البشر واختلافهم وتفاوت طبائعهم وتقبلهم

وذلك يحتم إعادة النظر في أسس النظرية الأخلاقية وعناصرها بما يكفل الإلمام الشامل والدقيق بها.

أسس متكاملة

فأسس النظرية الأخلاقية في الإسلام - كما تبدو لنا - أسس متكاملة تناسب طبيعة الرسالة الخاتمة، وهذا يقتضي تميزها وتفردها عما سواها من فلسفات ومذاهب أخلاقية، فتقوم نظرية الأخلاق الإسلامية على أسس وعناصر ثلاثة هي:

أولاً: **المعرفة**: يقصد بالمعرفة هنا المعرفة المتعلقة بموضوع الأخلاق من حيث مبادئها وأصولها وطبيعتها وطرق اكتسابها وتحصيلها، وكذلك البحث في غاية الأخلاق ومصدرها ...إلخ، وقد فاضت مباحث المعرفة الأخلاقية في الإسلام بأمهات المسائل والقضايا الأخلاقية التي تناولها الأخلاقيون قبل الإسلام، كذلك ما استحدثته النظرية من مسائل لم يطرقها أحد من قبل، بما يشكل أساساً متيناً لبناء دعائم أخلاق راسخة البنيان، وهو ما يظهر من أنموذج واحد نسوقه على سبيل المثال، يتمثل في المسألة التالية:

الإلزام الأخلاقي: أرجع الإسلام مصدر الإلزام الخلقي في الدرجة الأولى إلى الله تعالى(٥)، فهو خالق الإنسان، وواضع النظام الأخلاقي، ومراقب الناس في سلوكهم وأعمالهم ومحصي كل شيء عليهم: إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين. يس:١٢.

المصدر الثاني للإلزام هو الجماعة المسلمة التي حمّلها الإسلام جانباً من المسؤولية عن انحراف الأفراد؛ لأن فساد بعض الأفراد قد يؤدي إلى عقاب المجتمع كله: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. الأنفال:٢٥؛ لهذا قرر الإسلام مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إلى جانب المجتمع يعتد الإسلام بالعقل(٦) مصدراً ثالثاً للإلزام الأخلاقي، انطلاقاً من أن الإنسان حينما يدرك سوء عاقبة فعله فإنه

يتجنبه؛ لهذا سيقول أهل النار يوم القيامة: وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير. الملك: ١٠.

ومن مصادر الإلزام الأخلاقي في الإسلام الضمير الخلقي؛ لأن الإنسان يتمتع بحاسة أخلاقية يميز بها بين ما هو حسن وجميل من السلوك وما هو قبيح وضار، وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم: «البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس»(٧). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك»(٨).

ثم يعتد الإسلام - كما يرى الشيخ نديم الجسر(٩) - بالترغيب والترهيب مصدراً للإلزام الأخلاقي؛ فالإنسان بطبيعته يحب الخير والنفع لنفسه.

ويتبين مما سبق أن الإسلام لم يكتف بعامل واحد للإلزام، بل عوّل على عوامل متعددة بما يناسب طبيعة البشر واختلافهم وتفاوت طبائعهم وتقبلهم(١٠).

وكذل الشأن في بقية قضايا المعرفة الأخلاقية التي طرحها الإسلام بما يناسب الطبائع المتعددة، وينسجم مع واقع الحياة البشرية، وسنجد ذلك متحققاً في تناول مسألة: الجزاء، والمسؤولية الأخلاقية، والنية والدوافع، والحرية الأخلاقية، والقيم.

ثانياً: التربية: مفهوم التربية الأخلاقية في الاصطلاح هو تنشئة وتكوين لإنسان متكامل أخلاقياً، بحيث يكون مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، فيسارع إلى الخيرات ويتسابق فيها، كما يسرع إلى إزالة الشرور. ويتضمن ذلك جانبين: تطهير النفس من الرذائل الأخلاقية، وتنمية نزعات الخير(١١).

والتربية الأخلاقية بهذا المفهوم تشير إلى كل عملية نمو الوعي والإدراك الأخلاقي، ونمو الفعل الأخلاقي، وهي العملية التي تؤدي إلى بناء فكر وفعل أخلاقي متميز.

وهي بهذا المفهوم تتضمن جانباً معرفياً يتمثل في معرفة الخير والشر والواجب وحدود المسؤولية والضمير ومناط الإلزام وغير ذلك مما يدخل في مباحث الأخلاق، كما تتضمن في الوقت نفسه جانباً عملياً يتمثل في القدرة على تحويل هذه المعرفة إلى واقع وسلوك، أي أن التربية الأخلاقية تُخرج المعرفة من حالة القوة إلى حالة الفعل، من الحالة الاستاتيكية (الجمودية) إلى الحالة الديناميكية (الحركية)(١٢).

وهذا يكمن مصدر تفرد المنظومة الخلقية في الإسلام عن غيرها من المذاهب والفلسفات الأخلاقية، إذ تقدم هذه المنظومة دستورها الأخلاقي مقروناً بمنهج تطبيقه ووسائل نقله من حالة النظر المجرد إلى واقع الحياة والعمل، وكيفية تحقيق غاياته وأهدافه، وهو ما لم تقدمه نظرية أخرى للأخلاق.

وهو كذلك ما فات الدراسات السابقة أن تبرزه أو تكشف عن قيمة عنصر التربية الأخلاقية ودوره في تكامل منظومة الأخلاق الإسلامية.

ولأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، تكون التربية الأخلاقية، وهي الوسيلة إلى تطبيق الدستور الأخلاقي، في حكم الواجب الشرعي، وهو ما يمكن استنباطه من قوله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة*. **التحريم**: ٦.

التربية الأخلاقية تُخرج المعرفة من حالة القوة إلى حالة الفعل، من الحالة الاستاتيكية (الجمودية) إلى الحالة الديناميكية (الحركية)

إذ يروي ابن كثير عن علي رضي الله عنه يقول في قوله تعالى: قوا أنفسكم وأهليكم ناراً: أدبوهم وعلموهم(١٣).

فالتربية الأخلاقية من مفردات المسؤولية التي ألزم بها النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم في دائرته «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(١٤).

ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم

وسلم هذه المسؤولية الأخلاقية في قوله: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»، وقام صلى الله عليه وسلم بتحقيق هذا الأمر عندما كانت يد عمر بن أبي سلمة وهو غلام تطيش في صحفة الطعام، فقال له صلى الله عليه وسلم: «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»(١٥).

بل جعل النبي صلى الله عليه وسلم تربية الابن من حقه على أبيه، فروى البيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه»، وعندما سئل عمر بن الخطاب عن حق الولد على أبيه، أجاب بقوله: أن ينتقي أمه ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن.

وسائل تطبيق الدستور الأخلاقي

وقد أرشد الإسلام إلى مجموعة من الوسائل الكفيلة بتطبيق الدستور الأخلاقي، تنقسم هذه الوسائل قسمين:

الأول: الوسائل الدافعة: وهي الوسائل التي تنمي الاستعداد لفعل الخيرات، مثل: القدوة الصالحة، والموعظة، والصحبة.

الثاني: الوسائل المانعة: وهي الوسائل التي تحول دون فاعلية الرغبة في الأخلاق السيئة، وتعطل الإرادة والاستعداد لفعلها، ومن بين هذه الوسائل: الاعتبار، العقوبات.

وتراعي عملية التربية الأخلاقية في الإسلام الفروق الفردية بين البشر، فما يصلح لشخص قد لا يصلح لآخر، وما يجدي في مكان قد لا يفيد في مكان آخر، وبهذا تنوعت وتعددت وسائل التربية وبناء الأخلاق لتناسب جميع الناس، وإلا لو كانت الوسائل واحدة للجميع، لكنا كمن يغذي الرضيع بلحم الإبل، وهو لم يعتد إلا ألبان الثدي.

وتمتاز وسائل التربية كذلك بشمولها لجوانب النفس وملكات

> **يكمن مصدر تفرد المنظومة الخلقية في الإسلام في أنها تقدم دستورها الأخلاقي مقرونًا بمنهج تطبيقه ووسائل نقله من حالة النظر المجرد إلى واقع الحياة والعمل**

الإنسان، فهي تخاطب الإحساس، وتحاور العقل، وتباشر الحواس، وتمتاز كذلك بواقعيتها، وإمكان تطبيقها في دنيا البشر وحياة الأفراد، فهي لا تغلو في الشكلية والصورية، ولا تشتط في المادية، ولا تجنح إلى العسر، ولا تميل إلى الإفراط.

ثالثًا: السلوك (الفعل الأخلاقي):

السلوك من حيث المفهوم هو كل فعل إرادي صادر من إنسان راشد، وليس السلوك هو الفعل الظاهر فحسب، بل إن عمل القلب من نية وإرادة واعتقاد يدخل أيضًا في دائرة السلوك، ويترتب عليه الجزاء والمسؤولية، كما يترتب على الفعل المادي الظاهر، سواء أكان هذا السلوك ينظم علاقة الفرد بنفسه، أم بالناس أفرادًا وجماعات، أم بالكائنات الحية الأخرى(١٦).

وإذا كان هذا المفهوم قد جعل الحياة كلها ميدانًا للعمل الأخلاقي، إلا أنه قد فاته أن دستور الأخلاق في الإسلام قد أضاف جانبًا جديدًا للبنيان الأخلاقي ميز فلسفة الأخلاق الإسلامية من غيرها من المذاهب في تاريخ الأخلاق، ألا وهو الأخلاق الدينية فيما يخص علاقة العبد بربه، مثل: الإخلاص، والعبودية، والتوكل، وحب الله، والذكر، والرضا بقضائه، والشكر، والطاعة، والبر، والتقوى..إلخ.

فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاق طابع رسالته: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ومن ناحية أخرى فإن البعد الأخلاقي كامن في عقائد الإسلام وتشريعاته، فهي تبتغي جميعًا تهذيب النفس وإصلاح المجتمع والارتقاء بالأخلاق إلى أرفع منازلها(١٧).

ففي العقائد يورث الإيمان بالله النفس صفة المراقبة له، والحياء منه، والثقة به، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه أو الشكر على نعمائه، والمحبة له، وهي جميعًا من أعظم أخلاق الإسلام.

ويدفع الإيمان باليوم الآخر الإنسان إلى الامتثال لأوامر الله،

والتخلق بأخلاق الإسلام، لأن الله لن يسوي بين الذين عملوا الصالحات وغيرهم، يقول تعالى: *أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار*. ص:٢٨.

وليس المعنى الأخلاقي أقل ارتباطاً ووثاقة بالعبادات؛ فالصلاة هدفها النهي عن الفحشاء والمنكر يقول تعالى: *إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر*. العنكبوت: ٤٥.

والزكاة شرعت للتطهير والتزكية: *خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم*. التوبة: ١٠٣.

والصوم شرط لقبوله انتهاء صاحبه عن الأخلاق الذميمة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

وفي الحج أمر الله بالتقوى التي هي غاية الأخلاق وتاجها، وبكف اللسان عن سوء القول. يقول الله تعالى: *الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب*. البقرة: ١٩٧.

تراعي عملية التربية الأخلاقية في الإسلام الفروق الفردية بين البشر، فما يصلح لشخص قد لا يصلح لآخر، وما يجدي في مكان قد لا يفيد في مكان آخر

كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من أبرز الأخلاق الدينية التي اعتنى بها الإسلام، جعل أساس تفضيل الأمة الإسلامية: *كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله*. آل عمران: ١١٠.

ولأن الإسلام قد ربط بين الأخلاق والإيمان، فقد نفى الله الإيمان عمن يقع في بعض الرذائل مثل الزنا والسرقة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» كذلك يرفع الله صفة الإيمان عن الذي: *يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين*. الماعون: ٢-٣.

وقد قام كثير من علماء الإسلام قديماً وحديثاً بإخراج الكتب والرسائل التي تبين الأخلاق العملية في الإسلام. ومنها ما اهتم بأخلاق الطوائف: مثل كتاب أخلاق العلماء للآجري، وآداب الصوفية للسلمي، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ومنها ما كان عاماً، مثل: أدب الدنيا والدين للماوردي، والذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصبهاني.

ومنها ما اهتم بالأخلاق في بعض الفنون، مثل: أدب الكاتب لابن قتيبة، وآداب الجدل لأبي القاسم البلخي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر.

المراجع

١. فلسفة الأخلاق في الإسلام، محمد يوسف موسى، ص٢٣، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، أحمد صبحي، ص١٤-١٦.
٢. الفلسفة الخلقية، توفيق الطويل، ص١٣٧.
٣. الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، أحمد صبحي.
٤. الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، د. مصطفى حلمي، ص١٠٨-١٠٩.
٥، ٦. الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، مقداد يالجن، ص٢٢١.
٧. صحيح مسلم (كتاب البر والصلة، باب: تفسير البر والإثم والآداب).
٨. صحيح البخاري (كتاب البيوع، باب: تفسير المشبهات)
٩. بحث بعنوان «القرآن في التربية الإسلامية» ص١٠٥: نقلا عن الدكتور مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، ص١٣٣.
١٠. الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، مقداد يالجن، ص٢٢٢.
١١. جوانب التربية الإسلامية، مقداد يالجن، ص٣٠٢.
١٢. في التربية الأخلاقية، د. سهام محمود العراقي، ص١٤١.
١٣. تفسير ابن كثير (٤/٣٩١).
١٤. البخاري (كتاب النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها).
١٥. سنن ابن ماجه (كتاب الأدب).
١٦. الاتجاه الأخلاقي، مقداد يالجن، ص٣٥٥.
١٧. دراسات أخلاقية، د. عبدالحميد مدكور، ص١٤٠-١٤٢.

السكة الإسلامية الجزائرية في العهد العثماني

أمنة لخضر دريّاس
الجزائر ـ الجزائر

تضم متاحف الجزائر مجموعات قيمة من السكة الجزائرية ترجع إلى الفترة العثمانية، ولعل ما يلفت الانتباه لهذه المجموعة تعدد الأنواع من حيث القيمة الفنية والاقتصادية التي تعدّ بحق أهم الوثائق المادية لإعادة كتابة التاريخ من جهة، ومن جهة أخرى تعدّ وثائق حية يمكنها إضافة الجديد إلى التاريخ الفني والاقتصادي للجزائر في هذه الفترة زيادة على كونها الشعار الرسمي للدولة، وشارة من شارات الملك.

السكة من خلال النصوص التاريخية

إذا كانت السكة إحدى شارات الخلافة المهمة، فإن خير الدين (حاكم الجزائر العسكري من قبل السلطان العثماني) كان حريصاً دائماً على ضمان هذا الحق للسلطان العثماني وهو ما يؤيده صاحب كتاب «غزوات عروج وخير الدين» حيث يقول على لسان خير الدين مخاطباً أهل مدينة الجزائر: «وقد ظهر لي من الرأي أن نعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه وتعالى، ونصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم، نصره الله، فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلات الجهاد، ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه، وضرب السكة باسمه».



الدينار أو الزياني (وجه القطعة)



الدينار أو الزياني (ظهر القطعة)

والموضوع نفسه يذكره صاحب كتاب «إتحاف أهل الزمان...»حيث يقول: «الرأي أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية، ونعتمد عليه في حماية المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته؛ وذلك بالدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة باسمه لتنفيذ ظل حمايته» ويضيف قائلاً: وبعثوا له من السكة المضروبة باسمه في الجزائر...».

أما النص الثالث فقد أورده صاحب كتاب «الغزوات» ويتعلق بضرب السكة بتلمسان والنص رسالة من خير الدين إلى أتباعه الذين ساعدوا مولاي عبدالله على اعتلائه عرش تلمسان خلفاً لمولاي

المسعود يقول فيها: «إني قد جعلت مولاي عبدالله سلطاناً على أهل تلمسان، فاخلعوا عليه الخلعة الملوكية بشرط أن تكون السكة والخطبة لمولانا السلطان الأعظم سليم خان، ولا مدخل له في شيء من ذلك».

وعلى الرغم من عدم إفصاح هذه النصوص عن بداية ضرب النقود بالتحديد فإن السكة المحفوظة في المتاحف تؤكد أن سك النقود وقع في سنة ٩٢٦هـ الموافق ١٥١٩م ،وليس قبل ذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن من خلال هذه النصوص معرفة مراكز الضرب التي كانت موجودة بالجزائر وقتها كدار الضرب بتلمسان، الجزائر.

أنواع النقود (السكة)

عرفت الجزائر في الفترة العثمانية أنواعاً مختلفة من النقود سواء منها الذهبية، كالدينار والسلطاني، والسلطاني الجديد وأجزائها، وقد عرف الدينار بالزياني بسبب التشابه الكبير بينه وبين الدينار الذي كانت تصدره دار الضرب بتلمسان في العهد الزياني، وهو ما دفع بأمير الجزائر إلى توقيف هذه الدار في القرن السابع عشر وضمها إلى دار الضرب بمدينة الجزائر لتصبح دار ضرب مركزية، أما السلطاني والسلطاني الجديد وأجزائهما فقد ضربتهما دار ضرب مدينة الجزائر التي سارت على منوال الطراز العثماني بإسلامبول. والجدير بالملاحظة هنا هو التلاعب الكبير الذي طرأ على



نصف ريال (وجه القطعة)



نصف ريال (ظهر القطعة)



ضعف الريال (وجه القطعة)



ضعف الريال (ظهر القطعة)

النظام النقدي خلال هذه الفترة حيث انخفض عيار السلطاني من ٩٢٥ في القرن السابع عشر إلى ٨١٠ في بداية القرن ١٩م بل يمكن القول: إن قيمة السكة عموماً أصبحت لا تساوي سوى ثلاثة أرباع السكة القديمة.

وتعد النقود الفضية هي الوحدة الأساسية في العملة الجزائرية، وتمتاز قطعها بتقنيات عالية لا نجدها في السكة الذهبية والنحاسية، ونسبها كانت عالية جداً، ومن هذه القطع: الريال بضعفه وأجزائه والصايمة والموزونة. ولجودة هذه العملات الفضية كانت في كثير من الأحيان تسك خصوصاً لإرسالها إلى القسطنطينية، إلى اسلامبول، بسبب كثرة الطلب عليها.

وهناك النقود النحاسية وهي قطع اختصت بها مدينة ضرب الجزائر حسب ما وصلنا من القطع، وعرف منها: الخروبة والدرهم القديم بأجزائه والدرهم الصغير الجديد بأجزائه، وجمعت بين الأشكال الدائرية والمربعة.

والزخرفة التي طبعت هذه السكة عموماً لن تخرج عن المألوف في كل الأنواع، إذ كتبت النصوص بالخطين النسخي المغربي

الأندلسي، والنسخي المشرقي، بالإضافة إلى ظهور الطغراء على النقود التي ضربت بمدينة الجزائر. أما الزخارف النباتية فقد اتصفت بطابع البساطة والتحوير الشديد لدرجة صعوبة التعرف إليها، ومن ثم يمكن إدراجها ضمن الطراز العثماني المعروف بطراز «الهاتاي». وأهم العناصر المنقوشة على القطع هي: زهرة السوسن، وزهرة اللالة، وزهرة عباد الشمس، وبعض الثمار كالرمان والخرشوف ومراوح نخيلية وأكاليل وغيرها. وعادة كل هذه الأشكال توزع داخل أشكال هندسية كالدوائر والمربعات والأشكال النجمية وحبيبات بيضوية.

مميزات السكة الجزائرية

إذا كان الدور الذي تؤديه النقود - كوحدة للحساب، ووسيط للمبادلة، وأداة لاختزان القوة الشرائية - لم يتغير منذ اختراعها فإن اختلاف طرزها مرتبط بفترة سياسية معينة خاصة في العصر الإسلامي الذي يقسم علماء النوميات نقوده إلى طرز متعددة ينسب كل واحد منها إلى دولة معينة، ومن هذه الطرز: الطراز العثماني الذي تمتاز مسكوكاته عن باقي المسكوكات الإسلامية بنقاط عدة أهمها:

أ. الشكل: لقد تنوعت المسكوكات الجزائرية في العصر العثماني، فجمعت بين الشكل الدائري الذي تميزت به المسكوكات حتى نهاية العصر المرابطي، والشكل المربع الذي اختصت به الدراهم الموحدية، ثم الجمع بين الشكلين، مثلما نجده في الدنانير الموحدية، ثم الزيانية والحفصية والمرينية فيما بعد، كما يبرز هذا الاختلاف أيضاً من ناحية الخصائص كالوزن والقطر ونسبة المعدن الذي نجده منخفضاً عن باقي المسكوكات قبل العصر العثماني.

ريال دراهم (وجه القطعة)



ريال دراهم (ظهر القطعة)

ب - المضمون: إذا كانت شهادة التوحيد، والرسالة المحمدية، والآيات القرآنية من بين الأسس التي بنيت عليها مضامين الطرز السابقة فإن تغييراً جذرياً حدث في الطراز العثماني الذي ابتعد كلية عن النصوص الدينية، وعوضها بالألقاب الفخرية، والأدعية للسلطان. بل إن النصوص قد ارتبط مضمونها أكثر بقوة الدولة وهيبتها، والرغبة الملحة في بسط نفوذها شرقاً وغرباً، وهو ما توضحه أكثر النصوص التي نقشت على العملة التي نعطي لقارئها في أول وهلة الإحساس بالقوة العسكرية والاقتصادية للدولة كسلطان البرين وخاقان البحرين، ضارب النفر صاحب العز والنصر في البر والبحر، صاحب البرين والبحرين. مالك البرين والبحرين والشام والعراقين وغيرها من النصوص التي نجدها على العملة، ومن ضمن النقاط الأساسية التي ميزت السكة الجزائرية في هذه الفترة أيضاً هي اختفاء أسماء حكام الجزائر على النقود ليختص بها السلطان وحده وهي عودة - كما نرى - لبداية الخلافة الإسلامية لم لا؟ وقد استطاعت الدولة أن توحد كل المسلمين تحت لوائها، وترث الخلافة التي أضفت عليها صبغة دينية وسياسية واجتماعية شرعية تسمح لها بفعل أي شيء باسم الخلافة الإسلامية على الرغم مما ستقابله من معارضة فيما بعد خاصة في ميدان استبدال العملة نفسها.

العالم العربي والإشكال التقاني

حواس محمود
القامشلي - سورية

العالم العربي، وهو يلج في القرن الحادي والعشرين يتطلب منه حل الإشكالات التقانية والبحثية وما يتعلق بسبل تطوير المستويات التقانية والتنموية ليتأهل للدخول في هذا القرن وهو مسلح بأرضية تقانية متطورة، ولعل هذا التطور يمر عبر ثلاث قضايا أساسية ومهمة تشكل ثلاثية تقنية وهي: ظاهرة هجرة العقول والكفاءات العلمية العربية إلى الدول المتقدمة، وعملية نقل التقانة إلى العالم العربي، والبحث العلمي في العالم العربي.. وسنتناول هذه القضايا للتركيز على محور مهم جداً في دخول العالم العربي هذا القرن بقوة وتوازن وجدارة، إنه محور التقانة وتطوير البحث العلمي.

نزيف الأدمغة

حجم الظاهرة: يذكر أنطوان زحلان، عضو لجنة الأمم المتحدة الاستشارية لاستخدام العلم والتكنولوجيا والخبير العربي في العلوم والتقانة، أن نسبة المهاجرين العرب إلى الغرب في عام ١٩٧٦م تتوزع على النحو التالي: ٥٠٪ من الأطباء، و٢٣٪ من المهندسين، و١٥٪ من الفيزيائيين من بين مجموع المهاجرين، يمثلون ٢٤ ألف طبيب، و١٧ ألف مهندس، و ٧٥٠٠ فيزيائي، وفي عام ١٩٨٠م وحده هاجر ٥٠٪ من الحاصلين على الدكتوراه في الهندسة إلى البلاد المتقدمة، وفي السبعينيات هاجر ٩٠٪ من حملة الدكتوراه في الحقول العلمية والفنية في العالم العربي، وأن ٧٠٪ من المبعوثين العرب لا يعودون إلى بلادهم بعد انتهاء الدراسة. وتقول إحدى الدراسات: إن مليوني عقل عربي هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وغرب أوربا وأستراليا في الفترة بين عامي ١٩٤٨ و١٩٨٠م، وتجدر الإشارة إلى أنه في عام ١٩٨٩م وحده سمح بدخول ١٨٠٩٤ مهاجراً عربياً إلى الولايات المتحدة الأمريكية منهم ٩.٦٪ من التقنيين والمتخصصين. وتشير دراسة للأمم المتحدة أن حجم الهجرة السنوية يبلغ عشرة آلاف متخصص عربي من لبنان وسورية والعراق ومصر والأردن والجزائر والمغرب.

أسباب «نزيف الأدمغة»

يمكن إرجاع ظاهرة «نزيف الأدمغة» إلى ثلاثة أسباب رئيسة: اقتصادية وسياسية وعلمية:

- الاقتصادية: وتكمن في انخفاض مرتبات الكفاءات العلمية العربية في بلدانها وغياب الدعم الاقتصادي للمشروعات العلمية والاقتصادية والثقافية، ويضاعف من خطورة ذلك أن معظم هذه الكفاءات يتم إلحاقهم بأعمال ووظائف لا تتناسب مع خبراتهم وتخصصاتهم العلمية، لكن وضع هذه الكفاءات يتغير في البلدان المتقدمة (تكنولوجياً)، إذ إن الاهتمام بها يتزايد هناك، وتتعرض للترغيب والإغراء الاقتصادي بصورة مستمرة، بحيث تتشكل لديها رغبة قوية في هجرة بلدانها، وهذه «الكفاءات» لا تكتفي بذلك وإنما ترفض بشكل مطلق العودة إلى بلدانها.

- **السياسية:** ويتعلق هذا السبب بانتماء الكفاءات العلمية لبعض الأحزاب والفعاليات السياسية، أو امتلاكها لآراء ورؤى ومواقف سياسية أو ثقافية مخالفة أو معارضة لسياسة الدولة ومؤسساتها، وبسبب الغياب الكبير لأجواء الديموقراطية وحرية الرأي والتعبير وحرية الصحافة..إلخ. وهذا يعد عاملاً مهماً وأساسياً لهذه الكفاءات؛ لأنها في معظمها ذات إمكانات سياسية وثقافية عالية، وهي بطبيعة تكوينها العلمي ترغب في مناخات الحرية، وحرية الرأي والتعبير «الديموقراطية»، وبالإضافة إلى هذا تعد الحروب الأهلية أيضاً قوة طاردة لعدد من أصحاب الكفاءات في البلدان العربية التي تعاني منها.

- **العلمية:** إن الكفاءات العلمية المهاجرة ترغب دائماً في البحث العلمي وحرية التأليف

والنشر، وتحتاج إلى دعم اقتصادي (وتقاني) من الدولة، وبسبب إحجام الدولة عن الاهتمام (أو قلة الاهتمام) والدعم لهذه الكفاءات، وبسبب عدم إيلاء الأهمية لدراسات البحث العلمي بالشكل المطلوب، ومحدودية دراسات البحث العلمي وتقلصها الشديد، فإن هذه الكفاءات تهاجر إلى البلدان الغربية لتوافر إمكانات البحث العلمي هناك؛ وتشير دراسة منشورة في عام ١٩٩٣م للدكتور جلال عبدالله معوض إلى أن متوسط نصيب الفرد من الإنفاق الحكومي على البحث والتطوير العلمي يصل إلى (١١١) دولاراً في البلدان المتقدمة، إلا أنه في البلدان العربية ككل لا يزيد على دولارين فقط.

نقل التقانة إلى العالم العربي

مفهوم التقانة: يعرف بعضهم التقانة بـ «الأدوات أو الوسائل التي تستخدم لأغراض عملية تطبيقية، يستعين بها الإنسان في عمله لإكمال قواه وقدراته، وتلبية تلك الحاجات التي تظهر في إطار ظروفه الاجتماعية، ومرحلته التاريخية الخاصة».

ونتيجة لاختلاف الباحثين في تعريف «التقانة»، يمكننا هنا أن نحدد هذا الاختلاف في تعريفين:

الأول: التقانة هي «فن استثمار المعرفة» حيث يستوعب الفن كل القدرات الإبداعية والتخيلية لدى الأفراد والجماعات، وبالمقابل يستوعب الاستثمار كل الأساليب والتصرفات الموزونة «المقننة» التي تتعلق بالجانب الاستخدامي والتخطيطي، وتنظم سير عملية التنمية، ضمن نسيج نظام مجتمعي حي ومنتج ومتجدد ذاتياً.

الثاني: وهو الأكثر شمولاً، يرى أن التقانة هي الوسيلة التي يسيطر بها الإنسان أو يؤثر في العالم الخارجي، وهي بصفة خاصة مجموعة الاختراعات والتطبيقات التي تستخدم في العملية الإنتاجية من أجل التقدم وتخفيض نفقات الإنتاج وتحسين أوضاعه.

معوقات التقدم التقاني والصناعي في العالم العربي

يمكن أن نلخص معوقات التقدم التقاني والصناعي في العالم العربي بالنقاط التالية:

- النشوء الخلقي للنظم الاقتصادية والتطور غير المتوازي للقطاعات المختلفة في المجتمع.
- عزلة الريف عن التطور المدني، وتفشي الأمية فيه، وعدم مشاركة المرأة في عملية التنمية.
- غياب مراكز البحث العلمي وأجهزته، وتجاهل دور الإعلام والنشر العلمي والتقني.
- ضعف التنسيق والتعاون بين المؤسسات التعليمية والتدريبية والمؤسسات التصنيعية.
- انعدام التخطيط المركزي لنقل التقانة وتطويرها وتوطينها، ومن ثم غياب التقانة العربية، يضاف إلى ذلك النقص في الإمكانات والموارد المحلية اللازمة لتشغيل التقانة المستوردة بكفاءة، والمحافظة عليها.
- عشوائية خطط الترجمة العلمية والتعريب التقاني، والتحديث اللغوي للمصطلح العلمي.
- عدم وجود برنامج واضح المعالم لتتبع الإنجازات العلمية والتقانية في العالم ومواكبتها، وكذلك النقص في تأهيل الطاقات الفنية والهندسية اللازمة مع عدم وجود الخبرة الضرورية.
- فقر القاعدة الصناعية الثقيلة في العالم العربي والاعتماد الكلي على الاستيراد، مع عدم وجود مؤسسات وطنية قادرة على إجراء تقاني معتمد على الذات، وتطويره.
- الارتباك في اختيار التقانة الملائمة للظروف البيئية المحلية، بمعنى تكيفها مع الظروف الجوية والطبيعية.

البحث العلمي في العالم العربي

سنتناول هنا بعض الملامح المهمة للبحث العلمي في العالم العربي. إن الانفاق على البحث العلمي في العالم العربي لكل فرد من السكان لا يزيد على (٢.٤ دولار) بينما يراوح في الدول المتقدمة بين (٥٠ و١٠٠ دولار). وتشير تقديرات اليونسكو إلى أن تفاوتاً كبيراً يسود المستوى العلمي (والتقاني) بين الدول العربية وكثير من دول العالم ولاسيما المتقدمة صناعياً، فعدد الباحثين العلميين في المنطقة العربية يقدر بنحو (٣١٨) باحثاً لكل مليون من السكان، بينما تبلغ هذه النسبة في بلد كإسرائيل (٤.٤) باحثين لكل ألف من السكان، وتجدر الإشارة هنا إلى أن (٩٠٪) من المنشورات البحثية في العالم العربي لها صلة مباشرة بالمشكلات المحلية، وتفيد دراسة لليونسكو بأن الإنتاجية العلمية في العالم العربي متدنية جداً، فقد كان هنالك على سبيل المثال سبعة آلاف باحث، وكان من المتوقع أن ينتج هؤلاء هنا بين (٨٠٠٠ و١٤٠٠٠) بحث سنوياً، إلا أن المنشور فعلاً بلغ (٨٤٧) بحثاً أي نحو (١٠٪) من المتوقع الأدنى، وجاء في دراسة حديثة نشرت في مجلة المستقبل العربي: أن أعمال البحث العلمي في البلدان العربية ذات طبيعة تطبيقية بحت حيث إن (٣٨٪) من منشورات هذه الأعمال في الطب، و(٢٠٪) منها في الزراعة، و(١٧٪) في الهندسة ومثلها في العلوم الأساسية، و(٨٪) في الاقتصاد والإدارة، وارتفع الإنتاج الكلي من تلك المنشورات في العالم

> **التقانة هي فن استثمار المعرفة الذي يستوعب كل القدرات الإبداعية والتخيلية للأفراد والجماعات**

العربي من (٤٦٥) منشورا في عام ١٩٦٧م إلى نحو (٦٠٠٠) في عام ١٩٩٥م وبلغ معدل النمو السنوي منذ عام ١٩٦٧م في مجمل منشورات العالم العربي (١٠٪)، وإن كانت نسب النمو مختلفة من بلد إلى بلد، وقد سجلت أعلى نسبة في المملكة العربية السعودية بواقع (٢٥٪)، تلتها حتى عام ١٩٩٠م الكويت بنسبة (٢٠٪). وإن معدل إنتاج البحوث بالنسبة إلى البلدين إلى الفرد الواحد من السكان يضاهي المعدل السائد في أقطار النمور الآسيوية. ففي عام ١٩٩٠م كانت البلدان الرئيسة الثلاثة في ترتيب الإنتاج البحثي هي: مصر (٣٧٪)، والسعودية (٢٠٪)، والكويت (١٢٪)، وفي العام نفسه بدأ نصيب الفرد من هذا الإنتاج في الكويت يصل إلى معدل الدول الأوربية. وقد أنتج علماء الأقطار العربية عام ١٩٩٦م نحو ٨٠٠٠ بحث علمي لمجلات عالمية محكمة، فهو أكثر مما أنتج في البرازيل، ويعادل (٦٠٪) مما أنتج في الصين و(٥٠٪) مما أنتج في الهند وأكثر من (٣٠٪) مما أنتج في كورية الجنوبية خلال السنة ذاتها، وبلغ الإنفاق العربي على البحث العلمي (٥٤٨) مليون دولار عام ١٩٩٢م أي (٠,٥٪) من إجمالي إنفاق الناتج القومي، بينما الدول المتقدمة تنفق (٣٪) من دخلها القومي على البحوث المدنية وحدها.

مشكلات البحث العلمي

يمكن تحديد مشكلات البحث العلمي في النقاط التالية:

- تدني مستوى الإنفاق على البحث العلمي: إن البحث العلمي يتطلب إنفاقاً مالياً كبيرا على المنشآت البحثية كالمباني والمختبرات وتجهيزاتها، وكذلك المكتبات ودور النشر والمجلات العلمية والدوريات التي تنشر فيها نتائج البحوث، بالإضافة طبعاً إلى تعويضات العاملين في هذا المجال.

- نقص التجهيزات العلمية والتقنية: إن الكثير من البحوث الهادفة تتطلب تقنية حديثة عالية للوصول إلى النتائج المرجوة، ويشكل غيابها حلقة فارغة تحول دون تحقيق النتائج المرجوة، وتعاني الدول العربية من نقص الموارد المخصصة لهذه الغاية مما يضعف القدرة البحثية بشكل عام.

- نقص الفنيين والمتخصصين في التقنيات الحديثة: وهذا يظهر في حال توافر الأجهزة الضرورية الحديثة للبحث العلمي، حيث يلاحظ غياب التقنيين المؤهلين للإشراف على حسن سير العمل على هذه الأجهزة وإصلاحها حال تعطلها، وينتج من ذلك تعطل هذه الآلات فترات طويلة، والاستعانة بالخبرات الأجنبية الباهظة التكاليف، وينتج من ذلك كله هدر للوقت والجهد والمال.

- غياب المؤلفات والمراجع الضرورية لعمل الباحث: تحتاج المكتبات العربية إلى عدد من المؤلفات والمراجع الضرورية المهمة، ولاسيما الجديدة منها، لمواكبة التقدم العلمي (والتقاني) الهائل، وهذا ما يعيق الباحث ويفصله عن مجريات الثورة العلمية و (التقانية).

- غياب السياسات الواضحة للبحث العلمي: تفتقر معظم الدول العربية إلى سياسات واضحة للبحث العلمي تتضمن تحديد الأهداف والأولويات، والمؤسسات والمراكز البحثية اللازمة، وتوفير الإمكانات المادية والضرورية، وإعداد القوى المحددة المدونة لهذه الغاية، وهذا يؤدي إلى تناثر الجهود وغياب التنسيق وعدم تحقيق الغايات.

استراتيجية عربية

هناك مقترحات لحل «الإشكال التقاني» في العالم العربي أو: الاستراتيجية العربية للتقدم العلمي التكنولوجي منها:

- تقديم الامتيازات المالية والاجتماعية والمراكز المرموقة في أجهزة البحث العلمي ومؤسساته، وهو اتجاه لجأت إليه بنجاح ملحوظ المملكة العربية السعودية ودولة الكويت والإمارات العربية المتحدة وليبيا إلى حد ما.

- الاستفادة النسبية من الكفاءات والأطر البشرية العلمية المهاجرة من خلال تنظيم مؤتمرات للمغتربين في الوطن الأم (وهو ما تقوم به سورية في العقد الأخير بصورة دورية فعالة) وطلب مساعدتهم وخبراتهم وتبادل المشورة معهم، سواء بصدد الاطلاع على أحدث وسائل المعالجات الطبية والدوائية، أو بصدد نقل التقانة العلمية، أو حتى بعرض المشاركة المالية والاقتصادية في تنفيذ بعض المشاريع الحيوية واستثمارها.



حيرة الانسان أمام التقدم التقني المذهل

عزلة الريف وتفشي الأمية وتقلص دور المرأة وفقر القاعدة الصناعية من معوقات التقدم التقاني والصناعي في العالم العربي

- التعاون، سواء على صعيد قطري أو عربي إقليمي، مع منظمة «اليونسكو» لإقامة مشروعات ومراكز علمية بغرض تكوين كفاءات عربية خبيرة للتخفيف من حدة سلبيات هجرة الأدمغة، وكذلك لاجتذاب بعض الكفاءات المهاجرة للإشراف على البحوث والمشاركة في الندوات والمؤتمرات التي تتطلبها هذه المراكز، ومن نشاطات «اليونسكو» في هذا الصدد: إنشاء مركز الإسكندرية للدراسات العلمية عام ١٩٧٢م، ومركز الدراسات الهندسية المتقدمة بجامعة القاهرة، ومعهد الجيولوجيا التطبيقية في جدة بالمملكة العربية السعودية، والمدرسة الوطنية للأشغال العامة في الدار البيضاء بالمغرب، ومحطة البحوث المائية بالسودان.
- إقامة القاعدة العلمية والتقنية الوطنية والقومية التي تسمح بنقل التقانة (التكنولوجيا) وتوطينها.
- تغذية المجتمع العربي بالمعارف العلمية والمهارات والتقانة بقصد بناء الفكر العربي علمياً وتقانياً.
- إتاحة الفرصة للعالم العربي للمساهمة في بناء صرح الحضارة الإنسانية حاضراً ومستقبلاً من خلال بناء ذاتيتها العلمية والتقانية.
- وضع خطط (إستراتيجية) عربية للبحث العلمي، ونقل التقانة وتوطينها، تُستنبط منها الخطط البحثية القطرية، على أن يراعى في إعداد هذه الخطط تجنب الازدواجية الضارة، والتوجه نحو التنسيق بين الأقطار العربية في إجراء البحوث المشتركة.
- شبكة المعلومات العربية: هذه الشبكة تضم معلومات مفصلة عن اختصاص الباحثين العرب والبحوث التي قاموا بها، وكذلك البحوث التي يقوم بها باحثون في العالم والتي يمكن أن يستفيد منها الباحث العربي.
- الصندوق العربي للبحث العلمي: هذا الصندوق مهمته كبيرة، فهناك الكثير من الباحثين في العالم العربي، وضمن الاختصاص الواحد، ولكنهم في عزلة بعضهم عن بعض، بينما يرتبط الكثير من هؤلاء الباحثين بمشاريع وبحوث مشتركة مع باحثين من الدول المتقدمة، ومن هنا نأمل أن مثل هذا الصندوق سيفتح قنوات ما بين الباحثين العرب، الأمر الذي نفتقده في الوقت الراهن.
- تشجيع القيام بالبحوث العلمية المشتركة عن طريق فرق عمل عربية بين قطرين أو أكثر.
- تأسيس جمعيات علمية عربية تعمل على التقارب بين العلماء العرب، وتزيد من فرص اللقاءات، ودعم الجمعيات العلمية القائمة حالياً، وتوفير مستلزمات إنجاحها.
- إصدار دوريات علمية متخصصة، واستخدام الحواسب (الإلكترونية) المتطورة في عمليات الطباعة مما يوفر الوقت والجهد، إلا أن ذلك يتطلب تدريب الجماعات أو الفرق (الكوادر) الفنية العاملة في الطباعة على إتقان استخدام هذه الحواسيب.
- إعفاء جميع المطبوعات العلمية من جميع الضرائب والرسوم المالية والجمركية عند التصدير أو الاستيراد.

وختاماً يمكن القول بأن العصر الذي نعيشه هو عصر العولمة، وفي هذا العصر من لم يتطور (تقانياً) لا يستطع مواكبة التطورات التقانية (التكنولوجية)، والفكرية (الأيديولوجية) العالمية، فالعولمة تستخدم (التقانة) وسيلة مادية مهمة جداً في انتشارها وتوزيعها وتأثيرها، ولهذا فالحديث عن العولمة في العالم العربي من المفترض أن يتحول إلى الحديث عن سبل تطوير العالم العربي (تقانياً) ولعل هذا المقال قد جاء لسد بعض النقص في هذا المجال.

المراجع

١. هجرة الأدمغة العربية إلى متى؟. د. خلف الجراد. مجلة الفيصل. عدد ٢٤٠. ص٤٦. ١٩٧٧م. ص٤٦.
٢. هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية. د. جلال معوض. مجلة شؤون عربية. عدد حزيران ١٩٩٣م. ص١١٥.
٣. صحيفة الاتحاد الإماراتية. د. جورج فؤاد. العددان الصادران بتاريخ ٢٢، ٢٨/٨/١٩٩٤م.
٤. تعريب التقنية ضرورة عصرية. د. فراس العزة. مجلة العربي عدد ٤٥٥ اكتوبر ١٩٩٦م. ص٨٦.
٥. نقل التقانة - المفهوم والطموحات والمعاناة. د. داود سليمان رضوان. مجلة الثقافة. نوفمبر ١٩٩٥م. ص٤٣.
٦. كتاب التفكير العلمي. د. فؤاد زكريا. عالم المعرفة. الكويت. ط٣، ١٩٨٨م. ص١٧٦.
٧. البحث العلمي دوره وتوظيفه في الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين. د. علي رحال. مجلة بناة الأجيال. عدد ٢٤ تشرين أول ١٩٩٧م. دمشق - سورية. ص٦٢.
٨. الأزمة العربية على أبواب القرن الواحد والعشرين بالأرقام. د. محمد سماق. صحيفة البيان. أيار ١٩٩٦م.
٩. أزمة البحث العلمي في الوطن العربي. د. سلمان رشيد سلمان. مجلة شؤون عربية. عدد ٧٥ أيلول ١٩٩٣م. ص٧.
١٠. حال الأمة العربية. ملف - مجلة المستقبل العربي. عدد ٢٠٧ أيار ١٩٩٦م. ص ٥٢، وعدد ٢١٩ أيار ١٩٩٧م. ص١١٢.
١١. البحث العلمي والتنمية. د. م. عبدالحكيم بنود. مجلة المهندس العربي. عدد ١٢٣، ١٩٩٦م. ص٤٠٠.
١٢. إستراتيجية العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي. د. سلمان رشيد سلمان. شؤون عربية. عدد ٧٩. ص٣٧.

بولغاكوف وستالين

الرؤية ضد الهراوة

عبدالله عيسى
موسكو. روسيا

لم يكن موقف الكاتب الروسي المبدع ميخائيل بولغاكوف من السلطة ورجالاتها متمثلة بشخص جوزف ستالين نتاج نزق ثقافي طارئ، بل كان تعبيراً عن تناقض حاسم بين مفهومين حضاريّين متضادّين.

إن اتساع هذه الهوة بينهما لم يجيء فُجائياً بالقدر الذي كان تجلية لتجربة حياتية عاصرها الكاتب وطوّرت رؤاه وأفكاره وساهمت كلياً، فيما بعد، في افتراق خطابه الثقافي عن الموقف السياسي للسلطة ورموزها الآثمين كما كان يراهم.

لقد شغل الحيّز الأسريّ المكانة الأكثر عمقًا في تكوين شخصية ميخائيل بولغاكوف الثقافية: فقد ولد كاتب المستقبل في ١٥ أيار / مايو عام ١٨٩١م في عائلة كان الأبُ فيها يعمل مدرساً في الأكاديمية الدينية، ويعدّ مؤرخاً جاداً لنظرية الأديان؛ ولأنّ الأب كان حاصلاً على رتبة مستشار في الرقابة المركزية فقد منح الكاتب صفة النبالة بالوراثة.

كما أورثته أمه التي جسّدها في روايته الأولى «الحرس الأبيض» بقوله: «أمي ملكة نورانية» حبّاً شاسعاً للموسيقا والقراءة، وفتحت أمام عينيه مساحات التعاطي مع الفن والجمال، وكذلك زوجته التي



ستالين

أدخلته عوالم الأرستقراطية الأد[illegible]يلة من أبوابها الواسعة، ويسّرت له أن يحضر عروض الممثلين الأوائل، وأن يسمع - وهو المولع بالموسيقا - المغني الأوبرالي شالابين الذي عكس سماته، فيما بعد، في شخصية «فولاند» بطل روايته الإعجازية «المعلم ومرغريتا».

أبطال من عالمين

كلُّ هذا منح روح ميخائيل بولغاكوف حساسية وشفافية خصوصيّتين، ونزوعاً شغفاً إلى التألق والانعتاق.

قُيِّض لعائلة البولغاكوفيين، في تنقلاتها المتعددة، أن تعيش في ضيعة حدودية بين روسيا وأوكرايينا، ومن هنا لم تكن الحوارات المُفعمة بالكلمات المبتكرة وغير المألوفة المصوغة بروسية مطعمة بالأوكرايينية في رواية «الحرس الأبيض» محض افتعال متكلف، بقدر ما كانت فهماً جوانياً لطبيعة اللغة وحساسيتها اللتين عبّر عنهما أبطاله المستقون من عوالم هذه الضيعة الواقعة بين عالمين: روسي وأوكرايني.

ولم يكن التحاق الكاتب بكلية الطب في جامعة «كييف»، على الرغم من اعتزاله مهنة الطب - فيما بعد - غير مثمر في نتاجاته اللاحقة: فالسرية المذهلة، والالتحام الجليّ بشخصيات أبطاله كالبروفيسور بيرسكوف في «البيوض المميتة» أو فيليب فيليبوفيتش في «قلب كلبي»

كانت نتاجاً حيوياً لتعاطيه مع الطب وأدواته.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد حطمت طموحات معاصري بولغاكوف ومستقبلهم فإنها لم تكن على روحه أشد عطفاً، فقد عايش معاناة المئات من الجرحى ومدمّري الحرب، وعالج بوصفه طبيباً ميدانياً ما ينوف على خمسة عشر ألفاً من المرضى ومشوهي الحرب كما تشهد الوثائق والشهادات في مكتب دائرة العدل؛ هذا ما جسده الكاتب في عمله «مذكرات طبيب شاب» عام ١٩٢٦م. فالطبيب البولغاكوفي كادح شريف، منقذ من طغمة الآلام، يبث في الأرواح بصيصاً مفقوداً من الأمل بالحياة، واعٍ - وبشكل حاسم - لضرورة تنوير الفلاحين في أعماق الضياع النائية، وتغيير ظروف حياتهم.

إيمان بالأفكار الإنسانية

وبعد أشهر قليلة من ثورة أكتوبر/تشرين الأول تحرر الكاتب، نهائياً، من خدمته العسكرية عائداً إلى كييف وهكذا انغمس في دوامة الحرب الأهلية فيها.. لكنه ظل على إيمان قاطع بالأفكار الإنسانية التي تجلّت فيما بعد في روايته «الحرس الأبيض» وقصتيه «الغارة» وفي «الليلة الثالثة من الشهر»، ومسرحيتيه «أيام آل توربين»، و«الجري».

وعلى الرغم من أن ثورة فبراير/شباط شوشت مقاييس الرؤية العامة، إلا أنها أيضاً كانت منعطفاً خبيراً لنضج الكاتب. لقد كتب بولغاكوف في تحقيقه «كييف - المدينة» عام ١٩٢٣م أنه مع الثورة: «داهمنا تاريخنا بغتة وبشكل مرعب».

إذن لقد أنجز بولغاكوف واجبه، بصفته طبيباً، بجدارة وإقدام، لكن احتجاجاً هائلاً تضخم في روحه ضد الاشتراك في الحرب الوحشية، وهذا ما مكنه أخيراً من تطليق مهنة الطب، والإخلاص لفعل الإبداع الأدبي، مستسلماً لتوقٍ دائم ومتيقظ للأدب والمسرح؛ لكن الدوامة النارية



مكسيم غوركي

للحرب ظلت تنقرُ ذاكرته وتحرضه على الكتابة.

ومنذ ذلك الوقت أصبح انتماء ميخائيل بولغاكوف للأنتلجنسيا أقوى أهمية من نبالة زوجته وعراقتها، فأشاد مراراً بوقوف رجالاتها خارج فضاء البوق السياسي، وحباً اتساع ذهنيتها وروحيتها التائقة للتحرر.

فليس غريباً، إذن، أن يتعاطف بولغاكوف مع بطله «إلكسي توربين» ذي الملامح الساطعة في سيرته الذاتية، العائد طالباً «الراحة ثم الراحة، ومن جديد، الرضا بالحياة العادية، وليست العسكرية؛ الراحة من هؤلاء الضباط، ضباط الجبهات المصروعين بحياة العسكر والثورة» الذين «كرهوا البلاشفة بحقد ساخن ومباشر». وبهذا فقد ظل بولغاكوف مخلصاً لوطنيته. (كما كتب عنه لاحقاً صديقه الفيلسوف والأديب بابوف).

فبولغاكوف هو القائل في نهايات عشرينيات هذا القرن عن شخصية العميد ناي - تورس في رواية: «الحرس الأبيض»: «ناي - تورس صورة بعيدة تجريدية. إنه مثال الضباط الروس». ومطلقاً لم تنسجم روح الكاتب وصورة هؤلاء الضباط المسيطرين والتواقين إلى السلطة على غرار تاليبرغ في «الحرس الأبيض» أو المتعصبين السفاحين مثل «بريزار» في مسرحية «الغارة» أو «الجنرال» في قصة «الإكليل الأحمر». لقد جسد بولغاكوف صورة الضباط في أعماله لينينهم، لكن وعي الذات القومية لدى بولغاكوف لم يكن قط شوفينياً، فقد بقي تنوير الروس وأبناء القوميات الأخرى مهمته الذهنية الأولى.

ففي مؤلفه الأثنوغرافي «أولاد الإمام» يصور حياة «الإينغوشيين» دون محض استخفاف، وفي قصة «التاريخ الصيني» يحفز وعينا إلى التعاطف مع الصيني المقتول دفاعاً عن الثورة، وفي «الليلة الثالثة من الشهر» يكتب بولغاكوف عن اليهود ضحايا المتعصبين الأوكرانيين بتعاطف ممزوج بمعاناة طاغية.

إذن فقد كانت كتابات بولغاكوف تمثل المضاد للخصوصية بين القوميات، وتشيع، دائماً، القيم الإنسانية النبيلة، كما في «التاريخ الصيني» حيث الشحاذ الصيني الواقف في أسفل درجات السلم الاجتماعي منسجماً مع العلاقات الإنسانية، ومحترماً شديداً لذاته البشرية، ومظهراً مقدرة عجيبة على الأثر: فتضحياته البطولية هي التي منحته القدرة على تلمس كرامته الإنسانية.

وفي مسرحيته «آدم وحواء» التي لا تزال أهميتها ملحة، والعالم مهدد بخطر الآفة النووية، يدور الحديث عن إمكان إتلاف البشرية جمعاء نتيجة للحرب الكيماوية، حيث يدافع الأكاديمي «يفروسيموف» أمام الطيار الشيوعي «داراغان» بقوله: «تبقى الأولوية للقيم الإنسانية العامة أمام الآخرين».

لكن مواقف بولغاكوف هذه كانت مدانة، آنذاك، وكانت سبل النشر أو التقويم مغلقة، بشكل نهائي، أمام نتاجاته، ولم ير الكاتب بعد عام ١٩٢٧م سطراً واحداً من إبداعاته مطبوعاً في عموم وطنه الكبير «الاتحاد السوفييتي»!.

لقد بلغت حملات النقاد ضده أوجها في عام ١٩٢٩م، حيث منع على أثرها، ودفعة واحدة، عرض مسرحية «أيام آل توربين» التي حرّم على ستانسلافسكي نفسه تقديمها، وكذلك المسرحية الهجائية «الجزيرة الأرجوانية»، والكوميديا الاجتماعية «شقة زويكا» فاضطر بولغاكوف، تحت وطأة هذا الضغط الظالم، إلى التوجه بمجموعة خطابات إلى رجالات السلطة العتيدين.

إعدام معنوي

فقد كتب في ٣ أيلول من العام نفسه رسالة إلى سكرتير اللجنة التنفيذية للاتحاد السوفييتي جاء فيها:

«كما يظهر لي جلياً أن عدم إمكان التعاطي مع نتاجاتي في أوساط الرأي العام السوفييتي أصبح مطلقاً، وأن منع نشرها سيحكم عليّ

> عايش بولغاكوف معاناة المئات من الجرحى ومدمّري الحرب، وعالج ما ينوف على خمسة عشر ألفاً من المرضى ومشوّهي الحرب

بالقتل. لقد أُنهكت بشكل لا تحتمله حياتي، وغدت كل محاولاتي عقيمة. أرجو السماح لي ولزوجتي بالسفر إلى الخارج فترة تحددها حكومة الاتحاد السوفييتي بالشكل الذي تراه».

كما أرسل في الثامن والعشرين من أيلول برسالة أخرى إلى الكاتب الذائع الصيت «مكسيم غوركي» المقرب آنذاك من رجالات السلطة يقول فيها:

«كل شيء ممنوع عليّ. إنني معدم، مضطهد، وفي عزلة مطبقة لماذا تتمسكون بكاتب في وطن - محرّم على إبداعاته فيه أن تظهر للوجود أو ترى النور.. ألتمس قراراً إنسانياً للسماح لي بالسفر».

وفي الثامن عشر من شهر أبريل/نيسان اتصل ستالين ببولغاكوف، وكانت نتيجة هذا الاتصال أن عُين الكاتب مُخرجاً مساعداً في المسرح الأكاديمي الفني في موسكو، والذي سرعان ما هجره لخلافات مع القائمين عليه.

ولعل بولغاكوف كان ضرورياً بالنسبة إلى ستالين، آنذاك، لكونه مؤلفاً لمسرحية «أيام آل توربين» حيث تُبرهن المسرحية استحالة الصراع مع السلطة السوفيتية التي أراد لها ستالين أن تكون مطابقة لشخصه.

رسالة طويلة إلى ستالين

إن اتصال ستالين ببولغاكوف لم يحقق حلم الكاتب الخالد بأن تصبح كتاباته في متناول القارئ، فتأكد إحساسه أن الحياة الثقافية المُسيطر عليها من السياسي لم تكن ناضجة لاستيعاب أفكاره وهضمها، فأرسل بولغاكوف رسالة طويلة إلى ستالين جاء فيها: «أرجو بحرارة أن تتشفع لي أمام حكومة الاتحاد السوفييتي للسماح لي بالسفر من أول يونيو/حزيران حتى سبتمبر/أيلول من عام ١٩٣١م. أحيطكم علماً أنه، وبعد عام ونصف من صمتي، اندلعت فيَّ - وبقوة جارفة - أفكار إبداعية رحبة وعميقة، وأرجو من الحكومة منحي إمكان تجسيدها على الورق.

إنني معتلٌ جداً - ومنذ نهاية العام

الفانت - بحالة انهيار عصبي حاد، مصحوبة بنوبات رعب وانقباض قلبي، وفي الوقت الحاضر أصبح قضائي محتمًا.

تعمني الأفكار، لكن ليس بي محض قوة جسدية، أو شروط ملائمة لصياغتها، وعلّة مرضي معروفة تمامًا لي: في حقل الأدب الروسي الرحب في الاتحاد السوفييتي، كنتُ الذئب الوحيد - الأوحد، نصحوني بصباغة جلدي.. نصيحة خرقاء.. هل الذئب مطلي؟

بلغت حملات النقاد ضده أوجها، حيث منع عرض مسرحيته «أيام آل توربين»، فاضطر تحت وطأة هذا الضغط الظالم، إلى التوجه بمجموعة خطابات إلى رجالات السلطة العتيدين

مجزوز هو الذئب. هو على كل حال أشبه بكلب رومي. لقد تصرفوا معي تمامًا، كما لو أني ذئب. لقد طاردوني؛ سنوات عديدة، بأنظمة القفص الأدبي، في ساحة مسوّرة.

لا أملك أن أحقد، لكني أُنهكتُ تمامًا. ففي نهاية عام ١٩٢٩م انهرتُ، حتى الوحش يخرُّ منهكًا.

الوحش أعلن: أنه ليس أكثر من ذئب. ليس أديبًا من يتخلى عن شرف مهنته، من يصمت، إذا صمت فإن هذا يعني أنه ليس أديبًا حقيقيًا، وإذا كان الكاتب حقيقيًا وصمت فإنه ينتحر.

علة مرضي: اضطهاد سنين طوال.. وفيما بعد الصمت.

وعلى امتداد سنوات كتابتي أوعز إليّ كل المواطنين - الحزبيين منهم وغير الحزبيين -، ولقنوني أنه منذ اللحظة الأولى التي كتبت فيها السطر الأول حتى ختام حياتي لن أرى بلدًا آخر، فإذا كان الأمر هكذا: إغلاق الأفق عليّ، كيف أمتدح وطني - الاتحاد السوفييتي؟.

لقد كتب أحد النقاد واعظًا، حين منعوا نشري: بولغاكوف لا يلزم المسرح السوفييتي.

إنني لا أدري، إن كنت ضروريًا للمسرح السوفييتي، لكن المسرح السوفييتي يلزمني تمامًا كالهواء..».

ثم يختتم رسالته بالتوسل، مرة أخرى، للسماح له بالسفر للنقاهة والعلاج برفقة زوجته كممرضة؛ وثانية ترتطم توسلاته جميعها بآذان من طين.

كان وطنيًا

وعلى الرغم من مطالبته التي لا تكف بالسفر، لكن فكرة الهجرة الأبدية لم تطرق قط ذهن بولغاكوف. يكتب في إحدى رسائله: «مستحيلٌ وجودي في أية أرض غير أرضي - الاتحاد السوفييتي؛ لأنني غرفتُ منها أحد عشر عامًا. إنني هالك لا محالة - هناك - (يقصد في المنفى) من الحنين بأقل من عام». وهو بهذا يؤكد أن إبداعاته نشأت وتطورت في سلسلة تحولات كان لها الأثر الأعمق فيه، ومن هنا أصبح ارتباطه بوطنه بوصلةأفكاره، وهواءها الطبيعي. هذا ما تؤكده شهادة صديقه المقرب الأديب والفيلسوف «بابوف»: «بولغاكوف كان روسيًا دائمًا، ووطنيًا».

ولعل أكثر المواقف المعبرة عن صدق مواطنيته ورجولته: خطاباته إلى السلطة التي تشكو التعسف البيروقراطي وتدينه، وتدافع عن الكتّاب السوفييت المُعانين - مثله - من ربقة السلطة وضيق أفق نقادها وموظفيها الرسميين، وخير مثال على هذا رسالته إلى ستالين التي كتبها بالاشتراك مع الشاعرة الروسية آنّا أخماتوفا دفاعًا عن زوجها وطفلها المعتقلين؛ ولا شك أن مثل هذه الرسائل من كاتب «نصف مغضوب عليه» كانت تشكل خطورة على مصيره.

وأخيرًا، حين تيقن أن كل محاولاته لنشر روايته «حياة السيد موليير» باءت بفشل ذريع، ولم يتحقق حلمه بنشر كتاباته، حتى موته المحقق في ١٠ آذار عام ١٩٤٠م. وظلّ أحد عشر سنة، وهو المريض بصورة مميتة معتكفًا على كتابة روايته الخالدة «المعلم ومرغريتا» التي أحرقها، يائسًا، غير مرة..

وعلى الرغم من إيمانه أن الرواية لن ترى النور، كشقيقاتها، في حياته، لكن ظل مؤمنًا بأن التاريخ سينصف بالضرورة موهبته الكبيرة، ويؤكد أهميته وإلحاحية رؤاه وأفكاره، وهذا ما كان فعلاً حيث عدّت روايته «المعلم ومرغريتا» درة من درر إبداعات القرن العشرين، وما زالت كتاباته تثير الأسئلة والنقاش في المحافل الأدبية العالمية.



أوغاريت ... التاريخ الحاضر

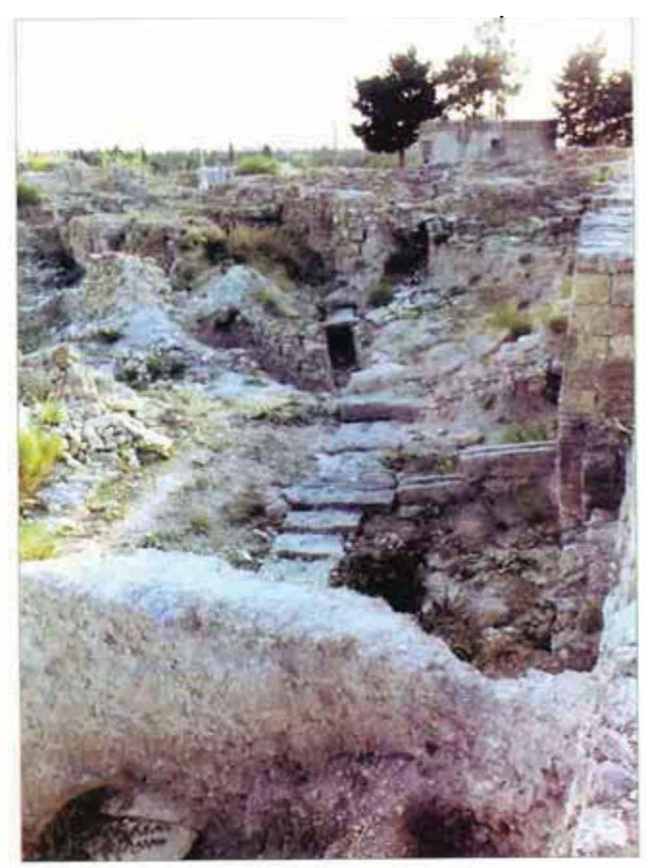
إليان شكور
اللاذقية - سورية

الكنعانيون شعب استوطن الساحل السوري وبنى معظم مدنه (كصور وصيدون وأرواد وأورشليم وأريحا) ثم بنوا المستوطنات التجارية حول المتوسط فجعلوه بحيرة كنعانية.
كانت أعظم مدنهم في إفريقية (قرطاجة) التي أسستها أليسار نحو عام (٨١٤ق.م).

الكنعانيون والأموريون من عنصر واحد وهجرة واحدة، لكنهم سموا كذلك نسبة إلى الـ(كنع) وهو الصباغ الأرجواني الذي استخرجوه من صدف الموركس. ثم عرف كنعانيو ساحل سورية الشمالي باسم فينيقيين أو (فونويكي) وهو الاسم الذي أطلقه الإغريق عليهم نحو (١٢٠٠ق.م) وهو أيضاً نسبة إلى الأرجوان. وأرض كنعان كانت تشمل كل الساحل السوري وقسماً من الداخل وقسماً من كيليكية وقبرص.

ولم يبن الكنعانيون إمبراطورية لهم، بل اتبعوا نظام الدولة - المدينة كالسومريين على ما في ذلك من الهزال السياسي والعسكري، وانتهجوا العمل السلمي في التجارة والملاحة والصناعة والتعدين. وقد أبحر الكنعانيون إلى المحيط الأطلسي من مضيق جبل طارق، وحول إفريقية من عصيون - جبر (إيلات) على البحر الأحمر، ووصلوا إلى أمريكا قبل كولومبوس بألف عام.

وقد اخترع الكنعانيون الأبجدية في القرن (١٣ ق.م) مما سهل



جزء من المدينة تظهر فيه قناة الصرف الصحي الرئيسة في المدينة

نقل الفكر الإنساني وتخزينه، واقتبسها منهم الإغريق، ونشروها في أوربا في القرن(٩ ق.م) كما اقتبسها الآراميون ونشروها في الشرق، واقتبس العبرانيون (شفة كنعان) أي العبرية، وحفظوا الأدب الكنعاني في كتاباتهم المقدسة، ولم تعرف حقيقة التوراة (التوراة الكنعانية) حتى اكتشفت أوغاريت عام ١٩٢٩م.

تقع مدينة أوغاريت (تل رأس الشمرا) قرب شاطئ البحر المتوسط، إلى الشرق من (مينة البيضاء) أي الميناء الأبيض، وعلى بعد ١٢كم إلى الشمال من مدينة اللاذقية، وكانت إحدى كبريات المدن الكنعانية في العصور القديمة.

ومنذ عام ١٩٢٩م كشفت بعثة فرنسية آثارها المهمة، التي نعتمد عليها في كتابة تاريخ أوغاريت الطويل.

المادة المتوافرة للكتابة قسمان:

ـ الآثار العمرانية والمصنوعات بمختلف أنواعها.

ـ الآثار الكتابية.

أما الأولى فتستخدم للتعريف بالتاريخ الحضاري للمدينة، والثانية للتاريخ السياسي للمملكة؛ وبما أن الثانية تعود إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، فهي تلقي الضوء على تاريخ المدينة خلال هذين القرنين فقط، لذا فالمعول عليه في كتابة تاريخ المدينة قبل ذلك، هي الآثار المادية، وبعض المعلومات

مدخل مدينة أوغاريت ويبدو السور المائل كوسيلة دفاعية

المستقاة من المصادر الحثية والمصرية.

ولابد هنا من تقسيم تاريخ أوغاريت إلى عصرين:

العصر الذي يسبق القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، ثم عصرها الذهبي الذي يمتد من ١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ق.م.

أوغاريت قبل القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م

كانت أوغاريت على صلات وثيقة مع جيرانها فيما وراء البحار وفي الداخل، فقد اكتشفت فيها آثار مصرية من عصر الإمبراطورية الوسطى (٢٠٥٢ ـ ١٦١٠ق.م) أهمها منحوتات لزوجة الفرعون زيزستروس الثاني (١٨٩٧ ـ ١٨٧٨ق.م) وللملك أمنمحت الثالث (١٨٤٠ ـ ١٧٩٢ق.م) وهذه المكتشفات تدل على قيام علاقات صداقة بين حكام أوغاريت وحكام مصر. وقد أرسل المصريون هذه المنحوتات إلى أوغاريت للتقرب منها، والحصول على بركة أربابها، والتمهيد لبسط النفوذ السياسي عليها. ولكن لا شيء يثبت وقوع هجوم مصري على تلك البقاع. أما علاقة أوغاريت مع الدول الكنعانية في الداخل فلا تزال سرا مجهولا.

لم تقتصر صلات أوغاريت التجارية عبر البحار على مصر، بل شملت أيضا العالم الإيجي وقبرص؛ لأن الطرق التجارية البحرية بينهم خالية من المخاطر والمعوقات، إذ لم تكن هناك دول قوية على الشواطئ بين أوغاريت والعالم الإيجي تهدد أو تعيق حركة التبادل التجاري بينهم. ولا شك أن جبل الأقرع شمالي أوغاريت كان بمنزلة منارة للسفن المبحرة نحوها وخاصة من قبرص. وهذا ظاهر بوضوح من خلال الأشياء الكثيرة ذات الأصل المينوي Minoan والمسيني Mycenean والقبرصي التي اكتشفت خلال الحفريات؛ فلقد تم اكتشاف فخاريات إيجية لا تحصى في أوغاريت، كما أن موقع أوغاريت تم تحديده أول مرة عندما اصطدمت سكة محراث أحد الفلاحين بقبر مسيني. ولقد ترك الفن المسيني بعض الأثر في أوغاريت، وكانت هناك أيضا علاقة قوية بين الأدب الأوغاريتي والأدب الإيجي.

وبعد ازدياد نفوذ مدينة (اللالخ) في سهل العمق، قبل منتصف الألف الثاني ق.م، وانتقال مركز السلطة من حلب إليها. نشأت في قصرها الملكي دار محفوظات حوت بضع وثائق تحدثنا عن استيراد (اللالخ) لمادة الصوف من أوغاريت، ويبدو أنه بعد سقوط ماري توطدت علاقة أوغاريت التجارية مع (اللالخ) أكثر فأكثر، ولكننا لا نعرف الحجم الحقيقي للمبادلات بينهما، وبحكم التجاور بين الدولتين، وتوسع كل منهما باتجاه الأخرى، بدأتا بتنظيم علاقاتهما على أسس محددة مدعمة بوثائق واتفاقات، يقضي بعضها بتسليم المجرمين والفارين والسارقين. ونذكر هنا رسالة من ملك اللالخ (نقميبا) إلى (عبيرا) ملك أوغاريت يعلمه فيها أن أحد الخدم قد فر من (اللالخ) ومعه ثلاثة خيول، ومن المحتمل أنه قصد أوغاريت، لذا يرجوه أن يأمر بالقبض عليه وإعادته إلى (اللالخ). ومن المرجح أن هذه الحادثة قد وقعت خلال الربع الثاني من القرن الخامس عشر ق.م.

لم تكن (يمحاض) القوة السياسية الوحيدة التي تعاملت معها

أوغاريت في الشمال، فقد ظهرت على المسرح السياسي الدولة الميتانية إلى الشرق من الفرات، وحاولت بسط نفوذها على الأراضي الواقعة غربه، مثل حلب واللالخ وحتى أوغاريت.

وبوصول السلالة الثامنة عشرة (١٥٧٠ - ١٣٤٥ق.م) إلى الحكم في مصر، تعزز النفوذ المصري في بلاد الشام كلها، وشد ملوكها الرحال إلى بلاد الشام، تصدياً للحثيين والميتانيين لمنعهم من بسط نفوذهم وسيطرتهم الكاملين عليها. وقد حرصوا على أن تكون أوغاريت ذات الموقع الإستراتيجي الممتاز في صفهم، واحتفظوا بحامية عسكرية فيها خلال عهد توت موسيس الثالث (١٥٠٢ - ١٤٤٨ق.م) و أمنوفس الثاني (١٤٤٨ - ١٤٢٢ق.م).

أوغاريت في عصرها الذهبي

يمتد هذا العصر من ١٤٠٠ - ١٢٠٠ق.م تقريباً وخلال هذين القرنين، شهدت بلاد الشام صراعات داخلية، سببتها أطماع الحثيين والميتانيين فيها، ومحاولتهم بسط نفوذهم عليها، أو على جزء منها، فتصدى ملوك مصر لهاتين القوتين في الشمال، محاولين منعهما من تحقيق أهدافهما، فانحاز إليهم بعض الحكام، وعاداهم بعضهم الآخر.



إناء محفور من الصخر يستخدم لجمع ماء المطر يتصل مع مصرف حجري لتوصيل الماء إلى المنازل

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بلاد الشام قد تمتعت في النصف الأول من الألف الثاني ق.م بالاستقرار السياسي، على عكس ما جرى في النصف الثاني؛ فقامت فيها دول، ودويلات كثيرة، منها، على سبيل المثال لا الحصر، أوغاريت، واللالخ، وقادش، وأمورو، وجبالا (جبل)، ومجدو، وأوفة... ولم تقم وحدة سياسية بين هذه الدول تجمع شملها، فبقيت مجزأة، كيانها السياسي القبيلة التي استقرت في بقعة معينة من بلاد الشام، واتخذت مدينة ملائمة عاصمة لها. ولم تكن هذه الوحدات السياسية على درجة متساوية من القوة. كما أنه لم يطل بها الزمن حتى سقطت في أيدي الدول القوية المجاورة.

وكان لهذا الوضع ولحرمان بلاد الشام من حكومة مركزية قوية، كما في بابل وحتى مصر، أثر كبير في تطورها السياسي والحضاري، كما سنرى من هذا العرض الموجز لتاريخ أوغاريت، وأعمال ملوكها الذين اهتموا بالعمران، وتنشيط التجارة والزراعة، ومختلف أنواع الفنون والآداب.

شهد العصر الذهبي عدة ملوك كان أولهم (عم ثتمز أي عم استمري) ويعني (استمرى الشعب) وأخبار هذا الملك وصلت من وثائق خلفه، تحوي إشارات واضحة تدل على أن الملك (عم ثتمر) قد أقام علاقات ودية مع الحثيين والمصريين، وكان على خلاف مع العموريين في الجنوب الذين استقروا في السهول الممتدة بين طرطوس شمالاً وطرابلس جنوباً، وكانت عاصمتهم سميرا على نهر الأبرش.

وقبيل منتصف القرن الرابع عشر ق.م خلف عم ثتمر على العرش ولده (نقم أدد أو نقم هدو) ويعني اسمه قام هدد أو قائم هدد أو قايم هدو الذي يقابله بالعربية (قايم الزمان). وقد اكتشفت في دار المحفوظات الأوغاريتية الملكية وثائق كثيرة سياسية واقتصادية وأدبية في عصر هذا الملك. ويستدل منها أنه عاصر الملك الحثي شوبي لليوما (١٣٨٠ - ١٣٤٦ق.م) وكل من الفرعونين امنوفس الرابع (١٣٧٧ - ١٣٥٨ق.م) ونوت عنخ أمون (١٣٥٨ - ١٣٤٩ق.م).

وأهم من ذلك أنه عاصر الملك العموري القوي آزيرو، الذي بسط نفوذه على ساحل بلاد الشام من مملكته جبالا (جبيل) في الجنوب إلى حدود مملكة أوغاريت في الشمال، وذلك في الربع

الثاني من القرن الرابع عشر ق.م وفي ذلك الوقت كانت أوغاريت دولة تجارية، ولم تكن دولة عسكرية كجارتها الجنوبية العمورية القوية، لذا كان أول عمل لـ (نقم هدد) هو التقرب من آزيرو ومصاهرة العموريين، ثم عقد معاهدة معهم كان فيها آزيرو الطرف الغالب، ونقم هدد الطرف المغلوب، وقد تعهد (آزيرو) بنجدة أوغاريت في حال وقوع هجوم عليها وعلى دولة سيانو في سهل جبلة، ومقابل ذلك دفعت أوغاريت لآزيرو خمسة آلاف مثقال فضة.

حكم (نقم هدد) فترة طويلة من الزمن، وكان مهتماً بالأدب والثقافة كاهتمامه بالسياسة، وأهم ما نذكره له في هذا الموضوع، هو أن أعظم التراث الفكري الروحي الأوغاريتي وأضخمه قد دون في عهده. وبعد موته خلفه ابنه (أرخلبا) الذي حكم نحو السنتين فقط، ولم يترك سوى بضع وثائق. وإن كانت فترة

الشارع الطويل الرئيس في المدينة

حكمه القصيرة هذه غير عادية، إلا أنها تدعو للتساؤل عما إذا كان هذا الملك قد مات؟ أم إنه اعتزل الحكم؛ لأنه لم يكن على وفاق تام مع الحثيين.

ومهما يكن من أمر فقد اعتلى العرش بعد (أرخلبا) أخوه (نقم عفا)، وذلك في السنة التاسعة لحكم مورشيلي تحتي (١٣٤٥ ـ ١٣١٥ق.م) وعاصر من الملوك الحثيين موفاتلي (١٣١٥ ـ ١٢٩٠ق.م)، ومورشيلي الثالث (١٢٩٠ ـ ١٢٨٣ق.م)، وخنوشيلي الثالث (١٢٨٢ ـ ١٢٥٠ق.م) وتوفي خلال السنوات الأخيرة لحكم (خنوشيلي الثالث)، تاركاً وثائق تاريخية مهمة.

عقد (نقم عفا) معاهدة مع (مورشيلي الثاني) الحثي. ويبدو من هذه الواقعة أنه لم يلتزم المعاهدة التي أبرمها والده هدد مع شوبي لليوما، مما دعا الملك الحثي مورشيلي لأن يعتقله وينقله من أوغاريت إلى عاصمة الحثيين (خاتوشا). ثم أعاده إلى عرشه بعد أن كبله بمعاهدة جديدة قاسية أوجبت على أوغاريت دفع الجزية، وتقديم المعونات العسكرية والمادية للحثيين، والتزام عدم التعاون مع أعدائهم، إلى جانب تعهد ملك أوغاريت بالسفر سنوياً إلى بلاد حثي لتقديم الولاء لملكها؛ وليس ذلك هو النتيجة الوحيدة لتمرد نقم عفا على الحثيين، بل توجد نتائج أقسى وأمر. فقد قلصوا حدود أوغاريت الجنوبية، وأخرجوا دولتي سيانو وأشنانو الواقعتين بين نهر الروس والسن من أراضي أوغاريت، وربطوهما بنائب الملك المقيم في كركميش، الذي أصبح المشرف الوحيد على شؤون بلاد الشام الشمالية وعلى الرغم من هذا كله قدم نقم عفا العون العسكري للحثيين في معركة قادش، واحتفظ بعلاقات تجارية مع مصر.

تربع على عرش أوغاريت بعد وفاة نقم عفا (عم ثتمر الثاني)، وفي عهده وقعت أحداث سياسية مهمة نقلت إلينا بواسطة الرقم الكثيرة التي دونت عليها أيضاً رسائل وقوانين ومعاهدات.

اعتلى هذا الملك العرش وهو صغير نسبياً، ولكنه كان متزوجاً بابنة الملك العموري بن تشينا. وعاصر الملك الحثي ختوشلي الثالث (١٢٨٢ ـ ١٢٥٠ق.م) خلال أواخر سني حكمه. ويبدو أنه توفي خلال حكم تودخليا خلال الربعين الثالث والثاني من القرن الثالث عشر ق.م.

وساد السلام ربوع الشام خلال هذه الفترة، بعد أن قررت الدولتان المصرية والحثية، وبعد معركة قادش الشهيرة، وقف جميع الأعمال الحربية بينهما، والاعتراف بالوضع الراهن الذي كان قائماً آنذاك في بلاد الشام.

تسلم الحكم بعد وفاة (عم ثتمر) ولده أبي رانو الذي لم يترك لنا سوى وثائق قليلة جداً، والذي لم يحكم سوى عدة سنوات في الربع الثالث من القرن الثالث عشر ق.م.

يبدو أن أبي رانو لم يكن كأسلافه ليخضع للحثيين، ويتمسك بالمعاهدات والمواثيق التي كبلوا بها أوغاريت. ولعل الظروف التي سادت المنطقة آنذاك مثل تعاظم قوة الآشوريين، وظهور خطر شعوب البحر، قد ساعداه على ذلك. وعلى أية حال فإنه لم

يقم بالزيارة المطلوبة إلى عاصمة الحثيين ليقدم الولاء والطاعة للكهم حتى يعترفوا به ملكاً على بلاده؛ ولهذا السبب كتب إليه الأمير الحثي فخولوي معاتباً، لائماً إياه لعدم احترامه للمواثيق والمعاهدات، ولعدم قيامه بالزيارة المطلوبة، ولا ندري بعد فيما إذا كان أبي رانو قد زار خاتوشا عاصمة الحثيين، ومع هذه المواقف التي اتخذها أبي رانو نرى أن نائب الملك الحثي المقيم في كركميش يتدخل في رسم حدود دولة أوغاريت وخاصة الجنوبية عندما ينشب الخلاف عليها.

بعد وفاة أبي رانو خلفه على العرش (نقم هدد) الثالث، الذي كان حكمه قصيراً، ولم يترك لنا سوى عدة وثائق تتعلق بمعالجة بعض الأمور القانونية من قبل ملك كركميش.

بعد نقم هدد وصل إلى العرش عمو رافي آخر ملك حكم أوغاريت عند نهاية القرن الثالث عشر ق.م. قبيل غزو شعوب البحر لها وإحراقها.

والدليل المادي على أن هذا الملك كان قد شهد نهاية المملكة، وخراب المدينة، هو العثور على رقم طينية خاصة به في الموقد الذي كانت تشوى به، ولم تستخرج، لأن الكارثة كانت قد وقعت. وقبل وقوع الكارثة أرسل الملك الحثي، الذي تعرضت بلاده هو الأخر للغزو، يطلب النجدة العسكرية، والمعونات المادية من أوغاريت، فحصل عليها، لكنها لم تجد نفعاً، فالغزو كان أكبر من أن يقاوم، إذ تعرضت سواحل بلاد الشام كلها للغزو، ولم تقف أوغاريت مكتوفة الأيدي حياله، بل قاومته، ودمرت أنساق الغزو الأولى، وأحرقت سفنه، وطلبت من قبرص إعلامها عما إذا كانت هناك سفن أخرى مبحرة نحوها. ولكن يبدو أن الغزو والغزاة كانوا أقوى من أي دولة من دول بلاد الشام منفردة، فوقعت الكارثة، وسقطت أوغاريت، وأثبتت التنقيبات الأثرية أن المدينة قد أحرقت وفر منها سكانها إلى الأبد، مع قدوم شعوب البحر نحو ١٢٠٠ق.م. انتهت حضارة العصر البرونزي القديم، وجاءت معها نهاية إحدى أكثر المدن السورية ثراء: أوغاريت التي لم تستطع أبداً النهوض من ضربة شعوب البحر.

الحياة الفكرية في أوغاريت

هذا هو شأن أوغاريت السياسي، أما شأنها الفكري فهو أعظم، إذ انفردت دون غيرها من المدن الكنعانية باستعمال الأبجدية في الكتابة، علماً بأن الأبجدية الكنعانية كانت معروفة في أرجاء بلاد الشام كافة، وتشهد على ذلك عدة نصوص غير مهمة عثر عليها في قادش (تل النبي مند قرب حمص)، وفي كوميدد (كامد اللوز بالبقاع في لبنان)، وفي طعناك وبيت شمس في فلسطين. والفارق الوحيد بين الخط الأوغاريتي وخط هذه المدن، أن الأوغاريتيين قد كتبوا من اليسار إلى اليمين (باستثناء بضعة رقم كتبت من اليمين إلى اليسار)، وأن الآخرين كتبوا من اليمين إلى اليسار. وإذا كانت الأبجدية الكنعانية معروفة ببلاد الشام، فلماذا لم تكتب بها جميع الممالك الكنعانية؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نلفت النظر إلى ناحية مهمة جداً، وهي أنه لم يعثر في أكثر عواصم الممالك

أبجدية أوغاريت المسمارية حوالي ١٤٠٠ق.م أول أبجدية في العالم

الكنعانية «جبالا (جبيل)، ومجدو، وطعناك، وبيسان، وبيت شمس، وكامد اللوز، وقادش، وحماة، وعشترة» على دور محفوظات، بل عثر فيها على عدد ضئيل جداً من الرقم المكتوبة بالخط المسماري، وقد عثر في أوغريت واللاذقية، وقطنا على دور محفوظات مهمة. ومن المحقق أنه كانت لهذه الممالك مراسلات مع الدول المجاورة كتبت بالخط المسماري، ومن المفروض أن نسخاً منها كانت تحفظ في العاصمة فأين ذهبت؟... قد تكون ما زالت بين الأنقاض، أو ضاعت كما ضاعت الرقم المكتوبة بالأحرف الأبجدية. والأرجح أن السبب في عدم انتشار الكتابة بالحروف الأبجدية هو سياسي اقتصادي، ومما يدعم وجهة النظر هذه أن الأوغاريتيين لم يكتبوا إلا النصوص الدينية وبضع رسائل، وبضعة إيصالات بالأبجدية. وقد سطروا رسائلهم إلى بلاد النهرين ومصر وآسيا الصغرى بالخط المسماري الذي يعرفه الجميع.

ومما يدل على اهتمام الأوغاريتيين بالأبجدية، أن أحد علمائها قد سطرها على عدة رقم عثر عليها في المدينة محطمة أو سالمة، وتتألف من ثلاثين حرفاً، أي بزيادة حرفين على الألف باء العربية، وثمانية على الألف باء الآرامية والكنعانية المتأخرة (الفينيقية).

يتصدر حرف الألف المفتوحة الأبجدية الأوغاريتية التي تنتهي بحرف الألف المجرورة والمضمومة وبحرف السين. ومن هنا أتت الزيادة، فلحرف الألف ثلاثة أشكال للدلالة على حركات الضم والفتح والكسر. أما حرف السين الأخير فيلفظ كما تلفظ العامة حرف الثاء في ثور وثوب، وبما أن هذه الحروف قد وضعت آخر القائمة فهي على ما يبدو زائدة.

وعلى الأرجح فالقصد من وراء تسطير الأبجدية على أكثر من رقيم هو توفيرها بين يدي التلامذة، أو حتى الكبار، ليتعلموها لفظاً وكتابة. والواقع أنه كانت في أوغاريت مدارس لتعليم الكتابة والقراءة بدليل عثور البعثة على الرقم التي كان يتمرن عليها التلامذة.

قصص وأساطير

ليس هذا فحسب، بل كتبت أهم الآثار الفكرية والروحية الأوغاريتية بالحروف الأبجدية. وقد عثر في مكتبة كبير الكهنة على عشرين رقيماً كاملاً أو ناقصاً، سطرت عليها النصوص التي نطلق عليها اسم (أساطير) وقصص، وهنا نشير إلى ناحية مهمة جداً، وهي أن هذه النصوص قد وجدت في مكتبة كبير الكهنة، وهذا دليل قوي على ارتباطها بالمناسك والشعائر الدينية.

تتألف المجموعة من ست مؤلفات هي:

- دورة بعل.
- مولد الفجر والغروب.
- أنشودة ننكال (أعراس القمر).
- رفأم.
- قصة دنال (دانيال).
- قصة كرت.

وعاء محفور من الصخر لجمع ماء المطر

وفيما يلي سرد لنموذج هذه المؤلفات باختصار:

القصة الأولى دورة بعل: وتعني موت بعل وبعثه من جديد، وتجسد دورة الحياة في الطبيعة، أي توالي الفصول: الربيع والصيف والخريف والشتاء وما يرافقها من أمطار وجفاف، وخصب وقحط، ومن ثم رخاء الإنسان أو جوعه، بالإضافة إلى موت الناس وتوالدهم.

تصف الحكاية صراع بعل وموت. بعل: يجسد الحياة، وموت: الفناء، ومن الطبيعي أن ينتصر موت أو الموت، وإلا كان أي شيء غير ذلك مخالفاً لقانون الطبيعة. وحينما مات بعل ونزل إلى العالم الأسفل، اصطحبته غيومه ورياحه وقرابينه،

واصطحبه فتيانه وحيواناته، أي انقطع الغيث ومات الصغار وبعض الحيوانات، فحل القحط بالأرض. وبنزول بعل إلى العالم الأسفل تبدأ دورة سنوية جديدة، هي عملية تحضير البذرة للإنبات والإخصاب النباتي والحيواني والإنساني.

وبموت بعل يحزن إيل أبي بعل وأخته عنة، حزنا شديدا، ويجسد حلم عنة الذي رأت فيه هطول الأمطار وجريان السمن والعسل أمل الناس وترقبهم نزول المطر وتوقعهم جني الخيرات. تحقق حلم عنة أي حلم الناس في هطول الأمطار والاستسقاء حينما بعث بعل حيا.

في هذه القصة حكايات عن موت الأرباب ومولدهم، حبهم وبغضهم، أحقادهم ومؤامراتهم، وفي هذا التشابك تصوير لدورة الحياة بما فيها من خصوبة الإنسان والحيوان والنبات الأبدية، بل المتجددة باستمرار.

وأيا كان الأمر، فإن هذه القصة ثمرة اجتهاد الكهنة في تفسير متفق عليه للظواهر الطبيعية من غير ترتيب الأدلة العقلية على الأمور. إنها محاولة منهم لمعرفة أقانيم الكون.

التحصينات

لا نعرف بالتأكيد إذا كانت أوغاريت محاطة في أواخر أيام ازدهارها بسور يلفها من جميع جوانبها، وقد تم الكشف عن بقايا تحصينات تعود للألف (الخامس والرابع والثاني) قبل الميلاد في أمكنة مختلفة من المدينة، وهناك في غرب معبد (بل) قام منحدر شديد الميل مبني بالحجارة الصلبة كان يحمل بالتأكيد ذلك الجدار الذي أحاط بجزء من المدينة قبل عصر (الكالكوليتيك) أي العصر الحجري النحاسي الموافق للألف الخامس والرابع قبل الميلاد، وأما في نهاية عصر البرونز الوسيط وبداية عصر البرونز الحديث (١٧٠٠ - ١٦٠٠ق.م) فإن جدارا سماكته متران ونصف المتر كان يحمي المدينة، وتم العثور على بقاياه عن طريق المصادفة، وإبان عصر البرونز الحديث أي في المدة الواقعة بين (القرن الخامس عشر والثالث عشر) قبل الميلاد ثبت أن هناك سورا كان يحيط المدينة من شمالها، ولكنه لم يعد ظاهرا للعيان في هذه الأيام، وأما التحصينات الواقعة في غرب المدينة والمؤدية إلى حي القصور فقد بقيت ظاهرة للعين، وبدت كمنحدر شديد الميلان مرصوف بالحجارة بكل عناية، ويتخلله باب؛ وقام في هذه التحصينات ممر معطوف ذو حواجز مبنية من حجارة كبيرة تشكل عقدا خفيفا مغطى بالبلاط السميك، ويؤدي هذا الممر إلى مؤخرة البرج الذي يتجه غربا قريبا من الباب، ولا تبدو هذه المنشآت المتمثلة معاصرة بعضها لبعض، فقد بدا أن البرج قد تهدم قبل نهاية مدينة أوغاريت بكثير من الزمن، وفي نهاية القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد استغني عن الباب، وقام مقامه ممر أو جسر لم يبق منه سوى القليل من آثاره، وكان يمر فوق أطلال برج لم يعد ظاهراً للعيان، ويمتد حتى آخر المكان الذي تميزه عتبة ضخمة مبنية من كتلتين حجريتين كبيرتين مصقولتين تم الكشف عنهما في بقايا الجدار الشرقي العائد للبرج القديم، وبدا أن إحدى الحدائد التي تدور فيها مصاريع الأبواب الضخمة قد بقيت في وضعها الأصلي، وتمثل العتبة المذكورة مدخل باب المدينة، وهو النموذج الشاهد على ذلك العصر، وهي برج بارز قليلاً بالنسبة إلى سور المدينة بني على شكل كماشة تشكل معبراً مركزياً مفتوحاً من جميع جوانبه على فتحات يستطيع أن يقف فيها المدافعون عن المدينة التي بدا في أواخر أيامها أن الوصول إلى المكان المرصوف أمام مدخل القصر الملكي فيها يقضي باجتياز أربعة أبواب، وأما جدران البرج فقد حافظت على طابعها المتمثل بأحزمتها الأفقية الخشبية مثلما حافظت على فضلات طلائها.



رسالة بالكتابة المسمارية وعليها ختم الملك الحثي

وإذا كان نظام التحصينات قد بدا واضحا مفهوما في أواخر مراحل تطوره، فإن آثار هذه التحصينات الخاصة بأقدم المراحل الزمنية لا تساعد على تكوين فكرة كاملة عن إستراتيجية الدفاع

والهجوم في ذلك الحين، إذ يشاهد المرء أن البرج كان ملتصقاً بمنحدر، بينما بدا للعيان أنه سور موجود في الشمال، وتمت في الجهة المقابلة له إشادة معبد ذي فراعة (بلطة) ميتانية، وحتى الآن لم يعرف أين كان موقع مدخل البرج خلال القرن الخامس عشر ق.م، وفي أعقاب مرحلة القرن المذكور، فإن الباب الذي كان من المحتمل أن يحميه البرج الضخم، لم يكن بالتأكيد هو الوسيلة الوحيدة للدخول والخروج من المدينة، وما زال موقع الباب الرئيس حتى هذه الساعة مجهولاً.

وإلى جنوب هذه المجموعة المعقدة من المنشآت تمتد سلسلة من الغرف ليس بينها أي اتصال ظاهر، وهي تنفتح على الشارع الضيق الذي ينطلق من الزاوية الجنوبية الغربية الخاصة بباحة القصر التي يمتد تحتها فرع من قناة التصريف خاص بالقسم الشمالي الغربي، فمن المؤكد أنه جزء من السور المتهدم. وأما الأسلحة ووسائل التحصين المكتشفة فتؤكد وجود سراديب مخصصة للقوات المدافعة عن المدينة، وعن بابها خاصة، وهناك تحت السراديب الوسطى منها قبر يشير إلى أن هذه المحلات كانت تؤلف قصراً عائداً إلى أحد الضباط على الأرجح، وأما بلاط هذا المدفن فيكشف عن وجود ثقوب فيه كانت ترتبط فيما بينها بواسطة دسار من الحديد، ولا يجد المرء مثل ذلك إلا في قمة الممر الخاص بباب السور، وأما الشارع فظهر مغلقاً من الجهة الجنوبية بباب واسع لم يظهر حتى الآن، ويبدو أنه عائق يمنع الوصول من هذه الناحية إلى مدخل ملحق خاص بالقصر الكبير، وإلى باب القصر الجنوبي الرئيس.

هندسة القصور

تبلغ مساحة القصر الملكي الأوغاريتي المكتشف عام ١٩٣٩م، والمنقب فيه بدءاً من عام ١٩٥٠م وإلى عام ١٩٥٥م ما يقرب من الهكتار الواحد، وهو أكبر الأبنية التي كشفت عنها التنقيبات الجارية حتى اليوم في أوغاريت، وتدل على شهرته في الماضي البعيد تلك الرسالة التي بعث بها أحد ملوك جبيل إلى فرعون مصر (امينوفيس الثالث)، والقصر المذكور يستحق بالفعل هذه الشهرة بسبب ما تجلى فيه من روعة ودقة في أبعاده، وطبيعة بنائه من حيث الأحجار المنحوتة والحشوة الخشبية، والآجر الأرضي، فامتزجت فيما بينها بمهارة فائقة في سويتين أو ثلاث، ولما ظهر فيه من تنظيمات بدت فيها وحدات القصر المختلفة متأثرة بطابع ما هو سائد في البلاد المجاورة، فاتصلت بعضها مع بعض بممرات متعددة توحي بما كان للقصر من مهام متنوعة، واشتمل القصر على بابين ثانويين: أحدهما في الشمال الشرقي، والثاني في الجنوب الغربي خصصا لقضاء بعض حاجات القصر اليومية، بينما قام في زاويته الشمالية الغربية باب واسع حمل واجهنه عمودان، وخصص للأعمال الرسمية مع المدينة وللاحتفالات، وذلك بواسطة ساحة أقيمت في طرفه الغربي، ويقود الباب المذكور في



منظر عام للقصر الملكي تظهر فيه الغرف المتعددة من خلال بواباتها الكبيرة

هذا المدخل الرئيس الضخم الذي تتم من خلاله مراقبة حركة المارة مراقبة دقيقة إلى باحة متناسقة الأبعاد يحدها من الجنوب رواق ذو عمودين، ومن الغرب مجموعة من الأبنية ذات طابع دفاعي، ومن الشرق أبواب مختلفة تقود إلى وحدات القصر المركزية حيث يبدو في الباحة الممتدة رواق ذو عمودين، وهي من الباحات التي تستعمل عادة. وأما في صالة القصر فيلاحظ المرء وعلى امتداد إحدى الباحات مدافن أرضية جميلة منهوبة. وفي باحة أخرى حوض ماء جميل، فقد كشفت التنقيبات فيها عن بئر، وعن شبكة ماء مهمة يمكن متابعة تمديداتها في جوف الأرض حتى الآن، كما تم العثور في هذه الباحة على فرن امتلأ برقم كانت، على ما يبدو، تشوى إبان تدمير القصر، وقامت في

الطرف الشرقي من القصر باحة كبيرة ذات امتداد وجد المنقبون في الزاوية الشمالية الغربية منها حديقة جميلة. وفي غرفة تؤلف جناحاً في القصر وجد أثاث فاخر (أسرة وكراسي، وطاولة مستديرة) مطعم بالعاج المشغول، وتم العثور على هذا الأثاث مبعثراً في أمكنة متجاورة، وذلك يوحي بأن محاولة جرت من أجل إنقاذه إبان التدمير الذي وضع حداً لحياة القصر.

ويبدو من العسير على المرء أن يحدد وظيفة كل وحدة من وحدات القصر الملكي التي كشفت عنها التنقيبات الجارية، حتى لو قاده ذكاؤه الحاد إلى بعض الاستنتاجات، إذ يبقى المرء متردداً، وخاصة ما يتعلق بوظائف الطابق الأرضي من القصر المذكور، لايستطيع أن يعرف كيف جرى استعمال كل غرفة فيه؟ ويبدو من المؤكد أن غرف طوابق القصر العليا كانت مخصصة للسكن الملكي حيث تدور الحياة اليومية، ومن المحتمل أن تكون صالات الاستقبال في عداد الغرف المذكورة، كذلك فإن من الواضح أن جميع التحسينات التي طرأت على بناء منشأة القصر الملكي قد اندثرت إلى الأبد على أثر الكارثة الكبرى التي حلت به، ولا شك أن المرء يحزن لهذا المصاب الأليم، ويأمل أن تسد الاكتشافات الجديدة في أوغاريت هذه الثغرة الكبيرة في المعلومات.

ولا بد أن نضيف إلى هندسة القصر الملكي التي عملت على شهرته، تلك الأشياء النفيسة التي عثر عليها فيه، وخاصة ما يتعلق منها بالأدوات العاجية، وتلك الكمية من الوثائق المنسقة الغنية بالمعلومات عن مدينة أوغاريت وتاريخها. وإلى جانب القصر الملكي، لا بد أن نذكر تلك الأبنية الجميلة التي ساهمت بالتعريف بهندسة البناء المتقدمة السائدة في ذلك الحين، وإن كانت لا تعادله روعة وبهاء.

القصر الصغير: ويقع جنوب القصر الكبير، ويفصله عنه طريق جميل، وفيه قبر رائع وغرفة للوثائق المهمة، ولم يكن مصيره أفضل من مصير غيره من أبنية المدينة الأخرى التي صارت إلى قدرها المحتوم.

القصر الشمالي: سمي بهذا الاسم لأنه قام على منحدر القصر الملكي الشمالي، ويتألف من باحة كبيرة مركزية مرصوفة بحجر (الأورتوستات) تحيطها ملحقات بيوت تراوح أهميتها صعوداً وهبوطاً، ويتصل شماله بجنوبه بواسطة رواق واسع واقع في وسط واجهته الشرقية، وتبدو على هذا البناء سمات القصر الحقيقية التي تدفع إلى الاعتقاد أنه أقدم من القصرين الملكي والصغير، العائدين لعصر البرونز الحديث، بينما يرقى البناء المذكور بقدمه إلى نهاية عصر البرونز الوسيط، ومع ذلك فإن شح آثاره المكتشفة يوحي بوجود قصر كبير مهجور منذ أمد طويل قبل الدمار الرهيب الذي أصاب مدينة أوغاريت.

بركة ماء في القصر الملكي كانت تستخدم للزينة والاستحمام

البناء الكبير: يقع هذا البناء على منحدر تل رأس الشمرة الشمالي، وتم اكتشافه في عامي ١٩٧٥م و١٩٧٦م، ولم يكن من الممكن من حيث حجم بنائه، ومنشآته الداخلية، والعدد المكتشفة فيه أن يطلق عليه اسم القصر، ومع هذا فإن طبيعة بنائه، وأساليب هندسته، واحتوائه على باحتين لكل واحدة منهما رواق ذو عمودين، وعلى طابق يوصل إليه بسلم مركزي، وعلى مدفن، كل ذلك يدفع إلى القول: إن هندسة هذا البناء هي الهندسة النموذجية الخاصة بمدينة أوغاريت، ولا يبقى ثمة شك بأن البناء المذكور هو بالتأكيد من الأبنية الخاصة المعروفة.

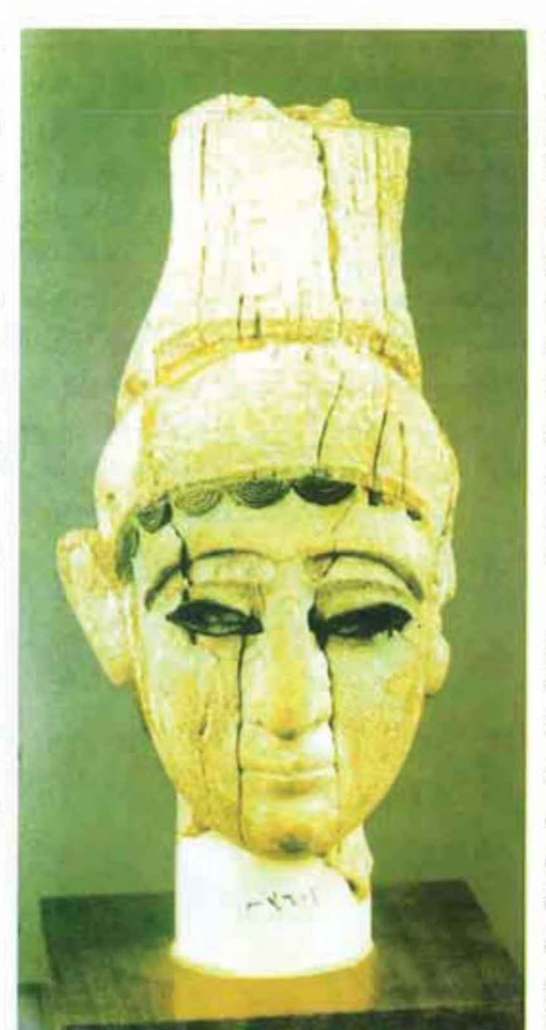
هندسة بناء أماكن العبادة

كشفت التنقيبات الجارية في موقع رأس الشمرة حتى الآن عن ثلاثة معابد، تم العثور على المعبدين المهمين منها في قمة هذا التل أي: (الأكروبول).

وأما أحسن هذه المعابد من حيث المحافظة على الشكل والبناء،

فهو القائم على منحدر هذه القمة، وهو يتألف من بناء متجمع على شكل برج تظهر فيه بقايا درج كبير، وإن الاتساع الشاقولي لهذا البناء أمر لا شك فيه، ويتقدم البناء مدخل ذو أبعاد كبيرة له درجات كثيرة، وتنفتح واجهته على باحة مكشوفة أمام المذبح، وقامت في الجهة الغربية من البناء المذكور ملاحق سكنية ألحقت به لغرض الحماية، ويبدو أن مجموعة الملاحق هذه قد ضمها جدار السور الذي ما زال ظاهراً للعيان من الجهة الشرقية، واستطاع أن يحدد موقع المكان المقدس في هذا البناء».

ولما تم اكتشاف نصب حجري صغير يمثل الرب (بعل) في الجهة الغربية بالقرب من المعبد في الجهة الغربية من التل، تمّ الاعتقاد أن المعبد المذكور كان مقصوراً على الرب المذكور، وأما المعبد الثاني الخاص بالرب (دجن) فقد تم اكتشافه على بعد ستين متراً شرق المعبد الأول، وعلى مستوى واحد من حيث الارتفاع، ولم يعثر فيه إلا على الأساسات والقواعد التي ارتفعت بشكل بارز فوق السكن المحيط بهذا المعبد، وأما أطلاله فبدت كافية للقول: إن مخطط بنائه كان متماثلاً في جميع نقاطه مع مخطط معبد (بل). وأما المعبد الثالث الذي اكتشف في الجهة الغربية من التل فقد أطلق عليه المنقبون اسم المعبد (الحوري) نسبة إلى الحوريين، وهو أصغر كثيراً من المعبدين الأولين، ولكنه يتماثل معهما في تفصيلات تنظيماته، وخاصة ما يتعلق منها بالدرج القائم في الغرفة الداخلية منه الذي يصل إلى القسم العلوي من المعبد، حيث تتم تلاوة الطقوس الدينية، وفي هذا المعبد تم العثور على أشياء نفيسة مثل: السرج والأواني، وعلى تمثالين صغيرين مطليين بالذهب وعلى غيرهما.



رأس من العاج لرجل أو ملك من أوغاريت حوالي ١٢٠٠ق.م

ولا بد من القول: إن هندسة البناء هذه الخاصة بأماكن العبادة هي هندسة على جانب كبير من الأهمية، إذ جرى تطبيقها ثلاث مرات في مدينة أوغاريت نفسها، وهذا يؤكد أن هناك تقليداً هندسياً راسخاً دون غيره من أنواع هندسة البناء الأخرى ذات الخواص المرتبطة بهندسة البناء السورية.

عمارة المدافن

خلال أعمال التنقيب الجارية في رأس الشمرة تم العثور على الكثير من المدافن، ولن نتحدث هنا إلا عن التي تحمل طابعاً مميزاً، أي عن تلك المدافن المبنية بالحجارة، والمقامة في أقبية بيوت السكن الخاص، والقصور الكبيرة، والصغيرة. وأما بناء هذه المدافن فهو يقوم عادة على درج هابط مستقيم الاتجاه يبدأ من أرضية إحدى غرف البيت، ويغلق بالبلاط ذي الحجم الكبير، ويفتح عند كل وفاة، ويقود إلى القبر ذي العقد المبني من بلاط كبير الحجم، وقد رتب هذا العقد بحيث جعل مدماكه العلوي بمنزلة باب يسد القبر الذي تكون أرضه عادة مرصوفة، وفيها حفرة تحتوي عادة على عظام الميت وحوائجه، وأما متانة أبنية المدافن المذكورة فلا حاجة إلى الدلالة عليها، فهي لم تصب خلال مرحلة بلغت (٣٥) قرناً من وجودها بأي تلف، باستثناء ما أصابها من المنقبين السريين الكثيرين المحظوظين الذين عبثوا بها، فأصبحوا مسؤولين عن اختفاء وضياع كل ما تم إيداعه من مواد إلى جانب الموتى إبان العصور الخالية، وهو أمر يأسف له المؤرخون كل الأسف.

ومن الصعوبة بمكان إعداد قائمة بجميع المدافن المكتشفة في مدينة أوغاريت، لذلك سيصار إلى تعداد المدافن التي يمكن الدخول إليها ومشاهدتها في أثناء زيارة المدينة.

ـ هناك مدفن في غاية الجمال يقع على بعد عشرات الأمتار جنوب معبد (بل)، ويعطي فكرة كاملة عن بناء نموذجي للمدفن، وعن درجه البديع، وقبره الرائع.

ـ المدافن التي تم الكشف عنها في صالة قصر الملكي الذي تقدم بحثه.

ـ المدفن الموجود في القصر الصغير.

ـ المدفن الذي عثر عليه إبان الكشف عن البناء الكبير في عامي ١٩٧٥م و١٩٧٦م، وقد انفرد بخاصية احتوائه على غرفة لا يرقى إليها، ولكنها ترتبط بالقبر بواسطة نوافذ صغيرة في الأعلى أي (روزنات).

وأخيراً نلاحظ في الحي الغربي من المدينة، وبالقرب من القصر (البناء) الكبير بناء غريب الشكل، بني من كتل الحجارة الطويلة يمثل المظهر الخارجي لمدفن ردم في الأرض بصورة بدائية، وهذا النوع من البناء لا يمكن للمرء أن يراه مطلقاً لو لم يتم الكشف عنه، والذي يعطي صورة دقيقة عن بناء المدافن.

وفي الختام لا بد من القول: إن هندسة بناء المدافن المذكورة هي هندسة تبقى بشكلها الدقيق هندسة فريدة في سورية، وترتبط بهندسة تطبيقية خاصة بحوض البحر الأبيض المتوسط انتشرت انتشاراً واسعاً خلال الألف الثاني قبل الميلاد، ولكن بصور وأشكال متنوعة.

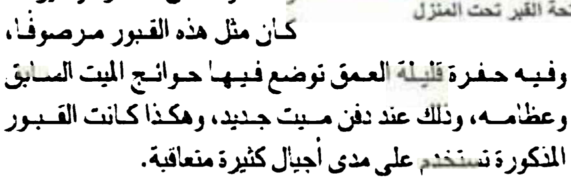
المساكن الكبيرة

تمتد شرق قصور مدينة أوغاريت منطقة واسعة تشغل بيوت الأثرياء مساحة واسعة منها، وتخترق المنطقة ثلاثة شوارع تمتد من الجنوب إلى الشمال، وهذا الامتداد يجعل اتجاه الشوارع قريباً من الزاوية الشمالية الشرقية للقصر الكبير، وأما بيوت أوغاريت فيتألف معظمها من طابق أرضي وطابق أول، وأحياناً طابق ثان، وقد خصص معظم غرف الطابق الأرضي لحفظ المؤن، والقيام ببعض الخدمات المنزلية، وأحياناً حفظ البضائع. ومن المحتمل أن يكون قسم من الطابق المذكور قد أعد لاستقبال الزائرين، وأعمال رب البيت العامة الذي يجب أن تبقى عائلته تمارس نشاطها المعتاد في الطابق الأول من البيت وفي سطحه المبني من تراب صقلته مدحلة حجرية حتى يبقى ناشفاً، وأما تصريف مياه الأمطار فتؤمنه أقنية من الآجر تقود إلى بالوعة أعدت خصوصاً لذلك، وأما القصور الملكية في أوغاريت فليست سوى تلك المساكن الكبيرة التي لم تعرف بغير ذلك، فالتقسيمات فيها واحدة، إذ نظمت الفسحات في هذه القصور بحسب مقتضيات الحاجة، وتناوبت الساحات بغية تأمين الهواء والضياء، وجرى استخدام الرواق المؤلف من عمودين خشبيين لكل منهما قاعدة حجرية دائرية الشكل بحيث يقود إلى إحدى جهات الساحة المركزية، كذلك فإن تقنية البناء كانت متماثلة من حيث تشبيك الأخشاب بشكل أفقي فوق احجار الجدران المغطاة بالمونة، ومن حيث تقوية زوايا ودعامات أطراف الأبواب المؤلفة من كتل كبيرة منحوتة، وهذه التقوية جرى تطبيقها أيضاً على واجهات بدت، على غيابها، كأنها نوافذ حقيقية.

وأما في عصر البرونز الحديث فإن كل بيت في أوغاريت، سواء أكان غنياً أم فقيراً، كان يأوي إليه الأحياء والأموات من أفراده، إذ كان مدفن العائلة يقام عندما يشاد البيت، وكان مدخل هذا المدفن ينفتح عادة في أرضية حجرة صغيرة، ومنها وبواسطة ممشى قصير يصل المرء إلى قبو تحت الأرض مستطيل الشكل يمتد تحت صالة كبيرة أو باحة، وفي أغلب الأحيان كان المدفن مبنياً من جدران بنيت بأحجار بلا مؤونة ذات ميل كبير، وله غطاء مصنوع من بلاطات كبيرة، ولكن المدفن المذكور كان في القصور الأغنى بناء مثيراً مشيداً من الحجارة المصقولة، جهز مدخله بدرج يفصله عن القبر باب بمصراعين، والقبر المذكور مستطيل الشكل يغطيه عقد أغلقت وسطه سلسلة من الحجارة على شكل حرف T بالفرنسية، وأما جدران بناء المدفن فاحتوت على كوات توضع فيها إبان الاحتفالات الجنائزية السرج الملأى بالزيت، والمصنوعة من الفخار، وكثيراً ما كان مثل هذه القبور مرصوفاً،



حي للسكن الشعبي وتبدو فيه فتحة القبر تحت المنزل



وفيه حفرة قليلة العمق توضع فيها حوائج الميت السابق وعظامه، وذلك عند دفن ميت جديد، وهكذا كانت القبور المذكورة تستخدم على مدى أجيال كثيرة متعاقبة.

بيت الأباتر

لا يفصل هذا البيت عن حدود القصر الكبير الشرقية سوى عرض الشارع الممتد بينهما، ويقف المرء على شهرة هذا البيت عندما يعرف الأغراض التي احتوتها غرفه التي يصل تعدادها إلى الأربعين، وأما شكله فكان على هيئة مثلث يتجه رأسه نحو الشمال، وأما بناؤه فقام على قسم من التل الشديد الانحدار، وله في الطابق الأرضي سويتان يربط بينهما درج، وأما في الجزء الأسفل من البناء، فكان هناك درجان يقودان إلى الطابق الأول منه، وأما أبوابه فكان أحدها يقود إلى طريق مسدود من الشمال، واثنان إلى الشارع في الغرب، وآخر أو اثنان أيضاً إلى شارع في

الجنوب، وأما الكثير من صالات البيت فكانت مزدحمة بالجرار المخصصة للخمر والزيت والزيتون والمؤن الأخرى، وأما في الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا البيت، فقامت الغرف ذات البناء الجيد، ويبدو أنها خصصت ليمارس صاحب البيت فيها أعماله اليومية العادية، وبالقرب من مدخل البيت وضعت خابية، وأما مدفنه الواسع الذي وجد منهوباً فمازال حاوياً على الأواني الخزفية، وعلى أوان من الباتر حملت كسرة منها خاتم رمسيس الثاني فرعون مصر، ولا شك أن هذه الكسرة تعود لإناء مهدى من فرعون المذكور، كما تم العثور في هذا المدفن على موسى للحلاقة من البرونز تعدّ من الأثاث الجنائزي، وقامت هناك غرف للاستقبال التي من المحتمل أن تقود إلى حمام فيه حوض ماء إلى جانب مغطس بُني من الحجارة المنحوتة، وفي الزاوية الجنوبية الغربية من هذا البيت، حيث يقوم العمل اليومي المعتاد، تم العثور على المطبخ المجهز بفرن كبير، وقدور معدنية وأجرية مختلفة، وليس بعيداً عن المطبخ تم العثور أيضاً على مجموعة من الأواني المختلفة، وإلى جواره قامت غرفة اتخذت مستودعاً امتلأ بجرار ذات سعات مختلفة، وآنية متنوعة، وشمعدانات مصنوعة من الفخار، كذلك تم العثور على ثلاث أوان قمعية ميسينية جميلة، وعلى تمثالين صغيرين، أحدهما من البرونز يمثل الرب (بعل)، والثاني من الحجر يصور إنساناً مصرياً ثبت على قاعدة من الأباتر، ولا شك أن جميع هذه الأدوات التي تم العثور عليها تؤكد ممارسة نوع من العبادة في المنزل، وفي أسفل المستودع المذكور تم الكشف عن قبر وجد منهوباً، وتأكد من خلال ما وجد فيه من مغزل عاجي ومجوهرات تناثرت بالقرب من الباب أنه ضم رفات صاحبة هذا البيت العظيم.

مازلنا في الحي نفسه، ولكن في قطاعات أخرى من المدينة، إذ قامت هناك قصور كبيرة كان تنظيمها مماثلاً لبيت الباتر، وقد احتوت علاوة على ما تقدم ذكره على وثائق أو على مكتبات، كذلك كان هناك على امتداد شارعين واقعين شرق البيت المذكور، بيت (رابانو) الذي حوى أجمل مدفن في مدينة أوغاريت، وقد عمل رابانو هذا صاحب المركز المرموق في قصر أوغاريت في عهد (أميشتامرو الثاني) وذلك في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكانت لديه علاوة على النصوص الدينية، العقود القانونية الخاصة، الرقم المتعلقة بالحسابات، وعدد من الرسائل الرسمية المتبادلة بين ملك أوغاريت والملوك الآخرين، وبالقرب من منزله، وفي الحي نفسه كان ينتصب بيت (راشابابو) المسؤول عن سوق أوغاريت، وإلى جانبه كان يقوم أيضاً بيت أحد الأفراد، وما زال اسمه مجهولاً، ولكنه كان يلقب بالأديب بسبب محتويات مكتبته، وأما جاره في الشمال فكان صانع أسلحة عرض لديه علاوة على الأسلحة البرونزية، سيف من صناعة أوغاريت نقش عليه بالمصرية اسم فرعون مصر، كذلك امتد على الأكروبول بين المعبدين الكبيرين بيت الكاهن الكبير في أوغاريت الذي وجدت فيه النصوص الأولى الخاصة بتل رأس الشمرة، ويبدو أن مدرسة للكتّاب قد الحقت بهذا البيت، وفي أسفل الحي ونحو الجنوب يصادف المرء بيت (باتيلوا) وربما كان ممثلا لملكة (الحثيين) لدى مملكة أوغاريت، وفي الأسفل أيضاً تم الكشف عن بيت الكاهن الماهر الذي يبدو أنه لم يمارس وظيفة رسمية ما، ولكنه كان يتنبأ بالمستقبل عن طريق فحص كبد الحيوانات المنذورة ورئاتها، ويقارنها مع نماذج مماثلة لها مصنوعة من الآجر، كما كان يملك مكتبة ملأى بالنصوص الدينية.

مما لا شك فيه أن بيوت أوغاريت، الكبيرة منها أو الصغيرة، الفخمة منها، أو المتواضعة، تقدم لنا من خلال ترتيبها وأثاثها فكرة عن حياة السكان اليومية، وعن أعمالهم المختلفة، ففي هذه البيوت يجد المرء وبشكل بارز، الأدوات الخزفية المعدة لجميع الاستعمالات اليومية، والبضائع المخزونة، وآنية الماء المقدس، والأختام الأسطوانية، والأختام المسطحة لتصديق العقود، وأدوات الحرف اليدوية، وسيصادف المرء، وبشكل أساسي في البيوت الواقعة في جنوب المدينة، الجواهريين ونقّاش الجواهر والسباكين، وصانعي الأحذية والنجارين كذلك الذين يصعب تحديدهم لأن منتوجاتهم كانت من الأشياء المندثرة، هذا وعلى الرغم من اختفاء معظم أثاث هذه البيوت المصنوعة من الخشب والنسيج، والجلود، فإنها تمثل لها صورة رائعة عن حياة شعب متحضر يسعى إلى ترفيه نفسه بشراء المنوجات المحلية والمنتوجات المستوردة، أو صناعة أدوات مقتبسة من نماذج أجنبية مثل الخزف القبرصي أو اليوناني والقاشاني، والباتر، والعاج، والجعران المصرية.

الهوامش

١ـ الميثولوجيا السورية، د. وديع بشور، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، ط١، ١٩٨١م.
٢ـ أوغاريت، د.صفية سعادة، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، ط١، ١٩٨٢م.
٣ـ نصوص من أوغاريت، د. علي أبو عساف، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ١٩٨٨م.
٤ـ رأس الشمرة، البعثة الفرنسية المنقبة، ترجمة فهمي الدجاني، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٨٠م.

لونار بروسبكتر
الأهداف والنتائج

سليمان قيس القرطاس
جبيل الصناعية - السعودية

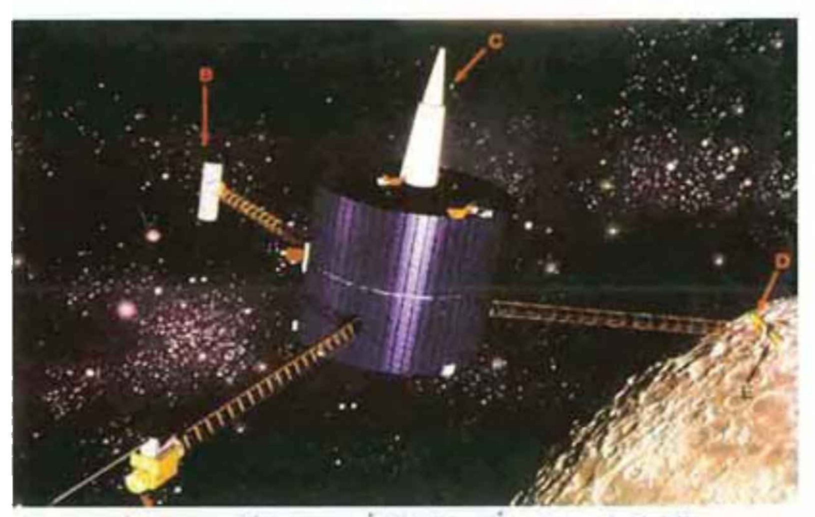
أنهت المركبة الأمريكية لونار بروسبكتر مهمتها بالاصطدام بسطح القمر في ٣١ يوليو/تموز ١٩٩٩م. واستطاعت هذه المركبة الصغيرة تقديم الكثير من الأرصاد التي تمت دراستها، وقدمت بشأنها الكثير من البحوث العلمية بينما ينتظر بعضها الآخر إكمال دراسته وإعلان نتائجه. ونحاول في هذا المقال إلقاء الضوء على مهمة هذه المركبة والنتائج العلمية التي حققتها.

على الرغم من أن القمر كان في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات ساحة للمنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق شملت هبوط مركبات مأهولة، إلا أن الأعوام التي تلت ذلك شهدت انحسارًا كبيرًا لذلك الاهتمام.

وكانت الرؤية السائدة آنذاك أن القمر جرم صخري تغطي بعض مواقعه التربة، بينما تغطي معظم منخفضاته الحمم المتجمدة من عصور غابرة، تغطي سطحه الفوهات الناتجة عن سقوط النيازك على سطحه، ولا يحيط به غلاف غازي، وليس فيه أي من مقومات الحياة وأهمها الماء.

وعلى الرغم من جلب رواد الفضاء الأمريكيون لـ ٣٨٢ كجم من تربة القمر وصخورها إلا أن تلك العينات لم تكن تحوي الماء.

إلا أن الاهتمام بالقمر عاد بفضل معلومات جديدة قدمتها إحدى المهمات الخاصة بوزارة الدفاع الأمريكية والمسماة كلمنتاين.



المركبة لونار بروسبكتر وأذرعها الحاملة للأجهزة العلمية (المصدر NASA)

ومهمة كلمنتاين التي أطلقت عام ١٩٩٤م كان هدفها الأساسي الدوران حول القمر مدة ٧٠ يومًا للاستفادة من جاذبيته للاقتراب من أحد الكويكبات، وهو أمر أخفقت في تحقيقه. إلا أن الأرصاد التي حققتها خلال مسحها لسطح القمر من ارتفاع ٤٣٠كم أشارت إلى العثور على دلائل غير قطعية لوجود كميات من الماء المتجمد في منطقة القطب الجنوبي للقمر.

وحفزت هذه الأرصاد وكالة الفضاء الأمريكية للإعداد لمهمة دراسة أكثر دقة لسطح القمر ومركباته المعدنية، ووجود الماء المتجمد فيه.

المركبة لونار بروسبكتر

دعمت النتائج العلمية السابقة مجموعة من الباحثين في وكالة

الفضاء الأمريكية الذين قدموا مقترحاتهم إلى الوكالة لتصميم مركبة وإطلاقها لتعيد إلى القمر الاهتمام العلمي.

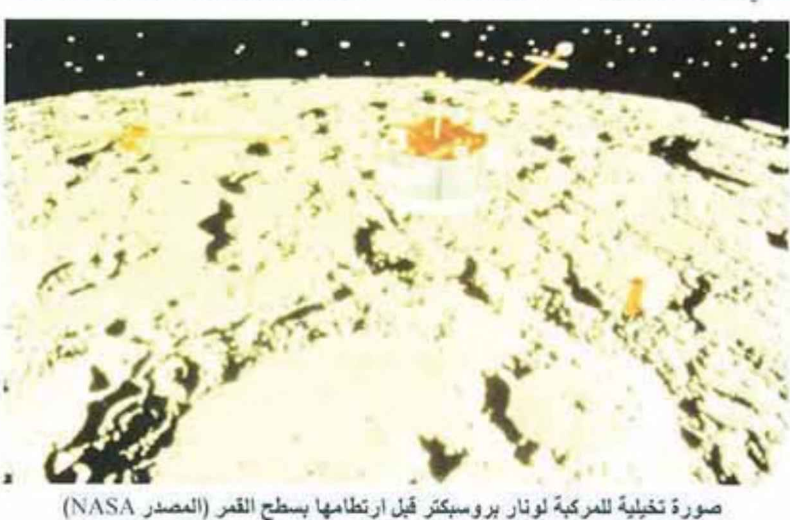
وتم اختيار مشروع مركبة لونار بروسبكتر كأول مشروع تتم الموافقة عليه ضمن مشاريع وكالة الفضاء الأمريكية المسماة بـ «دسكفري» وهي مشاريع علمية بتكلفة منخفضة نسبيا.

وكانت التقديرات تشير إلى إن تكلفة تصنيع هذه المركبة وإطلاقها يبلغان ٦٣ مليون دولار.

ومهمة هذه المركبة ككل المركبات التي أعدت لدراسة الكويكبات والمريخ، وضعت عدة معايير من أجل تخفيض تكلفة المهمة، شملت استخدام تقنيات تم تطويرها سابقا، فمثلا تصميم المركبة مشابه لتصميم المركبة بايونير ـ ٦ التي أطلقت عام ١٩٦٥م، وكانت بحجم صغير، وشكل إسطواني، وتحمل أجهزتها العلمية في نهاية أذرع طويلة قابلة للطي.

وبسبب القيود المفروضة على حجم المركبة وحمولتها فإن عملية تصوير سطح القمر بطريقة مشابهة لاستشعار الأرضي عن بعد غير ممكنة بواسطة هذه المركبة التي تحمل خمسة أجهزة علمية، وهي ذات قدر قليل من الأجهزة الاحتياطية، ويتم نقل المعلومات العلمية إلى الأرض بمعدل بيانات منخفض هو ٦ر٣ كيلوبت/ثانية فقط.

واستغرقت عملية تطوير المركبة لونار بروسبكتر عامين، وتم تطوير أجهزتها المساندة، كنظام الدفع والتحكم بالمدار، ونظام إرسال معلومات الحالة من الأنظمة المماثلة التي تم تطويرها للأقمار الصناعية الصغيرة للاتصالات المتنقلة ذات المدار المنخفض لمشروع أريديوم، كما امتازت المعدات الأخرى المستخدمة في المركبة بانخفاض التكلفة، ومنها بطاريات نيكل كادميوم بدلاً من بطاريات نيكل هيدروجين، ولم تكن المخصصات المالية للمركبة كافية لاستخدام خلايا شمسية مصنوعة من مادة الغاليوم والزرنيخ، لكن كان بالإمكان استخدام نوع جديد من الخلايا الشمسية الحديثة المصنوعة من السيليكون.


صورة تخيلية للمركبة لونار بروسبكتر قبل ارتطامها بسطح القمر (المصدر NASA)

واستخدم في المركبة مسجل معلومات إلكتروني من أشباه الموصلات بدلاً من المسجلات التقليدية التي تحتوي الشريط المغناطيسي من أجل تخفيض الوزن.

وتزن المركبة لونار بروسبكتر ٣٠٠ كجم يشكل الوقود لأنظمة الدفع المسؤول عن التحكم بمدار المركبة ٤٥٪ من وزنها.

الأجهزة العلمية في المركبة لونار بروسبكتر

ـ مطياف أشعة جاما: وهو جهاز حساس بصورة أساسية لأطياف أشعة جاما المنبعثة طبيعا من الثوريوم واليورانيوم والبوتاسيوم، وهي عناصر مهمة تعرف التغيرات في القشرة القمرية، والطبيعة البركانية، والمصدر الرئيس للحرارة الداخلية.

كما أن الجهاز قادر أيضا على استشعار سبعة عناصر أخرى هي الحديد والتيتانيوم والألمنيوم والسيليكون والأكسجين والكالسيوم والمغنسيوم على الرغم من كونها لا تشع أشعة جاما، لكنها تعكس أطيافا معينة من أشعة جاما القادمة من مصادر كونية، فإن هذا الجهاز قادر على مسح ما نسبته ٩٩٪ من عناصر سطح القمر.

ـ جهاز مطياف جسيمات ألفا: وهو جهاز حساس لجسيمات ألفا للغازات المنبعثة من سطح القمر من عنصري الرادون والبولونيوم نتيجة أشعة الشمس، ويستدل من قياسات هذا الجهاز على حركات القشرة القمرية، والفاعلية البركانية للقمر، حيث تخرج هذه الغازات عادة من البراكين والشقوق في القشرة القمرية.

ـ جهاز مقياس المجال المغناطيسي: وهو جهاز لقياس المجالات المغناطيسية على سطح القمر.

ـ جهاز مقياس انعكاس الألكترونات: وهو جهاز آخر لتسجيل المجالات المغناطيسية على سطح القمر بطريقة غير مباشرة من خلال قياس طاقة الإلكترونات التي تحملها الرياح الشمسية والتي ترتد من المجال المغناطيسي للقمر.

ـ مطياف نيوترون: ويستشعر هذا الجهاز النيوترونات المنبعثة من ذرات الهيدروجين على سطح القمر نتيجة لتأثرها بالأشعة الكونية، ويتم من خلال استشعار وجود نيوترونات الهيدروجين الاستدلال على وجود الماء، والجهاز قادر على استشعار وجود كمية من الماء مقدارها كوب في متر مكعب من التراب.

كما يتم استخدام جهاز إرسال المعلومات إلى الأرض في غرض علمي آخر، فعند دوران المركبة حول القمر تتغير سرعتها بتغير مجال الجاذبية القمرية، ويؤدي ذلك إلى انحراف في تردد الإشارة المرسلة. يتم قياس هذا الانحراف بدقة عند استقبالها على الأرض لتسجيل قياسات مجال الجاذبية القمرية.

مسار المهمة

تم إطلاق صاروخ أثينا ـ ٢ يوم ٦ يناير/كانون الثاني ١٩٩٨م من مركز كنيدي الفضائي في فلوريدا وهو يحمل المركبة لونارو بروسبكتر إلى مدار الإفلات من جاذبية الأرض.

وأوصل الصاروخ المركبة لونار بروسبكتر إلى ارتفاع ٣٨٦ ألف كيلو متر عن الأرض لتدخل مدارا حول القمر، وبعد عدة مناورات مدارية بدأت المركبة بالدوران حول القمر بارتفاع ١٠٠كم.

وخلال الشهر الأول من مهمتها وهي على هذا الارتفاع، أكدت المعلومات التي أرسلتها المركبة من جهاز مطياف بروتون المعلومات التي سبق لمهمة كلمنتاين الإشارة إليها عن وجود كميات من الجليد المائي في القطب الجنوبي للقمر.

الرائد جون ألدرين على سطح القمر في رحلة أبولو ١١ (المصدر NASA)

كانت القياسات تشير إلى وجود ١١ ـ ٣٣٠ مليون طن من الجليد المائي في القطبين، وبوجود الجليد المائي في القطب الشمالي بكمية تبلغ ضعفي ما في القطب الجنوبي من ماء.

وأشار أحد الباحثين إلى أن الماء المستكشف في هذه المرحلة بتراكيز قليلة تراوح بين ١ و ٣٪ من التربة التي تحتويه، ومع ذلك فالباحثون يقولون: إنه بالإمكان استخلاصه من التربة بسهولة.

ويفتح هذا الاستكشاف فرص إنشاء محطة فضائية على سطح القمر تعتمد على الماء الموجود في العيش والحصول على الأكسجين والهيدروجين الضروريين كوقود للعودة إلى الأرض.

أما سبب التفاوت في القياسات فيرجع إلى أن هذا الجهاز كان يقيس على عمق ٥و. متر من سطح القمر عند دوران المركبة من هذا الارتفاع المداري.

العثور على كمية أكبر من الماء

بعد انخفاض مدار المركبة، واستمرار القياسات أشارت المعلومات التي تم تسجيلها لاحقًا، وأعلنت عنها وكالة الفضاء الأمريكية في نهاية ١٩٩٨م أن تحليل المعلومات التي أرسلتها المركبة أشارت إلى وجود حقول من الجليد المائي منها طبقة بسمك ٢ متر تحت ٥٠سم من القشرة الصخرية في القطبين الشمالي والجنوبي، وكانت التراكيز لوجود الماء في القطب الشمالي هي الأكبر.

وأشارت التقديرات إلى وجود ٣

بلايين طن من الجليد كحد أدنى، بينما تصل التقديرات المتفائلة إلى الضعف.

الكشوف العلمية الأخرى

- اكتشاف طبقة متأثرة بالمجال المغناطيسي للقمر (ماجنتوسفير)؛ وبذلك يعد أصغر ماجنتوسفير في المجموعة الشمسية، فقد كان يعتقد على نطاق واسع أن المجال المغناطيسي للقمر ضعيف وغير قادر على مواجهة تدفق الجسيمات المشحونة في الرياح الشمسية، لكن جهازي قياس المجال المغناطيسي، ومقياس انعكاس الإلكترونات سجلت وجود مجال مغناطيسي ضعيف يولد طبقة مغناطيسية (ماجنتوسفير) على ارتفاع ١٠٠كيلو متر.

- حقق جهاز مطياف أشعة جاما مسحا علميا دقيقا للمركبات المعدنية على سطح القمر لم يسبق تحقيقها لأي جرم غير الأرض.

- جاءت نتائج الدراسات عن لب القمر مقاربة للمعلومات التي تم الحصول عليها من رحلات أبولو، فقد أشارت الدراسات السابقة إلى أن لب القمر المكون من الحديد يمثل ٢ - ٤٪ من كتلة القمر، بينما يمثل اللب الحديدي ٣٠٪ من كتلة الأرض.

أما الحسابات المعتمدة على أرصاد مجال الجاذبية للقمر من المركبة لونار بروسبكتر فكانت تشير إلى أن نصف قطر اللب الحديدي للقمر هو ٢٢٠ - ٤٥٠كم بينما أشارت الحسابات المعتمدة على ارصاد المجال المغناطيسي للمركبة لونار بروسبكتر إلى أن نصف قطر اللب الحديدي للقمر هو ٣٠٠ - ٤٢٥كم.

وأشار أحد المختصين إلى أن تعرف الحجم الدقيق للب الحديدي للقمر يحتاج إلى إجراء قياسات زلزالية ربما تبدأ في المركبة اليابانية لونار - ٨ بعد إطلاقها في هذا العام من خلال اثنين من المخترقات الزلزالية لسطح القمر.



القمر كما صورته إحدى مركبات أبولو

(المصدر NASA)

ارتطام المركبة لونار بروسبكتر بسطح القمر

وبعد أن أكملت المركبة لونار بروسبكتر عاما ونصف العام حول القمر إنخفض مدار المركبة بشكل كبير، وأصبحت عملية ارتطامها بسطح القمر أمرا وشيكا.

وعلى الرغم من أن ارتطام المركبة بسطح القمر كان أمرا مفروضا في نهاية عمرها، ولم يكن يؤمل منه أي نتائج علمية، إلا أن الباحثين رغبوا بعد النتائج التي حققتها هذه المركبة أن يقدم ارتطامها نتائج علمية أخرى.

فقد تم التحكم بالمركبة لترتطم في سطح القمر في إحدى الفوهات التي شكلها سقوط النيازك في القطب الجنوبي للقمر، أملا أن تحقق في اصطدامها بسرعة عالية إثارة الغبار والوصول إلى الطبقة الجليدية تحت السطح ومتابعة عملية الارتطام من الأرض والمراصد الفضائية لتوفير دليل آخر على وجود الماء على القمر على الرغم من أن الباحثين قد وضعوا نسبة ١٠٪ لنجاح عملية الارتطام في الحصول على دلائل لوجود الماء وذلك لإمكانية اصطدامها في حافة الفوهة.

وتمت عملية ارتطام المركبة بسطح القمر في ٣١ يوليو/تموز ١٩٩٩م، وبعد أكثر من ثلاثة أشهر على عملية الارتطام أعلنت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا في نهاية عام ١٩٩٩م عن عدم عثورها على آثار للمياه من سحابة الغبار التي أثارها ارتطام المركبة لونار بروسبكتر بسطح القمر.

وتمت متابعة الارتطام عبر تلسكوب الفضاء هابل والقمر الصناعي SWAS، وعدد من المراصد الأرضية التي لم تسجل وجود أيون الهيدروكسيز oH الذي ينتج من تعرض جزيئات بخار الماء المبعثرة للأشعة فوق البنفسجية.

وباستثناء النتائج الأخيرة التي لم تكن كما يأمل الباحثون، فإن هذه المركبة الصغيرة قد قدمت الكثير من المعلومات التي ستبقى مرجعا للباحثين لسنوات قادمة.

علم نفس

مأزق الفنان

بين سوء التوافق النفسي ومتعة الإبداع الفني

محمد أحمد كرم الله الحاج
شندي - السودان

يستمتع الفنان بفنه إلى أقصى درجات الاستمتاع، ويشكل مع عمله الفني اتحاداً ووحدة واحدة، لا يكاد يرى في الكون غير عمله الإبداعي، ولذلك هو عاجز عن الاندماج فيما سواه، عاجز عن الاستمتاع بغيره، تبدو الأشياء كلها غريبة عنه إلا ما هو متصل بالعمل الفني الذي هو بصدده.

وهنا تبدو الجفوة بين الفنان والمجتمع، ويبدو الفنان للمجتمع كما لو أنه إنسان انطوائي منزو ونرجسي منغلق على ذاته، بل يبدو شخصاً غريب الأطوار، ويبدو المجتمع للفنان كشيء مخيف ومرعب، فينظر إلى ذاته فيجدها عاجزة عن مسايرة ذلك المجتمع في قوانينه وأعرافه وعاداته؛ ولذلك ينسحب إلى دائرة الفن والإبداع حتى يجد فيها بعض الراحة التي ينشدها، وتخفيفاً للألم الناتج من الإحساس بالنقص والعجز عن المسايرة، كما يجد فيها أيضاً بعض الإسعاد والإرضاء لذلك المجتمع الذي لا يكاد يجد لسلوكه تفسيراً، وهذا بالضبط هو مدخل المعاناة للفنان، وهو بوابة الألم والشقاء والتعاسة؛ ولذلك يشعر الفنان كأنه في مأزق حقيقي بين أن يبدع ويدفع ضريبة إبداعه هذا خصماً من راحته واستقراره وصحته النفسية، وأن يترك الإبداع ليتركه الألم.

وبيدو الأمر كأنه لا خيار فيه، فالفنان قد قطعت كل حبائل العودة وراءه حتى لا يخرج من (كهف الفن) أبداً، وغير الفنان قد طمست كل معالم الطريق أمامه، حتى لا يدخل (كهف الإبداع) أبداً، ينظر كل منهما إلى الآخر وكأنه يحسده.

وهو في ذلك مثل راكب الأسد والراجل على قدميه، الأول يحسد الآخر على موقعه الآمن، والآخر يحسد الأول على موقعه السامي، ذلك آمن يسعى إلى الرقي، وهذا خائف يسعى إلى الأمان.



ليو تولستوي

تاريخ من الجنون

منذ عهد أفلاطون الذي كان يرى «الإنسان لا يستطيع أن ينظم شعراً ثم يحتفظ بعقله في الوقت ذاته»(١) ومروراً بكل العهود التالية كانت هناك ملاحظة تبدو واضحة للعيان، وهي أن ثمة تلازماً وتحالفاً كبيرين ما بين المرض النفسي والعقلي والإبداع الفني والأدبي. وقد ذكر دريدان «أن الموهبة العظيمة دائماً قرينة الجنون»(٢). كما أن لا مبروز - العالم الإيطالي الشهير - قد عدّ العبقرية تعبيراً عن العقل المريض، ثم جاء كرتشمر ليقرر أن هناك تلازماً بين المرض النفسي وشخصية الفنان أو المبدع، بحيث إن علاجنا لحالة المرض النفسي يعني علاجاً لحالة الفن والإبداع، وقتلاً لجوانب الموهبة والعبقرية فيه، ويرى أننا لو حذفنا العامل

السيكوباتي والهياج الشيطاني والتوتر النفسي من تكوين الفنان أو العبقري فلن يبقى عندئذ سوى مجرد شخص عادي(٣).

وكان من أوائل الدراسات العلمية المنظمة، تلك الدراسة التي قام بنشرها لانج إيكباوم Lang Eichbaum في عام ١٩٢٨م، حيث درس لانج نحو ٧٨ عبقرياً، يمثلون أعظم الأسماء في ذلك الوقت، فوجد أن ٨٣٪ كانوا يعانون من بعض الاضطراب النفسي والعقلي، وعندما قصر بحثه وتحليله على ٣٥ عبقرياً يمثلون القمة من تلك العينة المختارة تبين له أن ٩٠٪ منهم كانوا يعانون من اضطراب عقلي ونفسي(٤).

وكلما اجتهد المجتهدون في نفي العلاقة التي تربط بين الإبداع الفني والأدبي والمرض النفسي، اجتهد المجتهدون في الجانب الآخر لإثبات جذور تلك العلاقة، ويذهب هؤلاء إلى أن أهل الإبداع والفن بما يحملون من مشاعر مرهفة، وأحاسيس ورؤى شفافة هم أكثر الناس عرضة للتقلبات الانفعالية والوجدانية، ومن ثم هم أقرب الناس لمحيط المرض النفسي والعقلي. ولعلنا لو وقفنا لنعد نماذج الأدباء والشعراء وأهل العبقرية عموماً ممن انتهت حياتهم بصاعقة المرض، أو على الأقل عاشوا حياة يغلب عليها السلوك غير العقلاني، لضاق المكان هنا عن العد والحصر، فما ورد في التاريخ الخاص بسقراط أنه كان يعاني كثيراً من أعراض المرض العقلي، فكانت تنتابه حالات من الغيبوبة والتخشب والهلوسة، أما بسكال - عبقري الرياضيات والفلسفة - فكان يعاني كثيرا من أعراض الجنون، ولا سيما الهلوسة، وبودلير Baudlair كان مصاباً بالشلل الجنوني، وتاسو Tasso ونيوتن Newton، كانا مصابين بالفصام، وقد انتهت حياة نيتشة بالجنون، وكانت حياة عدد من الموسيقيين أمثال بيتهوفن ورافاييل وبرنوك وبينر وارلوك حياة عاصفة ملأى بالشقاء، وكانت هذه النزعة المرضية أكثر وضوحاً لدى عدد كبير من الكتاب في القرن التاسع عشر، أمثال: فلوبير، ورسكن، ومسترنبربرج، وعدد آخر في القرن العشرين أمثال: بروست، وبوجين، وأرنيل، وديلان توماس كما أن هذه النزعة المرضية كانت أكثر وضوحاً عند فان جوخ، وواتزيللو وغيرهما من المصورين (الذين يرى بعضهم أنهم أكثر الفنانين عرضة للإصابة بالاضطرابات العقلية)(٥).

وفي التراث العربي كانت حالات السلوك اللاعقلاني والشاذ عند المبدعين



فولتير

واضحة جداً، وكانوا يفسرونها بوجود قوى شيطانية غريبة تتصل بشخصية المبدع أو الشاعر، وكانوا يرون أن لكل شاعر شيطاناً يوحي إليه قول الشعر، ولذلك قال أحدهم:

إني وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وكان مما اشتهر عن بشار بن برد أنه كان سريع الغضب سريع الهجاء، مجاهرا بالسكر وبأنواع المحرمات المختلفة، وأنه كان إذا أراد أن ينشد شعرا صفق بيديه، وتنحنح، وبصق عن يمينه وعن شماله، ثم ينشد من بعد ذلك(٦) وهذه الصورة هي أشبه بالصورة القهرية التي تدخل في باب الاضطراب الوسواسي القهري كاضطراب عصابي، والتي كانت ملازمة لفولتير Voltair الذي كان لا يكتب إلا بعد أن يضع أمامه مجموعة من أقلام الرصاص لا يقل عددها عن اثني عشر قلماً، وبعد أن ينتهي من الكتابة يكسر هذه الأقلام، ثم يلفها بالورقة التي كان يكتب عليها وينام.

وما قيل عن بشار يقال عن أبي نواس، إذ إنه تميز بالانحراف السلوكي العام، وكان معربدا إلى أبعد حدود العربدة، لم يدع فسقاً ولا فجوراً إلا انغمس فيه، وقد وصفه العقاد بأنه كان نرجسياً، وأن نرجسيته كانت شاذة، ورأى الدكتور محمد النويهي أن سبب هذا الشذوذ هو عقدته النفسية التي تكونت في عقله الباطن حين تزوجت أمه بعد وفاة أبيه، وحياة التشرد التي عاشها بعد ذلك(٧)، ولكن مع كل ذلك كان أبو نواس هو الأديب الشاعر المفرد الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

وكان أبو العتاهية في حزنه وانقباضه وتشاؤمه أشبه ما يكون بلامارتين - شاعر فرنسا الحزين الذي كان كثيرا ما يتحدث عن المرض العقلي الذي يسمى بالعبقرية، وأشبه ما يكون بشوبنهاور Schopenheur، الفيلسوف الألماني الشهير وصاحب مذهب التشاؤم الذي كان يرى: أن الرجل العظيم هو من يفضل الموت على البقاء(٨).

الفنانون والأدباء يتحدثون

لابد لنا أن نقف ونحن نستقرئ هذا الواقع الشائك المعقد عند رأي بعض الفنانين والأدباء فاحصين ملامح حياتهم وشخصياتهم، فها هو ذا توفيق الحكيم يقول: «إنك تعلم أن لي منطقاً خاصاً يشط بي أحياناً عما اعتاده الناس، فإذا أنا في

واد والناس في واد ينظرون إليّ ويقولون: إما أنه أبله، وإما أنه فطن»(٩).

وقد قال إدجار آلان بو: «لقد ظلت حياتي هوى واندفاعاً وحنيناً إلى الوحدة، وازدراء لكل ما هو حاضر». ويقول في خطاب له: «إنني روح شاردة»، وقد قال تولستوي ذات مرة: «لقد عجزت عن تعود الابتعاد عن الخجل عن كل كلمة ألفيها وعن كل فعل أقوم به مهما كان الموقف تافهاً وبسيطاً»(١٠).

وقد أكد جوته أنه كتب أحسن قصصه في أثناء فترة نوم حالة غريبة يقارنها هو بحالة النائم أثناء السير(١١)، وقد قرر كثير من الكتاب والفنانين أن ما أنتجوه من أعمال لم يكن صادراً عن شعور واع وإرادي بمعنى الكلمة، كما رأى آخرون أن إنتاجهم كان «كتابة آلية» وأنهم لم يكونوا في أثناء كتاباتهم مدركين المضمون الحقيقي لما يكتبون، وهذا كله يؤكد أهمية الجوانب اللا شعورية في الإبداع الفني، وإن كانت هذه الجوانب اللا شعورية لا تنفي وجود الجوانب الشعورية عندما يقوم الكاتب أو الفنان بصقل أعماله تلك وتحسينها بعد الانتهاء منها.

ويرى الدكتور عز الدين إسماعيل أن الفنانين يقبلون في رضا بل في حماسة فكرة المرض العقلي والنفسي التي تلازم الفنان، بل ويذهبون إلى أن يجعلوا من مرضه لازمة لقدرته على الإبداع(١٢).

وهذا الباب واسع، لا نريد أن نستطرد فيه كثيراً، يكفينا منه هذا الذي ذكر دليلاً على حجم المعاناة وحجم الألم اللذين يلاقيهما الفنان، وكأنما الأمر ضريبة لا بد أن تدفع، فإما أن تكون إنساناً فناناً موصوفاً بالمعاناة والمرض، وإما أن تكون شخصاً عادياً من غير معاناة ولا مرض، ولكن على كل حال أن تكون هذا أو ذاك فهذا ليس بقرارك أنت، وليس لك إلا السمع والطاعة.!

وعلى الرغم من كل هذا الذي ذكرناه.. فإن السؤال ما زال قائماً..

هل فعلاً ثمة علاقة حقيقية بين المرض النفسي والعقلي والإبداع الفني والأدبي؟ وهل يصح افتراض هذه العلاقة بناء على هذا التلازم؟ وهل العلم يؤيد فرضية التلازم كفرضية كاملة للتفسير والربط؟

هذا السؤال سنحاول الإجابة عنه من خلال استعراض رأي مدرستين: إحداهما مؤيدة لفكرة التلازم والثانية مناهضة لها.

المدرسة الأولى

وهي مدرسة ربطت بين ظاهرة الإبداع والمرض العقلي والنفسي، والذين أيدوا هذا الربط كثر على رأسهم لامبروزو



توفيق الحكيم

الذي كان يرى أن العبقرية إنما هي مرض نفسي أو عصابي، وكثيراً ما تكون ذهاناً، أي مرضاً عقلياً؛ كما أن كرتشمر كان قد ذهب إلى أن العبقرية تسير جنباً إلى جنب مع المرض العقلي، ويرى أن الأشخاص غير المتوافقين مع بيئتهم، الذين يحسون أنهم غير مرتاحين فيها، إنما هم أكثر ميلا إلى الاضطلاع بأشياء مهمة، وذلك أنهم يجدون أن بيئتهم غير محتملة، ولكنه - وحتى يستطيع أن ينتج نتاجاً عبقرياً فلا بد - حسب تعبير كرتشمر - أن يكون ممسوساً بالجن(١٣).

وجالتون الذي أكد أكثر من مرة عدم وجود علاقة بين الظاهرتين اضطر أخيراً إلى الاعتراف بأن هناك بعض الشواهد تشير إلى أن هناك علاقة قريبة بدرجة مثيرة للألم توجد بين الظاهرتين، ويجب أن أضيف - والحديث لجالتون - بأن ملاحظاتي الخاصة الأخيرة قد مالت إلى السير في هذا الاتجاه، وقد أحسست بحالة من الدهشة حين وجدت كيف يظهر الجنون والعته غالباً بين الأقارب من الدرجة الأولى للأشخاص الموهوبين؟ فهؤلاء الأشخاص ذوو الدافعية العالية، والنشاط العقلي المفرط لا بد أنهم يمتلكون غالباً أذهاناً تكون أكثر قابلية للاستثارة، وأكثر تميزاً بالغرابة مما هو متسق مع موهبتهم، إنهم أكثر احتمالاً من غيرهم لأن يتحولوا إلى مجانين في أوقات معينة، وربما أن ينهاروا تماماً(١٤).

وينظر برجلر إلى عمل الكاتب على أنه نتاج مجموعة أعراض فمية وشرجية، سادية في شخصية الكاتب، ويرى أن الكاتب إنسان عصابي بطبعه ذلك أن الأسوياء من الناس لا يحسون - في نظر برجلر - بحاجة قهرية للكتابة(١٥).

ولعل أكثر ما تستند إليه هذه المدرسة في تسويغاتها هو أن إبداع الفنان يرجع في مصدره إلى الرغبة في التخفف من عبء خاص، إلى محاولة تحقيق رغبات في عالم الخيال لم تشبع في عالم الواقع، وحسب التفسير النفسي فإن هذا الطريق هو الطريق ذاته المؤدي إلى العصاب. وقد قال برجلر ذات مرة: إن الإنسان الذي (يعاني) هو نفسه الإنسان الذي (يبدع)، وقديماً كان يعتقد أن الحصول على المقدرة لا يكون إلا من خلال المعاناة.

ولهذه المدرسة مسوغاتها التي تسوقها لتوضيح كيف ترتبط العبقرية في الفن أو الأدب دائماً بالمرض النفسي أو العقلي:

- يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الفنان

يعاني من الطغيان الانفعالي، مما يؤدي به إلى الاستجابة للمثيرات البسيطة التي لا تثير غالبية الناس، ولعل هذا ما عناه وليم جيمس عندما قال: العبقري هو إنسان دقيق الإحساس وكأنه قد رزق جهاز استقبال على جانب خارق من الدقة بحيث ينسنى له التقاط ما لا يستطيع غيره التقاطه.

- إن الانفعال الزائد الذي يعانيه الفنان يؤدي به إلى أن يكون ضعيف الضبط لذاته، مما يفسح مجالاً كبيراً للانحرافات السلوكية، والاضطرابات الانفعالية التي تجعل سلوكه، في تقويم غالبية الناس له، يتسم بالشذوذ والانحراف.

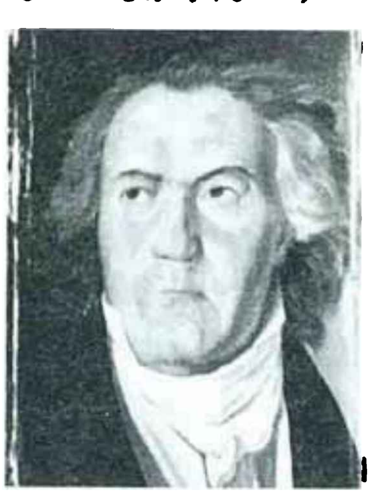
- إن الحلم والخيال هما المادة الأساسية للفن والإبداع، وهما في الوقت ذاته آليات دفاعية هروبية من مواجهة الواقع الذي يكون قاسياً ومتعباً، وهذا يشير إلى درجة المتاعب التي يعانيها الفنان من إحساسه بالنقص لغلبة الواقع عليه، وعدم مقدرته على مجاراته ومواجهته مثل غالبية الناس، مما يمثل مدخلاً مناسباً للألم النفسي. وقد ركز فرويد في تفسيره للإبداع على فكرة المتاعب النفسية، ورأى أن هذه المتاعب هي التي تدفع بالفرد إلى الإبداع، يقول: إن الناس السعداء لا يمكن أن يلجؤوا إلى أخيلتهم، ولا يعمدوا إلى الغوص في الخيال، غير أن حالات الحرمان وحدها والرغبات غير المشبعة، هي التي تفتح الباب واسعاً للخيال(١٦).

- إن هناك قوتين تعتملان في نفس الفنان، كما يرى يونغ Jung، قوة تحمل شوقاً جارفاً للإبداع، وأخرى تحمل ميلاً بشرياً للاطمئنان والسعادة والهناء، مما يؤدي إلى الصراع الذي هو بذرة المرض النفسي الأولى، وشوق الفنان للإبداع قد يذهب به بعيداً، ويتغلب على كل رغبة شخصية تجنح به إلى الحياة الهادئة المطمئنة، مما يجعل حياة الفنان غير مرضية إلى الحد البعيد، بل باعثة على التوتر والاضطراب في كثير من جوانبها.

- إن شواهد الحياة الفنية والأدبية منذ القدم حتى الآن تشير إلى أن هناك تلازماً واضحاً بين الإبداع الفني والأدبي والمرض النفسي والعقلي تكاد لا تخطئه العين أبداً، وقد سقنا على ذلك في السابق من الأدلة ما يكفي.

المدرسة الثانية

وهي المدرسة التي قاومت بشدة فكرة أن الفنان شخص مريض، ونفت وجود أي علاقة بين الفن كعنصر تمام وإعلاء وتنظيم، والمرض النفسي والعقلي كعنصر ضعف واضطراب وتشويش، بحجة أن



بيتهوفن

الجمع بين الضدين غير ممكن وغير جائز، ومن أنصار هذا الاتجاه من تشدد إلى الدرجة التي نفى فيها وجود شيء اسمه الموهبة أو العبقرية حتى تكون موصوفة بصحة أو مرض. وذلك مثل هوجارث Hogarth، الذي كان يرى أن العبقرية هي العمل والاجتهاد ليس إلا، كما كان السيد فرانيس جالتون يؤكد دائماً أثر الحواس والقدرة على العمل الشاق في كل إنجاز وعمل إبداعي متفوق(١٧)، وكان اليونانيون يعرفون الفن بأنه النشاط الصناعي النافع(١٨) وهذا قريب من تعريف العرب للفن عندما يطلقون كلمة الصناعة على الشعر أو الأدب بصفة عامة، فأبو هلال العسكري عندما ألف «كتاب الصناعتين» كان يقصد صناعة الشعر وصناعة الأدب.

ولا شك أن الذين يصنفون العبقرية كنتاج للعمل والاجتهاد ينأون بها عن التصنيف المرضي، بل هي بهذا تصبح أبعد ما تكون عنه.

وقد كان فلورنز يشير إلى أن العلاقة بين العبقرية والمرض النفسي والعقلي هي مجرد علاقة سطحية جلبتها المصادفة وحدها وقد رفض شنايدر بشدة القول: بوجود مصدر عصابي أو ذهاني للإبداع(١٩).

وقد اعتمدت هذه الدراسة في نفيها للارتباط بين الفن أو العبقرية عموماً والمرض النفسي والعقلي على عدة مسوغات، نذكر منها ما يلي:

- إن معنى الإبداع يناقض معنى الاضطراب والمرض، إذ إن الإبداع هو محاولة لتنظيم العالم الداخلي والخارجي، بينما المرض النفسي والعقلي هو إشاعة للاضطراب والفوضى، ومن ثم فإن المرض والفن يمثلان الشيء ونقيضه Thesis And Antithesis، فكثير من الفنانين الذين اضطربوا حدث لهم تدمير كامل لقدراتهم الفنية، ولعل هذا هو ما عناه فوكو فيلسوف الجنون الفرنسي المعاصر - من أن «الجنون هو التدمير الكامل المطلق للعمل الفني»(٢٠).

ولا شك أن وجهة النظر هذه تتحدث عن الفن بعد أن يحدث التدمير الكامل للقدرة الفنية من خلال الداهمة التامة للمرض، وهذا عنصر سيتفق عليه الجميع بالطبع، ولكن الحديث في هذا الاتجاه إنما هو منصب على جوانب العصابية والاضطراب والانفعال الذي يقود إلى الحساسية الحادة للمثيرات

الانفعالية مما يؤدي إلى إشكاليات سلوكية ومصاعب نفسية جمة تقود إلى سوء التوافق النفسي، وربما قادت، في خاتمة المطاف، إلى الاضطراب العقلي الكامل الذي يمثل حدا تنتهي عنده القدرات الفنية الإبداعية، وهذا هو ما نعنيه بالحديث هنا، وهو الذي يمثل سؤالاً صعباً وشائكاً حتى الآن.

- إن الحس الانفعالي، وإن كان عالياً بدرجة واضحة لدى الفنان، غير المتحكم في حياته بدرجة كاملة، بل العكس هو الحادث، فالفنان هو الذي يتحكم في انفعالاته زيادة أو نقصاناً، إذ إنه دائم البحث عن التنبيه أو الإثارة من أجل الجديد، ومن أجل الإبداع، وفي هذا اعتراف من أنصار هذا الاتجاه بوجود تذبذب انفعالي في حياة الفنان أو المبدع، إلا أنهم يرون أن هذا التذبذب هو صورة مفتعلة من خلال إرادة الفنان نفسه.

- إن الخيال المستخدم في عملية الإبداع الفني الذي قاد في كثير من الأحيان إلى تحليلات خاطئة تربط عملية الإبداع بالمرض النفسي والعقلي، هو خيال ليس بالضرورة أن يكون مريضاً، فإذا كان الخيال هو عنصر مرض واضطراب في بعض الأحيان، فقد يكون عنصر شفاء في أحيان أخرى كثيرة، وهذا هو ما أشار إليه بارسليوس الطبيب السويسري في القرن السادس عشر عندما قال: إن الخيال يمكن أن يسبب المرض للإنسان كما يمكن أن يشفيه منه(٢١).

وخيال الفنان يختلف عن الخيال المريض الذي يكون عادة سلبياً وغير منظم وغير منتج، فهل يمكن أن ينصف خيال الفنان بهذا، وهو الخيال الإيجابي المنظم المنتج؟!

وحتى لا نظلم الحقيقة كثيراً ينبغي أن نميز بين الخيال المريض والخيال المبدع، فهذا وذاك قد يشتركان في جوانب عدة، لكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً، واضحاً وبيناً، كما أن الخيال وحده لا يمكن أن يعطي التفسير الكامل للفن، فالفن في المقام الأول هو إبداع وصناعة، وإنتاج ومهارة، وتنظيم لتلك الخيالات والأحلام، فكم في حياتنا هذه من أناس يغلب عنصر الخيال والأحلام على حياتهم، بل يحملون عواطف قوية وأحاسيس جياشة، ولكنهم أبعد ما يكونون عن دائرة الفن وعن محيطه.

- إن هناك كثيراً من المبدعين الذين أغنوا الفن والإبداع بإنتاجهم لم يكونوا يعانون أصلا من مرض نفسي أو عقلي، بل عاشوا حياة طبيعية ربما غلب عليها



فان جوخ

عنصر السعادة والطمأنينة، وكان منهم الطبيب والقائد والمدير والمهندس والدبلوماسي والقانوني، ذلك الذي يملك ناصية الحجة والإقناع والهدوء وعدم الانفعال، ولعلنا لو بدأنا نستشهد بطائفة من هذه النماذج لضاق المكان عن العد والحصر على المستوى العالمي أو المستوى العربي والإسلامي على السواء.

ثم ماذا بعد؟

الآن - بعد أن استعرضنا آراء المدرستين، والمسالك التي سلكتها كل مدرسة لتأييد وجهة نظرها.. يبقى السؤال: أين الصواب في خضم هذا الشتات؟ وهل يمكن إيجاد نقاط للتواصل والوصول إلى قدر من الاتفاق من خلال تحليل أكثر عمقاً، وفهم أكثر إدراكاً لطبيعة العملية الفنية والإنتاج الإبداعي، ويبدو أن الوصول إلى مثل هذا الاتفاق أمر ليس بمتعذر، مع التسليم بأن فهم جوهر العملية الفنية والإبداعية وتعرف القانون الذي يحكم تلك الظاهرة المعقدة، هو أمر صعب وشائك، إن لم يكن مستحيلاً، ولذلك - وحتى نكون أكثر موضوعية - سينصب الهدف هنا على تحليل بعض النقاط التي تمثل أخطاء وردت في تفكير المدرستين، ربما يعمل هذا التحليل على إيجاد أرضية صالحة للنقاش فيما بعد، وهذه النقاط هي:

- الجوانب اللاشعورية التي ركز عليها كثير من الفنانين، عند الحديث عن إنتاجهم الفني، هي وحدها غير كافية لتفسير العمل الفني، ذلك أننا نجد عند استعراضنا لحياة الغالبية العظمى من الفنانين، كما يرى الدكتور زكريا إبراهيم، أنها حياة عامرة بالبحث والدراسة والتحصيل الطويل والتفكير الشاق(٢٢).

- الخيال والذاكرة والذكاء ليست عوامل يمكن أن تولد العمل الفني، مهما بلغت شدتها وقوتها، وإلا لأصبح كل صاحب خيال خصب، وذاكرة قوية، وذكاء لامع، فناناً، والواقع يقول غير ذلك، وإن كنا نعترف بأن هذه الأشياء الثلاثة هي مقومات للعمل الفني لا يستقيم من دونها، ولكنها ليست شرطاً لازماً لوجوده.

- ليس هناك وحي ينزل على الفنان أو شيطان يمتطيه - كما توهم بعضهم - ولكن هناك فكرة ملحة تجثم على صدر الفنان وتلح عليه بالتحقيق مما يضطره إلى التنفيذ، ويشعره بأنه واقع تحت ضغط قوة عليا، ورغبة قاهرة ليس من مخرج منها إلا بالاستجابة إليها، ولذلك يأتي العمل

الفني في أحيان كثيرة كأنه لا يشبه الفنان، ولا يماثل سلوكه وواقعه، والحقيقة القائلة بأن الفنان يريد أن يحقق نفسه من خلال عمله الفني، تبدو الآن كأنها معكوسة تمامًا، إذ إن العمل الفني هو الذي يريد أن يحقق نفسه من خلال الفنان كما يذهب إلى ذلك بعض العلماء(٢٣).

- الانحراف النفسي والاضطراب الذي يعانيه الفنان ليسا علة مسؤولة عن إبداعه الفني، وإنما هما نتيجة لهذا الإبداع، وهذا يقترب مما ذهب إليه يونج في تفسيره للعمل الفني، فالاضطراب والمعاناة النفسية لا يمكن أن يولدا عملا فنيًا، ولكن العمل الفني بما يحمله من ذلك الهوى العنيف للإبداع قد يؤدي إلى قهر كثير من الرغبات الشخصية وكبتها، وبما يحمله من خيال جامح قد يؤدي إلى نقص السعادة والرضا والطمأنينة؛ وهذا كله يجعل الفنان عرضة - فعلاً - للانحراف والشذوذ النفسي؛ ذلك أن القدرة الإبداعية - كما يرى زكريا بشير - تؤدي إلى تركيز الطاقة الحيوية للفنان في اتجاه معين، مما يترتب عليه حدوث فراغ في جانب آخر من جوانب حياته، هذا الفراغ غير الموجه سيكون تربة خصبة لنماء كثير من الخصال السيئة، وكثير من نواحي الاضطراب والقصور، ولذلك فما ينبغي تكراره وتأكيده كثيرا هو أن المرض النفسي لا يولد الإبداع، وإنما العكس هو الصحيح، فالإبداع هو الذي يفجر في كثير من الأحيان بعض مظاهر المرض النفسي والاضطراب العقلي والانحراف السلوكي؛ فهذه المظاهر هي نواتج، وليست أسبابًا للإبداع.

- التشديد على أن الفنان شخص غير مريض، ويجب ألا يكون كذلك، ودفاع البعض في هذا الجانب، وهو دفاع هش ولا يخدم قضية التحليل العلمي السليم في شيء، بل يشوش كثيرا، وهو في الغالب

القدرة الإبداعية تؤدي إلى تركيز الطاقة الحيوية للفنان في اتجاه معين، مما يترتب عليه حدوث فراغ في جانب آخر من جوانب حياته

صادر عن أناس يحسبون أنهم يدافعون عن الفن، وينطلقون من افتراض خاطئ فحواه أن الفنان ينبغي أن يكون سليمًا حتى يخرج عملاً فنيًا سليمًا، وهو الافتراض الذي يرفضه أهل الفن أنفسهم، بل ويرفضه واقعهم الذي يعيشونه، السؤال المطروح هو: هل الفنان يعاني أم لا يعاني؟ هو سؤال ينبغي أن يتحول الآن إلى: لماذا يعاني الفنان؟ وهل يمكن فهم طبيعة هذه المعاناة.. وهل يمكن تخفيفها؟ وهل سيؤدي هذا التخفيف إلى خفض القدرة الفنية فعلاً لديهم كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء والمحللين؟

- عندما نقترب بالفن من دائرة العصاب، وعندما نجعل حالة الاضطراب حالة ملازمة أو شبه ملازمة لحالة الإبداع، فإننا لا نريد بذلك أن ننقص من قدر الفنان، أو نحط من قيمة إبداعه الفني، وإنما نريد أن نضع الناس على الطريق الصحيح لتحليل العمل الفني استنادًا إلى مظاهر الكبت الموجودة لدى الفنان.

- وأخيرًا، ينبغي أن نعلم أن الوصول إلى تحليل وفهم متعمقين لجوهر العملية الفنية أمر صعب، إن لم يكن متعذرا ومستحيلاً، ولذلك سيكون اجتهاد العلماء منصبًا - كما كان منصبًا في الماضي - حول وصف بعض مظاهر عملية الإبداع، ذلك أن عملية الفن هي بمنزلة نشاط نوعي خاص، وأن كل فنان هو حالة خاصة وقائمة بذاتها، ينبغي، إن أردنا أن نفهمها أو نفهم الخبرة النفسية التي ولدت ذلك العمل الإبداعي، أن نرتد إلى أصول تلك الخبرة ونفهمها، وهذا مما يزيد الأمر صعوبة وتعقيدًا.

المراجع

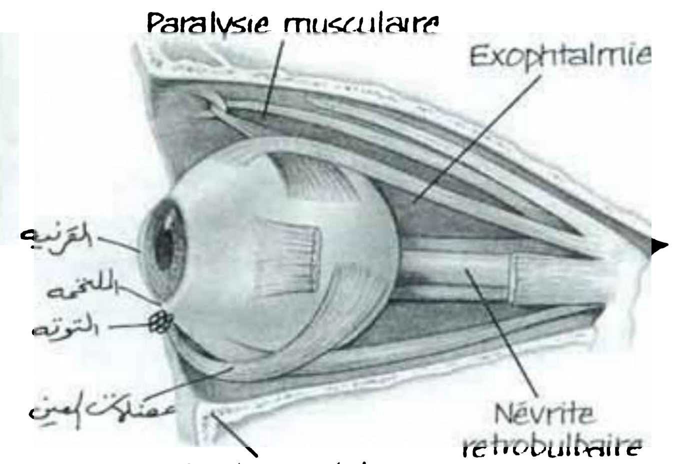
١. يوسف ميخائيل أسعد. العبقرية والجنون.. مكتبة غريب. الطبعة الاولى ص٣٤.
٢. شاكر عبدالحميد. المرض العقلي والإبداع الأدبي. مجلة عالم الفكر. مجلة دورية تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت. المجلد الثاني عشر. العدد الأول أبريل/نيسان ١٩٨٧. ص٨٢.
٣. يوسف ميخائيل. العبقرية والجنون. سبق ذكره ص٨١.
٤. مصطفى يوسف. العبقرية في الفن. المكتبة الثقافية. القاهرة ١٩٧٣م. ص١٢.
٥. شاكر عبدالحميد. عالم الفكر. سبق ذكره ص٤٩.
٦. يوسف ميخائيل. سبق ذكره ص٧.
٧. عز الدين إسماعيل. التفسير النفسي للأدب. دار العودة. بيروت طبعة ١٩٦٢م. ص١٥. ١٦.
٨. ميخائيل أسعد. سبق ذكره ص١٣٦.
٩. عز الدين إسماعيل. سبق ذكره ص٤١.
١٠. يوسف ميخائيل. سبق ذكره ص٣٨.
١١. عز الدين إسماعيل. ص٤٨.
١٢. المرجع السابق. ص٢٨.
١٣. يوسف أسعد. ص٨١.
١٤. شاكر عبدالحميد. سبق ذكره ص٥٢.
١٥. عز الدين إسماعيل. سبق ذكره ص٧.
١٦. شاكر عبدالحميد. ص٥٤.
١٧. المرجع السابق. ص٥٢.
١٨. زكريا ابراهيم. مشكلة الفن. مكتبة مصر. الفجالة ص٥٤.
١٩. شاكر عبدالحميد. ص٥٤.
٢٠. المرجع السابق. ص٨٢.
٢١. المرجع السابق. ص٨٧.
٢٢. زكريا ابراهيم. سبق ذكره ص ٥٤.
٢٣. المرجع السابق. ص١٤١.

التوتة في كتب الكحل

مؤنس محمود غانم
دمشق - سورية

يعرف القاصي والداني مدى التقدم العلمي الذي كان قد وصل إليه أجدادنا العرب، إذ تركوا بصماتهم على مسيرة الإنسانية، ذلك أن ديننا الحنيف، قد اهتم بإعداد الإنسان بدنيًا، كما اهتم بإعداده روحيًا، فالعقل السليم في الجسم السليم. وفي الحديث النبوي الشريف «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان». وعلم الطب من أهم العلوم التي برعوا فيها، أما فرع الطب الذي نبغ وبرع فيه هؤلاء الأفذاذ، فهو طب العيون، وكان تميزهم فيه كبيرًا، لدرجة أنه ما إن يذكر الطب عند العرب حتى يتبادر إلى الأذهان طب العيون. وكان المشتغلون بهذه الصناعة يطلق عليهم الكحالون.

ومن ينظر إلى التراث العلمي يمكن أن يستدل على الدرجة العالية التي وصلوا إليها في هذا المجال؛ وذلك حين نجري موازنة بين ما كتبه أجدادنا الأوائل وما ندرسه اليوم في كليات الطب. وقد اخترنا من الموضوعات المتعددة موضوعًا هو التوتة أو ما نطلق عليه في لغة الطب اليوم (الورم الحليمي) PAPILLOMA. سوف نذكر في البداية ما يقال عن التوتة في كتب الطب اليوم، ثم نورد ما قيل عنها قبل نحو ألف سنة، ونوازن بين القولين، ويمكن الحكم مسبقًا أن هناك تشابهًا كبيرًا بينهما.



وربما تجدون في هذه الموازنة بعض الإجحاف لذلك الرعيل الأول الذي قدم للحضارة الإنسانية تراثًا مهمًا دفع بمسيرة العلم أشواطًا كثيرة، ولم يكن لديه من الإمكانات ما هو متاح في عصرنا الحالي الذي تعددت فيه وسائل البحث العلمي اعتمادًا على المعرفة الجديدة للعلوم الأساسية من تشريح وعلم وظائف الأعضاء (فسيولوجيا) بعد استعمال المجاهر وغيرها من أجهزة في البحث العلمي.. ولكن، مع ذلك، يبدو التقارب الكبير بين أسلوب عرض المادة العلمية في ذلك الوقت وبين أيامنا هذه من جهة، وكذلك التقارب الواضح بين دقة الأفكار العلمية في وقتنا هذا والوقت الذي كتبوا فيه عن موضوعنا من جهة أخرى.

التوتة في كتب الطب المعاصر

التوتة نسيج رخو مفصص يتكون من حليمات صغيرة تشبه حبة التوت يصيب الملتحمة العينية (وهي عبارة عن غشاء شفاف يغطي بياض العين وباطن الجفنين). الورم الحليمي من الأورام السليمة الناكسة يأخذ شكلاً منبسطًا أو معنقًا كالثؤلول، والآلية الإمراضية فيه فيروسية على الأغلب. وهو يمتاز من غيره من الأورام في أن كل حليمة فيه تتمركز حول وعاء خاص يغذيها. أما المعالجة فهي جراحية بالاستئصال التام للورم. وفي حال حدوث النكس فإننا نلجأ إلى المعالجة بالتبريد، أي إننا نطبق مسبارًا

على مكان الورم، في درجة حرارة تبلغ نحو ستين تحت الصفر (- ٦٠)، فيحدث تجميد للمحاور الوعائية التي تتمركز الحليمات حول كل منها. هذا ما جاء في كتب الطب اليوم حول (التوتة).

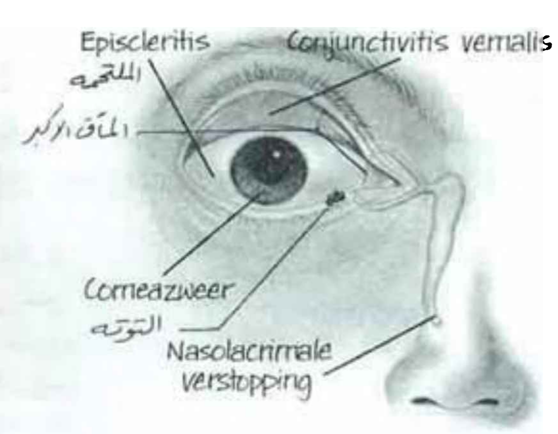
التوتة في كتاب الكحل

يقول علي بن عيسى (- ٤٣٠هـ)(١) وهو من أول أعلام أطباء العيون في القرن الخامس الهجري.. في كتابه «تذكرة الكحالين» المحفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق: «أما التوتة فإنها لحم رخو أحمر ليس بالقاني الحمرة. ويخرج من المآق الأكبر، وتمتد معها عروق من المآق إليها كمثال الظفرة.. وأما سببها فدم فاسد رديء محتقن في هذا الموضع.. العلاج: ينبغي أولاً أن يستفرغ البدن من القيفال وأن يشرب الدواء دفعات عدة، فإن هذا المرض من الأمراض التي من شأنها أن تعاود كثيراً.. ثم حينئذ علقها بصنارة برفق؛ لأنها رخوة، وربما أفلتت الصنارة في وقت العلاج فتمنعك عن إرادتك.. وأدخل المهت تحت العروق الممتدة من المآق، واسلخها كما تسلخ الظفرة واقطعها بالمقراض.. وتفقد إن كان قد بقي منها شيء فعلقه بالصنارة واستأصله.. وقطر في العين ماء الملح والكمون المضوغ المصفى دفعات عدة.. وشد على العين صفرة بيض بغير دهن ورد، ثم عالجها بعلاج السبل والظفرة فإنها تبرأ إن شاء الله».

نلاحظ أن عيسى الكحال قد دخل في البحث بالتعريف، ثم يذكر الأسباب، ثم العلاج الذي يقوم أولاً على استفراغ البدن من القيفال أي فصد الدم من الوريد الصدغي؛ لأنه يعتقد أن السبب هو احتقان ناجم عن احتباس الدم في موضع الورم.. وهذا قد لا نتفق معه فيه؛ ولكن مع هذا يبقى ذلك إحدى الآليات الإمراضية للورم الذي نتهم الفيروسات(٢) بأنها العامل الممرض.. أما المعالجة الجراحية فهي بالفعل رفيعة المستوى.. ونحن نطبق الأسلوب الجراحي نفسه في أيامنا هذه.. إذ إننا نمسك به جيداً بملقط، والمسك الجيد قد يكون صعباً، لأن طبيعة الورم المؤلفة من حليمات صغيرة تشبه حبة التوت قد لا تتركنا نحافظ عليه ككتلة واحدة عندما نمسكه، وقد يفلت منا.. وهذا ما عبر عنه بالضبط علي بن عيسى.. وبعد ذلك ندخل قطعة معدنية متطاولة تحت الورم ونسلخه عن مجاوراته من الأنسجة السليمة.. وهذه القطعة دعاها (المهت) واسمها اليوم سباتيلا SPATULA.

بقي موضوع المعالجة الدوائية بعد العمل الجراحي، وهو يقوم على تقطير ماء الملح، وهذا مثل المصل الملحي (السيروم الفسيولوجي) في يومنا هذا، والذي يفيد هنا في سحب الوذمة الناجمة عن الجراحة بسبب تركيز درجة الملوحة فيه.

أما فوائد الكمون الطبية فلعل أهمها خاصيته المضادة للتشنج، وكذلك فإن له قوة مسخنة قابضة مجففة.



ابن سينا ورأي في التوتة

أما الشيخ الرئيس ابن سينا (الحسين بن عبدالله ٣٧٠هـ-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م)(٣) الذي يلقب بأرسطو الإسلام وأبقراطه فيورد ما يلي عن التوتة في كتابه الموسوعي «القانون في الطب»: «التوتة هي لحم رخو يحدث في باطن الجفن، فلا يزال يسيل منه دم أحمر وأسود وأخضر وعلاجها التنقية بالمجففات الأكالة(٤)، والشيافات الحارة، فإذا أكلت التوتة، استعمل حينئذ الذرورات والشيافات التي تنبت اللحم فيما يقال في قروح الأجفان».

لم يذكر الشيخ الرئيس أي شيء عن المعالجة الجراحية للتوتة، وإنما اكتفى بالمعالجة الدوائية.. ولعله من خلال تجربته الطويلة في مجال الطب رأى تطبيق الشيافات الحارة لكون الطبيعة الورمية للتوتة رخوة ونازفة..

والشياف هي كلمة معربة معناها: مركب دوائي تعني طري لين.. وهي ما ندعوه اليوم (القطرات - Collyre SEC).

الغافقي وكتابه «المرشد في الكحل»

نورد فيما يلي ما ورد عن التوتة في كتاب «المرشد في الكحل» الذي كتبه محمد بن قسوم بن أسلم الغافقي (ت: ٥٦٠هـ) وهو من أعلام القرن السادس الهجري وعاش في قرطبة بالأندلس. «أما التوتة فنوع واحد، وهي ورم جاسي، وعلامتها أنها كشكل التوتة، وهي لحم أحمر رخو.. متعلق يضرب إلى السواد وأكثر ما يعرض في الجفن الأسفل. وقد يعرض للجفن الأعلى في ظاهره وباطنه، وربما انبعث منها دم، وربما لم ينبعث.. وأما سببها فإنها تتولد من دم محترق فاسد رديء».

وعلاج ذلك: ينبغي أن نستفرغ بالدواء والفصد دفعات عدة، لتنقي البدن؛ لأنه مرض يعاود كثيراً.. فإذا نقيت البدن، وأضعفت المادة.. حينئذ علقها بصنارة واقطعها بالمغماذين أو بالمقراض، واستأصلها، فإن كنت على ثقة أنك نظفتها فقطر في الموضع ماء الملح والكمون، وتضع على العين صفرة البيض دون دهن الورد.. وإذا لم يمكن أن تستأصلها فمد الجفن إليك واحش العين بعجين أو بقطن لين لئلا يصيب العين الدواء.. وامسح من الدواء الحاد عن بقايا التوتة، ودعه ساعتين إلى أن يسود الموضع، وامسحه.. وإن احتجت إليه فافعل.. فإذا اسود فامسح الموضع ونظفه.. واغسل العين باللبن دفعات لئلا يحمى. وإن أردت أن تنقيها بالدواء بلا حديد فدبرها بهذا التدبير.. وكن منه على حذر لأن الحديد أسلم عاقبة.. وتداوي العين بعد ذلك وخاصة الموضع نفسه بالشياف الأخضر.. ويكون علاجك به كأنك تحك بالميل نفس الموضع فإنه نافع إن شاء الله».

نلاحظ مما مر أن الغافقي يركز على العلاج الدوائي للتوتة بعد الاستئصال الجراحي وذلك حتى لا يحدث النكس.

ابن النفيس ومفتاح الشفاء

أما ابن النفيس (علي بن أبي الحزم القرشي - ٦٨٧هـ/١٢٨٨م)(٥) وهو من أعلام القرن السابع الهجري، والمعروف أنه المكتشف الحقيقي للدورة الدموية الصغرى، وليس وليم هارفي.. فيقول في كتابه الشهير «مفتاح الشفاء» المحفوظ في المكتبة الظاهرية: «التوتة لحم رخو أحمر ليس بقاني الحمرة، من ناحية المآق الأكبر، ويمتد من المآق عرق إليها كمثل الظفرة، إلا أن التوتة لا تكون منبسطة.. الأسباب: يكون بذلك من دم فاسد يحتقن في ذلك الموضع.. الأعراض والعلامات: ثقل العين وحمرتها.. وبطء حركتها فظهور شيء شبيه بالتوتة.

المداواة: استفرغ البدن بالفصد إن أمكن.. وشرب الأدوية إن دعت الحاجة.. وهذا المرض من الأمراض التي تعاود بعد القطع.. ثم تعمد فتعلقها بصنانير، وأدخل المهت تحت العروق من المآق، واكشطها كما تعمل بالظفرة، واقطعها بحيث لا يبقى منها شيء أصلاً.. فإن بقي شيء منها بعد القطع فسبيلك أن تأخذ.. وقطر في العين الملح والكمون ممضوغين، وعالجها بعلاج السبل بعد انقطاع الأسباب».

نلاحظ من خلال وصف ابن النفيس للتوتة أن عرض المادة العلمية قد تطور بالمقابلة مع العصور السابقة له، فهو يبدأ بالتعريف، ثم بذكر الأسباب، فالأعراض والعلامات، وأخيراً المعالجة.. وهذا يطابق ما درسناه في أيامنا هذه.. وكذلك فإن ابن النفيس يربط المعالجة الدوائية للتوتة بطريقة معالجة السبل (وهو عبارة عن عروق دموية دقيقة تصيب قرنية العين وندعوها بلغة اليوم PANNUS)، وهو بذلك يريد القول: إن سببها وعائي المنشأ.

مما سبق نلاحظ تطور عرض المادة العلمية خلال العصور المختلفة للأطباء المذكورين، وذلك على مستوى وضوح الفكرة وأسلوب الوصف للمادة العلمية.. ومع ذلك فإننا نلاحظ أيضاً تكرار خطة المعالجة وتطابقها تقريباً، وربما يرجع السبب إلى استعانة الأطباء بالمصادر نفسها لمن سبقهم زمنياً.

وقد أردنا من خلال هذا الاستعراض تبيان مدى التقدم الذي وصل إليه الكحالون (أطباء العيون) العرب في تلك الفترة من خلال بحث (التوتة).. وقد رأينا أن الأمر لا يختلف كثيراً بين نظرتهم إلى الموضوع ونظرتنا إليه في أيامنا هذه.. وقد حاولنا أن نكون في حكمنا هذا موضوعيين أكثر منا عاطفيين.. لا كما يقول الشاعر..

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

الهوامش

١. علي بن عيسى: من أعلام القرن العاشر الميلادي يقال له عيسى الكحال. وقد اشتهر بصناعة الكحل في بغداد. ألف كتابه الشهير (تذكرة الكحالين) وقد نقل إلى الديبنية سنة ١٨٤٥م.

٢. الفيروسات: تعريبها (الحمات الراشحة) وهي عناصر مرضية صغيرة الأبعاد جداً، أصغر من الجراثيم لا ترى بالمجهر الضوئي. تدخل الخلية الحية وتسيطر على تفاعلاتها الحيوية لمصلحتها. وتهاجم ... كثيرة.

٣. ابن سينا: ولد في أفشنة سنة ٩٨٠ للميلاد قرب بخارى. وتوفي في همذان سنة ١٠٣٧م وهو من كبار الفلاسفة والأطباء العرب. ومن أئمة مفكريهم. له مؤلفات عدة أهمها: «القانون في الطب». وله أيضاً «الشفاء في الفلسفة».

٤. المحللات الأكالة: أدوية يبلغ من تحليلها وتفريجها إلى أن ينقص من جوهر اللحم. وأهمها الزنجار (أوكسيد النحاس) وهو قابض محرق.

٥. ابن النفيس الدمشقي ١٢١٠ - ١٢٨٨ للميلاد كان رئيس أطباء مصر، من أهم كتبه «مفتاح الشفاء» و«المهذب في الكحل المجرب».

العلاقات بين الإنس والجن في تراثنا الأدبي

محمد مغربي مكي
قنا - مصر

ما من شك في أن «الجن» - بما تعلق بهم من معتقدات، ودار حولهم من حكايات - مادة ثمينة من مواد الأدب الخاص، ومحور أساسي من محاور الأدب الشعبي، فقلما يخلو كتاب من فرائد التراث العربي من معالجة لهذا الموضوع، كما أنه قلما تخلو أسطورة أو خرافة أو حكاية شعبية، من «جن» يؤدون فيها دورا - أو أدوارا - بالغة الأهمية.

ولسنا نزعم أننا - في مثل هذه المقالة الموجزة - قادرون على استيفاء القول في «الجن»؛ فالموضوع كبير متشعب المذاهب، ولكننا نزمع إيضاح جانب من جوانبه المتعددة، يتمثل في استعراض الصور المختلفة لتلك العلاقات بين الإنس والجن، التي آمن الوجدان الشعبي العربي إيمانا عميقا بأنها حقيقة واقعة.

نهايات ثلاث

لعل أهم ما نلاحظه - بادئ ذي بدء - ذلك الصراع العنيف الذي يحكم تلك العلاقات، ويشكل ملمحا أساسيا في كل صورة من صورها وأشكالها، وهو صراع يتمخض حتما عن إحدى نهايات ثلاث، تتناسق على الرغم من اختلافها:

تمثل الأولى قهر الجني لابن آدم.

وتصور الثانية ندية الصراع وتكافؤ النتيجة.

وتؤكد الثالثة إمكان تفوق ابن آدم، وانتصاره على الجني.

والحقيقة أن هذه النهايات الثلاث - وإن تباينت - تعبير مباشر وصادق، عن تلك الحالات النفسية التي يتعرض لها الإنسان وهو يتعامل مع كائنات خفية خارقة القدرات، فالنهاية الأولى نتيجة منطقية لصراع غير متكافئ، وتصوير لعجز الإنسان وقصوره في مواجهة الغيبي والمجهول، بينما تعبر النهاية الثانية عما يتميز به الإنسان من إرادة يتحدى بها عجزه، فيثبت ذاته، ويؤكد وجوده، وتأتي النهاية الثالثة لتجسد كرامة الإنسان، واستحقاقه للخلافة في الأرض، وجدارته بأن يكون سيد الكائنات في هذا الوجود.

وفي ما يلي سطور، نوضح فيها بالأمثلة ما ذهبنا إليه، ونفصل القول فيما أجملناه.

قهر ابن آدم

وتتمثل هذه النهاية قهر الجن لابن آدم في الصور التالية:

- أن تقتل الجن أفرادا من البشر، لأسباب مختلفة من حالة إلى أخرى، فلقد زعموا أن الجن قاموا بخنق سعد بن عبادة رضي الله عنه في مغتسله، واعترفوا بذلك في شعر قالوا فيه:

«قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده»(١).

وقتلت حرب بن أمية وقالت:

وقبر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبر(٢)

وقتلت «الغريض» المغني، بعد أن تغنى بصوت كانت الجن قد نهته عن التغني به(٣).

- أن تستهوي الجن أفرادا من البشر، وتذهب بهم:

فقد أضلت «الجن» سنان بن أبي حارثة ليستفحلوه طالبين كرم نجله، فمات فيهم(٤)، واستهووا طالب بن أبي طالب، فلم يرجع(٥).

- أن تستهوي الجن أفرادا من البشر، ثم تعفو عنهم، وتعيدهم سالمين، كما فعلت بـ «عمرو بن عدي اللخمي»، فقد استطارته الجن فاستهوته، ثم ردته بعد سنين(٦).

وبـ «خرافة العذري»: الذي اختطفته الجن ثم تركته، فرجع إلى قومه، وصار

يحدثهم بأحاديث مما رأى، يعجب منها الناس(٧).

وبـ «الرجل المفقود»: الذي سأله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن طعام الجن وشرابهم(٨).

- أن يفرض الجني أو الجنية قيام علاقة جنسية قسرية، مع إنسية أو إنسي: وهي الحالة التي فسرت على أساسها، حالات الصرع بين المصروعين(٩).

ندية وتكافؤ

وتتمثل النهاية الثانية: ندية الصراع وتكافؤ النتيجة في الصور التالية:

- أن يقتتل كل من الجني والإنسي الآخر، في معركة واحدة؛ كما حدث لـ «علقمة بن صفوان» عندما التقى بالشق (وهو صنف من الجن على شكل نصف إنسان) فتهارشا، وتصاعد بينهما التحدي في منافرة شعرية رائعة، انتهت بأن اختلفا ضربتين، فماتا جميعا(١٠).

- أن تقوم بين الجن والإنس علائق من مصاهرة ونسب، فقد يعشق الجني جارية إنسية، ويخطبها إلى أهلها، فيزوجوه، كما أنه قد تعشق الجنية آدميا، وتطلب منه أن يتزوجها(١١).

- أن تحتكم الجن إلى البشر، وترضى بالحكومة البشرية، يروى «الشبلي» في «آكام المرجان» أن الجن والإنس قد اختصموا إلى محمد بن علاثة القاضي، في بئر بالمدائن، فحكم للإنس أن يستقوا منها من طلوع الشمس إلى الغروب، وللجن أن يستقوا منها من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فرضوا بحكمه، فكان إذا استقى منها أحد بعد غروب الشمس، رجم بالحجارة(١٢).

- أن تأخذ العلاقة المتكافئة شكلا من أشكال التعاون، والخدمات المتبادلة: فقد روي أن عبيد بن الأبرص، وجد في أسفاره شجاعا يتمعك في الرمل لاهثا من شدة الحر، يكاد يموت ظمأ (والشجاع: ثعبان يتخذ الجني صورته)، فلم يقتله كما أشار أصحابه، ولكنه سقاه.

ثم كان أن ضل عبيد وأصحابه الطريق في تلك السفرة، وأشرفوا على الهلاك، وكانت الفرصة المناسبة لرد الجميل بأحسن منه، يهتف الجني بـ «عبيد»، ويقدم له بكرا يركبه فيرشده إلى قومه بعد إذ أيقن الموت. وقد كان مما هتف به الجني أنه ارتجز قائلا:

يا أيها الشخص المضل مركبه
دونك هذا البكر منا تركبه
وبكرك الآخر أيضا فاجنبه
حتى إذ الليل تجلى غيهبه
فخل عنه رحله.. وسيبه

فيقول «عبيد» يا هذا المخاطب! نشدتك الله إلا أخبرتني من أنت! فيقول الجني:

أنا الشجاع الذي ألفيته رمضا
في رملة ذات دكداك وأعقاد
فجدت بالماء لما ضن حامله
جودا علي ولم تهمم بإنكاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد(١٣)

انتصار ابن آدم

- أما النهاية الثالثة: والتي تسجل انتصار ابن آدم على الجني فإننا نراها واضحة في الصور التالية:

- أن يقتل الإنسي الشجاع جنيا في صراع مباشر، فلقد وصف «أبو البلاد الطهوي» (وفي بعض المصادر أنه «تأبط شرا») وصف كيف قتل «الغول»، وقد اعترضت طريقه في ظلام الصحراء، قال:

رأيت الغول تسري في ظلام
بسهب كالعباية صحصحان
فقلت لها: كلانا نقض أرض
أخو سفر.. فصدي عن مكاني
فصدت.. فانتحيت لها بعضب
حسام.. غير مؤتشب.. يماني
فقد سراتها.. والبرك منها
فخرت لليدين.. وللجران
فقالت: زد! فقلت: رويد إني
على أمثالها.. ثبت الجنان
شددت عقالها.. وحططت عنها
لأنظر مصبحا.. ماذا دهاني
إذا عينان في وجه قبيح
كوجه الهر.. مشقوق اللسان
وساقا مخدج.. وشواة كلب
وجلد من فراء.. أو شنان(١٤)

- أن ينزل الجن ضيوفا على بني البشر، ويجالسوهم، ويتحدثوا معهم.

وقد روى مثل ذلك «سمير بن الحارث» في شعر له: فقال:

أتوا ناري فقلت: منون؟ قالوا:
سراة الجن. قلت: عموا ظلاما
وقربت الطعام فقال منهم
زعيم: نحسد الإنس الطعاما(١٥)

ونلحظ هنا، أنه إذا كانت الصورة الأولى تعبيرا عن انتصار مباشر في ميدان قتال، فإن في هذه الأخرى تعبيرا عن انتصار معنوي آخر، في ميدان الكرم وحسن الضيافة، لا يقل أهمية وقيمة عن سابقه.

- أن يفرض الإنسي قيام علاقة زوجية على جنية أعجبته. ولقد فعل ذلك عمرو بن يربوع، الذي تزوج «السعلاة»، وأقامت معه حتى استولدها في «بني تميم»، ثم كان أن رأت برقا يلمع من شق بلاد السعالي، فحنت وطارت إليهم(١٦).

وكذلك فعل الحكم بن عمرو البهراني، الذي تزوج «الغول»، وروى قصة زواجه بها، في قصيدته المطولة التي نظمها في «غرائب الخلق». فيذكر أنه أمهر عرسه غزالا وزق خمر، ويذكر أنها سليلة غيلان كرام

موسرين، أورثوها إقطاعا بأرض «وبار»، وأنها ولدت له تسعة من البنين غلبت فيهم صفات الجن على صفات الإنس، فكانوا بأمهم أشبه منهم بأبيهم، قال:

وتزوجتُ في الشبيبة.. غولا
بغزال.. وصدقتي زق خمر
بنت عمرو.. وخالها مسحل الخيـ
ـر.. وخالي هميم صاحب عمرو
ولهـا خطة.. بأرض وبار
مسحوها فكان لي نصف شطر
وضعت تسعة وكانت نزورا
من نساء في أهلها.. غير نزر
غلبتني على النجابة عرسي
بعد أن طال في النجابة ذكري
وأرى فيهم.. شمائل إنس
غير أن النجار.. صورة عفر(١٧)

- أن يصير الجني في خدمة الإنسي الذي يملك قدرات خاصة، أو مواهب معينة، فأما أصحاب القدرات الخاصة: فذلك الحشد الكبير من الكهان والعرافين، والسحرة والمخدومين، ممن كان لكل منهم تابع من الجن يخدمه، أو قرين يلازمه، أو رئي يشير عليه ويخبره، وأخبار هؤلاء كثيرة مبسوطة في عدد من كتب التراث الأدبي.

امتلك العربي البسيط خيالاً محلقًا فأبدع عالمًا من التصورات يفوق عالم الواقع روعة

وأما ذوو المواهب: فلعل أبرزهم الشعراء، الذين كان لكل منهم شيطان يحرك مشاعره، ويوحي إليه بما يقول.

ولولا أن ينمو هذا البحث نموًا غير محدود أو محمود، لبسطنا القول في أولئك وفي هؤلاء، ولكننا نجتزئ ببعض ما يشير إلى وجود تلك العلاقة بين الجن والشعراء:

قال «أبو النجم» الراجز:

إني.. وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما رآني شاعر.. إلا استتر
فعل نجوم الليل عاين القمر(١٨)

وقال آخر:

إني.. وإن كنت صغيراً سني
وكان في العين.. نبوٌ عني
فإن شيطاني..أمير الجن
يذهب بي في الشعر كل فن
حتى يزيل عني التظني(١٩)

وقال «حسان بن ثابت» وهو صغير:

إذا ما ترعرع فينا الغلام
فليس يقال له من هوهْ
إذا لم يسد قبل شد الإزار
فذلك فينا الذي لا هوهْ
ولي صاحب من بني الشيصبان
فطورا أقول وطورا هوهْ(٢٠)

«وبنو الشيصبان»: قبيل من قبائل الجن.

ونستطيع بعد هذا العرض البالغ الإيجاز، لصور العلاقة بين الإنس والجن، كما رسمها الوجدان الشعبي العربي، نستطيع إدراك مدى ما كان يتمتع به العربي البسيط من خيال محلق، وتصور خلاق، مكنه من خلق عالم من التصورات، يفوق في روعته عالم الواقع، كما مكنه من أن يبدع أدبًا خالدًا لا تبلى جدته، ولا يذهب رونقه على مر العصور.

المراجع والهوامش

١. الدميري: حياة الحيوان الكبرى ١:٢٠٦، دار الفكر - بيروت (د.ت).
٢. المسعودي: مروج الذهب ومعدن الجوهر ١:٤٧٠، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد - القاهرة ١٩٥٨م.
٣. الأصفهاني: الأغاني ٢:٨١٩، تحقيق إبراهيم الإبياري - ط دار الشعب - مصر.
٤. الميداني: مجمع الأمثال ١: ٤٢٥ - ٤٢٦ (المثل: أضل من سنان)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد - دار المعرفة بيروت (د.ت).
٥. الجاحظ: كتاب الحيوان ٦:٢٠٩، تحقيق عبدالسلام هارون - البابي الحلبي - القاهرة، ط٢ ١٩٦٥م.
٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١:٦١٦، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر، ط٤ ١٩٧٩م.
٧. ابن منظور: لسان العرب (مادة: خرف)، تحقيق: عبدالله الكبير وآخرين، دار المعارف بمصر (د.ت).
٨. الجاحظ: كتاب الحيوان ١:٣٠١.
٩. الشبلي: آكام المرجان في أحكام الجان ١٠٦، دار المعرفة - بيروت (د.ت).
١٠. المسعودي: مروج الذهب ١: ٤٦٩ - ٤٧٠.
١١. الشبلي: آكام المرجان ٦٩
١٢. المصدر السابق ٨٨.
١٣. القرشي: جمهرة أشعار العرب ٥٨ - ٥٩ (بتصرف)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر - القاهرة.
١٤. الجاحظ: كتاب الحيوان ٦: ٢٣٤.
١٥. البغدادي: خزانة الأدب ٦:١٧٠، تحقيق/ عبدالسلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٩م.
١٦. الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢: ٣٤٠ - ٣٤١، شرح: محمد بهجة الأثري - دار الكتب العلمية، بيروت ط٢ (د.ت).
١٧. الجاحظ: كتاب الحيوان ٦:٨٠ - ٨٤، ١٤٧ (وما بعدها).
١٨. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٦٠٧، تحقيق أحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر، ط٢ ١٩٧٧م.
١٩. ابن جني: الخصائص ١:٢١٧، تحقيق: محمد علي النجار، ط٢ (د.ت).
٢٠. ديوان حسان بن ثابت ٣٩٧، تحقيق: سيد حنفي حسنين - دار المعارف بمصر ١٩٨٣م.

كيف نحافظ على لغتنا العربية الفصحى؟

ظهور أحمد أظهر
لاهور - باكستان

هذا سؤال قد أقلقني كثيراً وأرقني طويلاً، ومضيت أبحث عن إجابة عنه، وأنا محاط بخضم مزبد من العامية المتدفقة في كل مكان من العالم العربي. وقد حاولت جاهداً - غير مرة - أن ألجأ إلى إخواني الأفاضل وزملائي الأجلاء من أساتذة الجامعات القائمين على خدمة لغة الإسلام ووعاء القرآن الكريم - اللغة العربية الفصحى - في العالمين العربي والإسلامي للجواب عن السؤال، وقد رأيتهم أيضاً قلقين متفكرين في الموضوع، وقد بذلوا أقصى جهودهم وسهروا للبحث عن الحل المناسب للمشكلة، والجواب الشافي المقنع عن هذا السؤال المحرج المزعج. وبينما نحن - أنا وهم جميعاً - في ذلك إذا مجلتنا الغراء الفيصل (في العدد ٢٤٥) تطل علينا بمقالة موجزة مملوءة بالأفكار السليمة الصائبة البناءة والمشاعر الإسلامية النقية المتدفقة عنوانها «اللسان العربي ومحنته المعاصرة» لصديقنا الكريم وزميلنا الفاضل الأستاذ الدكتور السيد رزق الطويل.

إن مقالة الدكتور الطويل هذه لتحمل رسالة إلى كل قلب مؤمن وإنسان نبيل يؤمن بكتاب الله الخالد ورسالته الخاتمة إلى البشر كافة؛ ذلك الكتاب الحي الخالد الحكيم الذي أنزله الله بلسان عربي مبين ليهدي للتي هي أقوم، ونزل على قلب الرسول العربي الصادق الأمين الذي أرسله الله ليكون شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ورحمة للعالمين. فاللغة العربية، لغة الإسلام، هي وعاء ذلك الكتاب وتلك الرسالة، وإن الأفكار والمعاني التي تحملها المقالة، والمشاعر الجميلة والعواطف النبيلة التي يتدفق بها قلب الأستاذ المؤمن، لجديرة بالتقدير والاستحسان، وهي، إن دلت على شيء فإنما تدل على حب الكاتب الشديد للغة الإسلام ووعاء القرآن الكريم، كما تدل على اهتمامه البالغ بشؤون المسلمين غير العرب، وتقديره الفائق لجهودهم في خدمة الإسلام ولغته وكتابه، لأن أخاً عربياً مؤمناً إذا سره إسلام إخوانه من غير العرب، وإذا لمس الحب الخالص الجارف في قلوبهم، واعتز بذلك؛ فإن ذلك لمما يملأ قلوب أمثالي بالفرح والسرور والإعجاب والتقدير، ونحمد الله تعالى على هذه العواطف الأخوية في قلوب إخواننا العرب العلماء. إن ذلك كله يرجع إلى الإيمان الصادق القوي بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الدين القيم الحنيف، الذي يقوم على دعائم الإيمان والأخوة والمساواة والوحدة البشرية، والقضاء على الفوارق العنصرية والطبقية التي يعاني اليوم منها البشر.

ظاهرة غريبة

إن ظاهرة اللهجات العامية في العالم العربي، في جامعاته ومجالسه الأدبية ومعاهده العلمية، تلك التي يراها الأستاذ الطويل مأساة بكل مقاييسها، لغريبة ومؤلمة في الوقت نفسه. إنها ظاهرة غريبة، لأن خلفيتها غير واضحة، إن لم تكن مجهولة على الإطلاق؛ ولأننا لا نعرف الأسباب التي جعلت العالم العربي، من خليجه إلى محيطه، ينغمس في بحر من اللهجات العامية المختلفة من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة، تاركاً اللغة العربية الفصحى نبحث عن أهلها وعن مواطنها! كيف تورط العرب جميعاً في هذا الوحل الذي شذهم وعقلهم، كما يشد البعير ويعقل فلا يكاد يتخلص من عقاله الذي ربط به، مع أن العرب شعب أبيّ لا يرضى بالضيم، ولا يخضع لمانع من الموانع والتيرت؟ فلماذا لا يتمكن من إنقاذ نفسه من هذا الوحل؟ ولماذا لا يرفض هذا الشين الذي شوه وجه بلاغته، وأبعده من فصحاه التي كان

يمتاز بها ويفتخر حين يأتي بروائع الخطب باللغة العربية الفصحى، فيسحر من يستمع إليه من الناس، ويبهرهم، ويهزم من ينافسه في الخطب البلاغية؟ إن هذه الظاهرة المؤلمة قد تبعد العرب من القرآن الكريم وتحرمهم من فضل الفصاحة والبلاغة وذلاقة اللسان وميزة البيان؛ ذلك الفضل العظيم الذي خُص به العرب، وخُصّت به لغتهم الفصحى!

إن العرب الكرام لا يمكن أن يتنازلوا عن فضلهم الذي ورثوه عن سلفهم العظام. وكيف يمكن لإنسان كريم نبيل أن يخلع ملابسه الفاخرة، ويلبس مكانها الأسمال البالية، ولاسيما إذا كان هذا الإنسان الكريم النبيل عربياً أبياً؟ إن الخطابة والفصاحة والبلاغة ميراث العرب التليد، وميزتهم التي



حافظ إبراهيم

يمتازون بها من الشعوب، وكانوا ولا يزالون يتفاخرون بها. وهذا الميراث وهذه الميزة وعاؤهما العربية الفصحى التي أبعدتها اللهجات العامية السائدة من نوادي العرب ومن مجالسهم، وتكاد تطغى على الفصحى؛ بل تكاد تطردها من المجتمع العربي!

إن هذه الظاهرة الغريبة المؤلمة التي تعاني منها الأمة العربية اليوم، يكاد العرب يفقدون بها عروبتهم - لأن العروبة بالعربية، والعربية هي الفصحى، فإذا اختار الواحد منهم العامية بدل العربية الفصحى فهو عامي وليس بعربي! - هذه الظاهرة المؤلمة واجهتها وأواجهها دائماً حين أكون بين إخواني العرب الكرام في شتى المناسبات، وقد مررت بتجارب مؤلمة محرجة في البلاد العربية المختلفة التي تختلف لهجاتها العامية اختلافاً كبيراً، ولم أتمكن من اختيار واحدة منها، أو تفضيل واحدة على أخرى؛ لأنني تعلمت لغة واحدة هي العربية الفصحى، أكتب بها وأتحدث، ولا أقرأ غيرها، وهم يتحدثون بلهجاتهم العامية. وإذا أسألهم أو أرد عليهم بالعربية الفصحى؛ فيضحكون مني، ويغمزون من عربيتي، عربية النحاة واللغويين. وقد صدق الأستاذ الطويل حين قال: «إننا ما زلنا نرى هذه الحرب ضد الفصحى عندما تقدم لنا وسائل الإعلام أستاذ اللغة العربية رزي الهيئة، رث الثياب لينتزعوا ضحكات المشاهدين، ولينفروا الشباب من الانحياز إلى كتيبة اللسان العربي الذي امتدحه رب العالمين غير مرة في كتابه الخالد الحي الذي وحد بني العرب، فجعل منهم أمة الحضارة والعلم، وقد كانوا من قبل قبائل شتى يتقاتلون ويتناحرون، وهو الذي كلل مصر والعراق والشام وفلسطين والمغرب بالعروبة، ولم يكونوا عرباً، وهو الكتاب الحي الذي كوّن لغة موحدة للعرب، وقد كانت ضروباً من اللهجات المختلفة، كما نرى اللهجات العامية اليوم مختلفة متضاربة! فهل سيعود العرب إلى جاهليتهم الأولى من حياة التناحر والقتال والذل والفقر؟ إن الله سبحانه وتعالى قد أعز العرب بالإسلام وبكتابه، وأعطاهم ميزة اللسن والخطابة بلغة القرآن الكريم: اللغة العربية الفصحى، لا حرمهم الله هذا الفضل العظيم.

أنت أزهري

وقد أدهشني، وأنا طالب جامعي إذ ذاك، في الوهلة الأولى، الحوار الذي جرى بين أخوين مصريين من أسرة المركز الثقافي العربي بلاهور الذي أمر جمال عبدالناصر بإنشائه في عام ١٩٦٠م حين زار لاهور ثم ألغي المركز بعد ذلك. وكنت أكثر الطلاب اختلافاً إليه، وأقواهم اتصالاً بالإخوة المصريين بالمركز، وأشدهم حباً لهم، وهم أيضاً كانوا يستقبلونني بوجوه باسمة، وبكلمات رنانة، وبعواطف نبيلة دائماً، وكنت أحاول أن أتحدث إليهم بعربيتي الركيكة المتقطعة، والتقط المفردات الجديدة من أفواههم من خلال حديثهم الحلو الجذاب، ونطقهم السليم المعجب، وأحاول جاهداً أن أقلدهم، حتى رأيتني يوماً وقد انطلق لساني انطلاقة حرة بالعربية الفصحى، وأخذت أتحدث بلهجة إخواني المصريين الأزهريين، مما يوهم اليوم الكثيرين من الإخوة العرب وغيرهم أنني مصري أو أزهري على الأقل، ومنهم فضيلة الإمام الراحل الدكتور عبدالحليم محمود، رحمه الله وغفر له، يوم أنفقت معه ساعات في أقسام جامعتي مترجماً له، حتى إنه حين أراد أن يفارقنا، ودعته توديعاً حاراً بكلمات رنانة كنت قد أخذتها عن إخواني المصريين من أسرة المركز، فقال فضيلته بكل وداعة وصراحة: يبدو كأنك مصري؟ فقلت له: إنني لست مصرياً، ولكني أخوهم، فقال: إذن أنت أزهري! قلت: يا سيدي! طالما تمنيت أن أكون أزهرياً، ولكنني لم أوفق لزيارة الأزهر حتى الآن. فقال الإمام رحمه الله: مش معقول! لهجتك لهجة الأزهريين!

ذلك ما حدث بيني وبين شيخ الأزهر. وأتقنت العربية بفضل إخواني المصريين من أسرة المركز الثقافي بلاهور. وكانوا يخصونني بحديثهم وببعض ما كان يأتيهم من الجرائد والمجلات العربية والأشرطة المسجلة. إلا أنني دهشت ذات يوم خلال إحدى زوراتي المتكررة للمركز، حين سمعت اثنين منهم وهما يتحدثان بصوت مرتفع، وبلهجة غاضبة، وبأسلوب ساخن مرير، ولاحظت أنني لا أكاد أفقه شيئاً من حديثهما غير بعض الكلمات العربية، فقلت في نفسي: إنهما قد يكونان من منطقة مصرية لغة أهلها ليست هي العربية، وإنما هي لغة محلية مستقلة تستعير مفرداتها من العربية مثل لغتنا الأردية التي تستعير مفرداتها (خمسين إلى ثمانين في المئة) من العربية. ثم اتضح لي فيما بعد أنهما كانا يتحدثان بعاميتهما

المصرية! فهذه كانت المواجهة الأولى مع العامية، ثم كثرت لقاءاتي معها خلال زياراتي الكثيرة لمصر العزيزة وفي الندوات والمؤتمرات والمواسم الثقافية في العالم العربي.

فرار بالعربية

لقد واجهت خلال هذه الزيارات المتكررة واللقاءات المتعددة السيل الجارف من العامية الدارجة، ومع أنني بدأت أفهمها فإنني لم ولن أتحدث بها يوماً، بل إنني لم أرد أن أتحدث بها قط، على سهولتها ومرونتها وسلاستها، وقد كدت أميل إليها خلال إقامتي بالقاهرة أستاذاً زائراً بالأزهر الشريف في عام ١٩٨٥م. وحين انتهت المدة أو كادت طلب إليّ الطلاب الأزهريون من تلاميذي أن أمدد إقامتي، فاعتذرت إليهم، ثم كتبوا الطلب إلى زميلي عميد الكلية الذي رجاني أن أمدد إقامتي، مدة شهر آخر من أجل تلاميذي، ولكنني اعتذرت إليه قائلاً: إني أريد أن أغادر القاهرة، وأسارع إلى باكستان، فقد بدأت أخاف على عربيتي! فلم يفهم قصدي فقال: لا تخف على عربيتك، فنحن معك، وسندافع عنها وعنك، ظناً منه كأنني أردت بالعربية زوجتي العربية، فقلت له: لا يا سيدي! أنت لم تفهم قصدي! زوجتي ليست عربية، إنني أخشى على عربيتي الفصحى، فلو بقيت أياماً أخرى في القاهرة فستفارقني العربية الفصحى، وتحل محلها عاميتكم الخفيفة السهلة السلسلة المرنة!

ورأيي أن اللهجات العامية المختلفة لكل بلد عربي إنما هي نتيجة طبيعية لما طرأ على الأمة العربية من التخلف والجهل والكسل والانعزال والتقوقع، وما حدث من البعدين الزماني والمكاني بين شتى البلاد والدول؛ بل بين المدن والقرى حتى إنك ترى كأن كل مدينة وقرية لها لهجتها الخاصة بها التي تطورت خلال القرون الخالية، كما أنني أرى أن الفرق بين العامية والفصحى إنما هو فرق الإعراب، فلو أعربت العامية لأصبحت فصحى، فعلى الإخوة العرب أن يتقنوا الإعراب؛ وذلك بأن يكثروا من تلاوة القرآن وحفظه وتجويده، فذلك سيكون خير عون لهم للتخلص من العامية والإقبال على لغة الإسلام ووعاء القرآن الكريم: العربية الفصحى التي ضمن لها كتاب الله حياة الخلود والبقاء الطويل.

محاولات الأعداء

وأما ما دعا إليه وليام ويلكوكس وأتباعه من أذناب الاستعمار، وعملاء الصليبية والصهيونية، وما ينادون به من العامية المرقعة المشكّلة الألوان المختلفة التي سرت فيه لوثة الإفرنج والأعاجم كما سرت سموم الأفاعي في مياه الفرات، على حد تعبير الشاعر حافظ إبراهيم رحمه الله، فذلك ليس جديداً، فقد سبقهم كثيرون إلى ذلك من أعداء الوحدة العربية وأعداء لغة القرآن، هؤلاء الذين يريدون أن يبعدوا العرب من عروبتهم، ويحرموهم من العربية الفصحى حتى تصبح كل عامية في بلدها مستقلة، وبذلك يتمكنون من القضاء على وحدة العرب اللغوية، فهم: *يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون*. التوبة:٣٢. خلهم يتيهوا في متاهات الضلال والظلام، ويلقوا حمامهم في تيه الذل والخسران، علماً يقيناً بأن اللغة، أيا كانت، ليست وسيلة وحيدة لرقي الأمم وعروجها في مراقي الحضارة والعلوم، ولو كان كذلك لكانت أستراليا وكندا وأمثالهما قد أصبحت دولاً كبرى، ولما تمكنت الصين واليابان وكوريا من التقدم الهائل المدهش، فقد أصبحت الأولى قوة عسكرية تتحدى القوى الكبرى، كما أن الثانية أخذت تتحدى العالم الرأسمالي التاجر في مجال الصناعة والاقتصاد والتقدم المعيشي! وإنما اللغة وعاء الحضارة والعلم، ولكنها ليست سلماً يرتقى عليه، أو حافزاً يسرع من سير الموكب الحضاري!

وقد شاءت حكمة الله أن تبقى لغة الضاد مصونة نقية بعيدة من لوثة الإفرنج ولعابهم المسموم، فعاشت منعزلة في كنف المعاهد التعليمية التي تهتم بعلوم القرآن، وعلى رأسها الأزهر الشريف، وذلك حين فقد العرب وعيهم السياسي والثقافي بحكم الجهل والتخلف. أما الآن، وقد عاد الوعي إلى العرب فيجب عليهم أن يطردوا العامية من بينهم لكي تحل محلها الفصحى في معاهد التعليم كلها، وفي المجالس الثقافية والنوادي الأدبية كلها، على الرغم من أنف أعداء الفصحى لكي يعرفوا الحق وهو: *إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون*. الحجر:٩.

العيب فينا

ولغة القرآن الفصحى تصلح لكل مجال، وتفي بكل حاجة وغرض، إنها تصلح لتكون وعاء الحضارة والعلم والتقانة (التكنولوجيا) وكل ما يحتاج إليه الإنسان المعاصر، ولا عيب فيها، ولا ينقصها شيء، وإنما النقص والعيب في الناطقين بها من أبنائها. وما زلت أتذكر حتى اليوم ما دار من الحديث عن العربية وصلاحيتها وكفاءتها بين



عبد الحليم محمود

العلماء المشاركين في ندوة عالمية عُقدت في عاصمة من العواصم العربية عن صناعة المعجم العربي قبل سنوات، وقد أثير هذا الموضوع المحرج في النقاش، فقال بعض المشاركين: إن العربية هي لغة الشعر والأدب ولا تصلح إلا للإنتاج الأدبي، أما العلوم والتقنية، فإن العربية لا تصلح لها. وأثار المناقشون ضجة في الندوة؛ فمنهم من أيد الفكرة، ومنهم من عارضها. وقال أحد المعارضين لهذه الفكرة الخاطئة عن العربية الفصحى: قد ظلت اللغة العبرية لغة اليهود الدينية مهملة خاملة مئات السنين، ونراها اليوم قد أصبحت لغة رسمية للكيان

الصــهـيـوني، ولـغـة الجـرائد والـعلوم والتكنولوجيا، فإذا كانت العبرية تصلح لتكون لغة معاصرة فلم لا تكون العربية كذلك؟ وقد أيدت أنا هذا الرأي فقلت: إن المشكلة هي أن الذين يتقنون العربية منا - نحن المسلمين - لا يعرفون العلوم، ومن يتقن العلوم لا يعرف العربية جيداً، فالعربية إذن لا عيب فيها، ولا ينقصها شيء أبداً، وإنما العيب كل العيب هو في أبنائها من العالم العربي الإسلامي، فلو كنا نحن على سُنّة أسلافنا لأمكن لنا أن نجيد ونتقن اللغة والعلوم في الوقت نفسه، كالكندي والفارابي وابن سينا والرازي والزهراوي، ولما شكونا ضيق اللغة العربية، ولتأكد لنا أن اللغة العربية قد وسعت العلوم بالأمس، وهي تسعها اليوم كذلك، وأن حاجتنا الملحة اليوم إنما هي تقوية اللغة العربية لأصحاب العلوم والتكنولوجيا، وأنهم في أشد الحاجة إلى ندوات لغوية، وحلقات دراسية حرة، كندوتنا هذه التي نشارك نحن فيها اليوم!

إن عربيتنا الجميلة الفصحى، هي لغة الإسلام ووعاء القرآن الكريم، وهي تصلح لتكون لغة العلم والثقافة والحضارة في كل زمان ومكان. لقد وسعت كتاب الله بآياته ومعجزاته وهديه وعظاته، كما وسعت العلوم والفنون خلال العصور الإسلامية الذهبية، وقد اختارها الله وقدر في لوح مقاديره لتكون لغة الدين الحنيف ووعاء الكتاب الحي الخالد، وشاءت حكمته البالغة أن تقضي على اللهجات القبلية، وأن تنهي الصدام أو الفرق بين لغة الشمال ولغة الجنوب، وتخرج منهما لغة موحدة قوية قادرة على تحمل رسالة الله الخاتمة إلى البشر كافة؛ فلولا الإسلام والقرآن لما أمكن للغة العربية أن تكون كذلك، ولبقيت لغة الشمال ولغة الجنوب، ولاستمرت اللهجات القبلية المختلفة المتضاربة المتنافرة كأية لغة من اللغات المحلية الإقليمية، كما نرى اللغات أو اللهجات الهندية المحلية المتعددة التي يبلغ عددها ألف لهجة أو لغة محلية، مع أنها كلها قد انشعبت من أرومة واحدة، فطال عليها الأمد، وظلت القبائل أو الأجناس البشرية التي كانت تتحدث بها ممزقة متفرقة منعزلة بعضها عن بعض حتى أصبحت لهجاتهم المحلية لغات مستقلة! فهل ستمارس العامية الدور نفسه مع الفصحى؟ إن القرآن الكريم هو الذي أنقذ العربية من وحل اللهجات القبلية، ومن رواسب لغة الشمال ولغة الجنوب، أو معارك قيس ومضر، والإسلام دين الوحدة البشرية والمساواة والأخوة الإسلامية، وهو الذي حمل لواءها لتخرج من جزيرتها العربية، وتساير موكب الإسلام الحضاري الفاضل المبارك، فلولا القرآن والإسلام لبقيت العربية لغة محلية متقوقعة في جزيرتها، أو كانت قد تلاشت وامحت آثارها، وصارت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

القرآن الكريم هو الذي أنقذ العربية من وحل اللهجات القبلية، والإسلام هو الذي حمل لواءها لتخرج من جزيرتها العربية وتساير موكب الإسلام الحضاري

وقد كان بإمكان العربية كذلك، وهي لغة الإسلام ووعاء القرآن الكريم، أن تصبح لغة كل مسلم غير عربي يعتنق الدين الإسلامي، ولكن العربية أصابها الضعف والوهن، وأنقض ظهرها الثقل الباهظ من السجع والقافية أو الأسلوب المقاماتي المتكلف؛ وهكذا ضلت طريقها في دور الانحطاط من تاريخها حتى ثقلت على الألسنة والأقلام، ولم تعد تساير موكب الحضارة الإسلامية، ولم تتسع للعلوم والفنون؛ بل ضلت معانيها في ألفاظها الثقيلة الوحشية، فحلت محلها الفارسية، ثم تلتها اللغة التركية لغة رسمية للبلاد؛ فلولا هذا الأسلوب المتكلف الثقيل البعيد من الأسلوب القرآني الجميل لكانت العربية لغة العالم الإسلامي في كل مكان وزمان، ولغة كل مسلم، ولكان المسلم يرادف العربي كما جاء في بعض الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من ولد في الإسلام فهو عربي». فقد روى الإمام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم من حديث الحسن بن رشيق عن أبي سلمة رضي الله عنه أنه قال: جاء قيس بن مطاطة (من الأعراب) إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء؟ فقام معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي أن الصلاة جامعة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد أيها الناس إن الرب رب واحد والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، ومن وجد له أبوان في الإسلام فهو عربي» فقام معاذ بن جبل فقال: بم تأمرنا في هذا المنافق؟ فقال: «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد فقتل في الردة!

لذا يجب علينا اتخاذ ما يأتي من الخطوات:

- الاهتمام الرسمي بتحفيظ القرآن الكريم وتجويده فهو خير محافظ على الفصحى.
- العمل بأمر الخليفة الراشد الثاني عمر رضي الله عنه: «علموا أولادكم العربية (الفصحى) فإنها من دينكم». وذلك من واجب الآباء، والحكومات، والمعاهد التعليمية، ووسائل الإعلام.
- لا تدخل العامية فصولنا الدراسية، ومجالسنا الأدبية؛ وهذا من واجب الأساتذة والعلماء والكتاب.
- القيام بنشر الفصحى في العالم الإسلامي غير العربي.
- الحديث مع أولادنا بالفصحى داخل المنازل والبيوت.
- تشجيع من يهتم بالفصحى من الأفراد والمؤسسات في كل مكان.

سعير من السماء

ماذا أعدّ العلماء لغضبة الشمس المقبلة؟

عدنان عضيمة

الشارقة - دولة الإمارات



إلى أي حد يمكن للشمس أن تؤذي سكان الأرض؟

يقول العلماء إنه لو كتب للشمس أن تقذف لهيبها نحو الأرض لأحالتها في غمضة عين إلى ما يشبه طبقاً مقلياً من البطاطا. فهل أعدّ الإنسان نفسه لاتقاء الأخطار الجسيمة التي سترافق الثورة الشمسية الوشيكة؟

أيها البشر، ضعوا قبعاتكم السميكة فوق رؤوسكم، فثمّة خطب كبير آتٍ من السماء. ففي واحدة من لحظات الغضب الكوني، التي ستملأ ظواهره محيطنا الفضائي القريب برمّته في غضون الأشهر القليلة القادمة، وفي حدود شهر أغسطس/ أب المقبل، سوف يتحوّل سطح الشمس من كرة جميلة رائعة

الاحمرار من الغازات المتشردة، إلى مصدر لعاصفة هوجاء من كرات البلازما (تتألف البلازما من ذرات متقشرة مشحونة بقوة بالكهرباء بعد أن تكون قد فقدت إلكتروناتها كلها، وتشكل البلازما دفقات من الغازات ذات الطاقة العالية). وسوف تستمر الشمس عندئذ وبضعة أشهر متوالية، في قصف كواكب النظام الشمسي برمتها بكرات النار المستعرة، لتبدو هكذا في واحدة من أقسى ثورات غضبها وعنفوانها.

ويقدر لمثل هذا الدفق الهادر من النار أن يلتهم أيًا من الكواكب التي يصادفها في طريقه، وأن يحرقها حرقًا.

وليس ثمة شك في أن مثل هذا التكهن الذي يتناقله العارفون بأمور الشمس ودوراتها، ينطوي على كم كبير من التشاؤم والشعور باليأس والإحباط خاصة وأن علماء الفيزياء الفلكية توصلوا إليه من خلال عمليات الرصد والحساب. ولو قُدّر لواحدة فحسب من هذه العواصف البلازمية أن تضرب الأرض فقد تدمرها عن اخرها. وتدعى الواحدة من كرات اللهب التي تقذفها الشمس في أثناء ثورانها الدوري «الكتلة الهالية المقذوفة» Coronal Mass Ejection، وتتألف من كتلة هائلة الحجم من الغازات المتشردة، وتفوق درجة حرارتها مليون درجة مئوية. ولا تنطوي الحرارة العالية التي تحملها مثل هذه الكرات الغازية إلا على واحد من أقل الكوارث التي تتهدد الأرض خطورة عند حدوث مثل هذه العاصفة العاتية؛ وذلك لأن البلازما بحد ذاتها سوف تهب على الحقل المغناطيسي للأرض فتعمل فيه تشويهاً واضطراباً، تماماً مثلما يحدث عندما تهب الرياح فوق الأعشاب الغضة. ومن شأن مثل هذه الاضطرابات الطارئة على الحقل المغناطيسي الأرضي أن تعطل مولدات الطاقة الكهربائية، وأن تفسد الأجهزة الإلكترونية ضمن الأقمار الاصطناعية الخاصة بالاتصالات اللاسلكية لتصيب شبكة الاتصالات الأرضية بالشلل التام.



تؤثر الرياح الشمسية بشكل مستمر في الحقل المغناطيسي الأرضي حتى عندما تكون هادئة هاجعة، حيث تؤدي البلازما إلى تشويه شكل خطوط القوة للحقل، وتشوش على الاتصالات. وعندما تثور الشمس يغدو هذا التأثير كبيراً لدرجة قد تؤدي إلى تعطيل مولدات الطاقة وشبكات الاتصالات

تشاؤم وانتظار

وعلى الرغم من هذا التشاؤم المطبق الذي عبر عنه العلماء حول ما ينتظر الأرض من خطر داهم وغضب ماحق يوشكان أن يأتيانها من السماء، فإننا لا نجد حتى الآن إلا القلة القليلة منهم ممن أسرعوا لتحضير أنفسهم للحظة قد تنطوي على أفدح الكوارث التي أصابت الأرض خلال تاريخها الفلكي برمته، بينما اكتفى آخرون بتبني موقف غامض، ينطوي على التجاهل وعدم الاكتراث. وقد ذهب المتشائمون في تخوفهم وإشفاقهم من هذا الحدث الجال المنتظر إلى حد الإسراع في اتخاذ الترتيبات الوقائية الجادة التي تضمن حماية محطات الطاقة وشبكات الاتصالات، وسارعت بعض المؤسسات السلمية البحثية المهتمة بالسلامة البيئية في كندا وأمريكا لإطلاق الأقمار الاصطناعية المجهزة بالمجسات الفضائية إلى مدار يقع بين الأرض والشمس من أجل تحسس أية تغيرات تطرأ على سلوك الشمس، وإرسال التحذير ببدء وصول النذر الأولى للعواصف البلازمية. وعمد هؤلاء العلماء

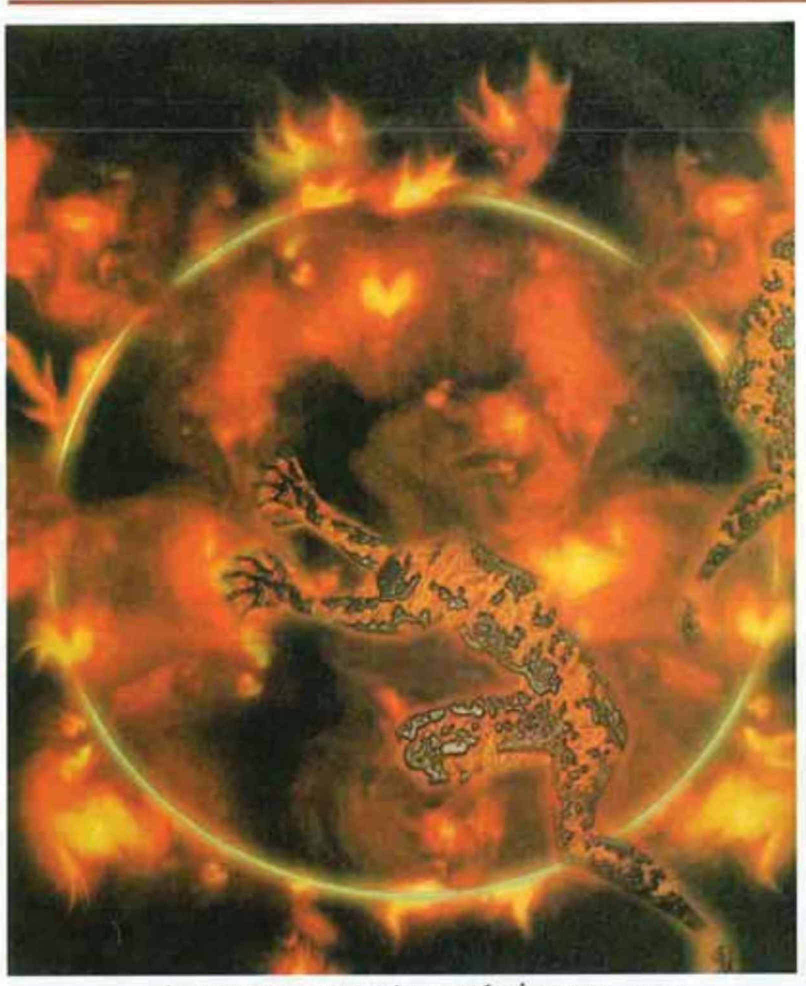
أيضًا إلى ابتكار نماذج حاسوبية معقدة يمكنها أن تتكهن بمناطق الأرض التي ستتأثر بغضبة الشمس أكثر من غيرها. واكتفى علماء آخرون بعقد أيديهم تحت صدورهم، مؤثرين الانتظار حتى يروا ما الذي يمكن أن يحدث لشبكات الاتصالات الضخمة التي كتب لها أن تتنامى بسرعة عجيبة منذ العاصفة الشمسية الكبرى التي حدثت قبل عشر سنوات.

ولم يزل الفلكيون يتابعون التغيرات الطارئة على طبيعة الشمس منذ أكثر من مئتي عام، كانوا يلاحظون خلالها تكرر مثل هذا السلوك الشمسي العنيف كلّ ١١ سنة أو نحوها، مما جعلهم على يقين من أن النشاط الشمسي الأعظمي محكوم بدورة زمنية تتكرر كل ١١ سنة كان آخرها تلك التي ضربت الأرض في عام ١٩٨٩م، وسجلت أقواها على الإطلاق في عام ١٩٥٨م. إلا أن حساباتهم أكدت أن الأمر سيكون مختلفًا بالنسبة إلى دورة الثالثة والعشرين في السجل التاريخي المدوّن للشمس، والتي ينتظر أن تضرب الأرض خلال الأشهر القليلة المقبلة، لتصيبها بكارثة أسوأ بكثير من تلك التي جلبتها الدورة السابقة، والتي عانى منها ما يزيد على ستة ملايين من سكان إقليم كيبيك الكندي.

وتوقفت الحياة!!

وكانت العاصفة الشمسية السابقة ضربت ضربتها الموجعة منذ الساعات الأولى ليوم الثالث عشر من مارس/ آذار من عام ١٩٨٩م. ولم يكن هذا التاريخ بالذات مناسبًا لحدوث هبوط كبير في درجة الحرارة لكونه صادف أحد أيام الشتاء المثلجة. وهبطت درجة الحرارة إلى ١٥ درجة مئوية تحت الصفر بعد أن تعطلت المدافئ في بيوت الملايين من الكنديين، فافتقدوا الدفء والضوء أيّما افتقاد، وعانى كثيرون منهم من هجمات البرد المؤلمة. وعقب بزوغ شمس شتاء ذلك اليوم القارس، بدت الطرق خالية تمامًا من السيارات والمارّة بسبب افتقار الناس لمصادر الطاقة بعد أن تعطلت مضخات سحب النفط من المحطات وتوزيعه بسبب انقطاع التيار الكهربائي، وتوقف نبض إشارات المرور التي غدت مظلمة لا حياة فيها.

وما إن حلّ آخر النهار، حتى راح المسؤولون يفتشون عن السبب الكامن وراء هذه الظاهرة المأساوية، وقد أجابهم مهندسو مؤسسة «هيدر-كيبيك»، التي تتكفّل بإنتاج الطاقة الكهربائية للإقليم برمّته، بأنهم بدؤوا يشكّون بوجود سبب كوني خارق لهذا الحدث الكبير.



عدد كبير من البقع وألسنة اللهب، هكذا بدت الشمس عبر المناظير في أثناء نشاطها الشمسي الأعظمي في عام ١٩٨٩م

وسرعان ما استنتج العلماء بأنه قبل ذلك بأربعة أيام، كانت كرة هائلة الحجم من البلازما قد اندفعت من فوق سطح الشمس فضربت الأرض لدى وصولها إليها في صباح ذلك اليوم.

وتكمن أهم الأخطار التي تنطوي عليها العواصف البلازمية الشمسية في التعبير أو التشوّه المفاجئ الذي تحدثه في خطوط القوة للحقل المغناطيسي الأرضي، لأنها تؤدي إلى توليد التيارات الكهربائية العشوائية في كل الموصلات الواقعة ضمن نطاقها، وهذا هو مبدأ عمل المولد الكهربائي (الدينامو). ويعود فضل اكتشاف هذه الظاهرة التي أدرجت تفاصيلها فيما بعد تحت اسم: قوانين التحريض الكهرطيسي، إلى الكيميائي والفيزيائي البريطاني مايكل فاراداي (١٧٩١ - ١٨٦٧م) حين تمكّن من إثبات القانون الأول في التحريض الكهرطيسي الذي ينص على أن تغيّر شدة الحقل المغناطيسي يؤدي إلى توليد تيار في الدائرة المغلقة لموصل مغمور فيه. وسرعان ما أثبت الفيزيائي لنز بعد ذلك صحة عكس قانون فاراداي فتوصّل بذلك إلى وضع القانون الثاني للتحريض الكهرطيسي الذي أشار فيه إلى أن تحريك دارة موصل مغلقة ضمن حقل مغناطيسي ثابت الشدة يؤدي إلى مرور تيار في الدارة. ولعل مثل هذا الشرح المختصر لقانوني التحريض الكهرطيسي يجعلنا ندرك لماذا ينبغي تدوير أسلاك المولد الملفوفة على شكل مغزل بين قطبين مغناطيسيين ثابتين لتوليد التيار في المولدات الكهربائية. وعندما يُقدّر لعاصفة مغناطيسية أن تضرب الأرض، فإن شبكات الموصلات المغمورة في نطاق الحقل المغناطيسي الأرضي ذي الشدة المتغيرة باستمرار، سوف تؤدي عمل المولد الكهربائي الضخم وفقاً للقانون الأول المذكور. وقدّر مهندسو شركة (هيدرو - كيبيك) أن يكون تأثير هذا التغيّر الهائل في شدة الحقل المغناطيسي الأرضي الناتج من وصول كرة البلازما، قد امتد ضمن حدود دائرة يزيد قطرها على ألف كيلو متر. وتضم الموصلات التي تأثرت بهذه الظاهرة النادرة، شبكات خطوط الهاتف، وأسلاك نقل الطاقة الكهربائية، وحتى خطوط السكك الحديدية، التي تولدت فيها تيارات كهربائية عشوائية بلغت شدتها مئات الأمبيرات.

أقسى الدورات الشمسية

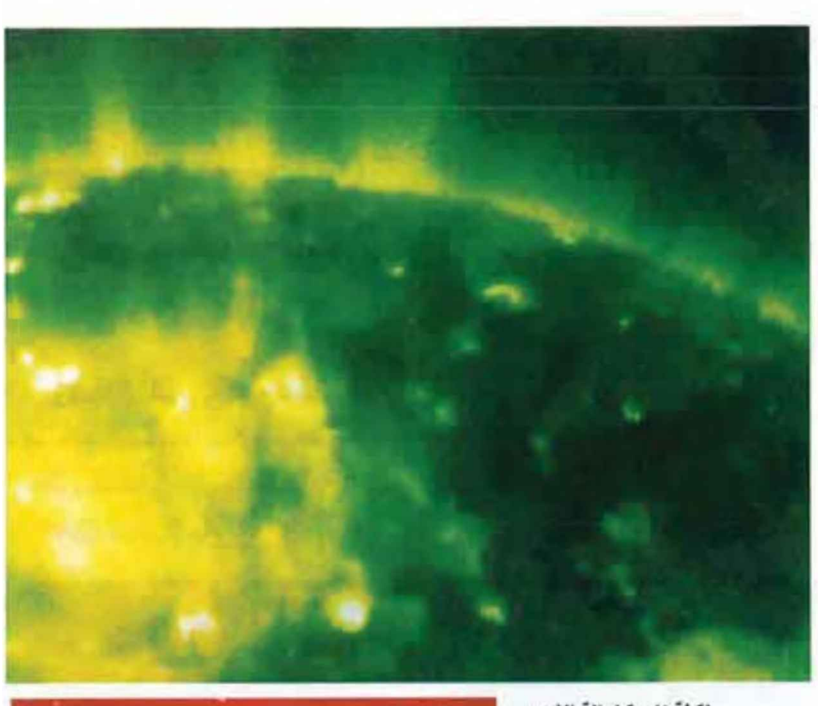
ولم تقتصر الآثار المأساوية لهذه الظاهرة العظمى على إقليم الكيبيك وحده، بل عانت منها دول العالم كلها، ولو بدرجات متفاوتة. فإلى الجنوب، أدت التيارات الكهربائية العشوائية ذات الشدة العالية إلى حرق القلب الحديدي للمحوّل الكهربائي الملحق بمحطة نيوجرسي للطاقة في أمريكا. وتطلّب الأمر الإسراع في تبديله، وتكلّف ذلك بضعة ملايين من الدولارات.

وغدا الفلكيون الآن قادرين على التكهّن بالعواصف الشمسية المقبلة التي تحاكي في عنفوانها تلك التي سجلت في عام ١٩٨٩م. كما أصبح في وسعهم تقدير قوّتها قبل وصولها إلى الأرض بعدّة أيام. ووفقاً لتكهناتهم المتعلقة بطور

يبيّن المخطط البياني درجات عنف دورات النشاط الشمسي الأعظمي خلال التاريخ الحديث من خلال تحديد عدد البقع المرصودة فوق هالة الشمس في كل دورة. وكانت أعنفها الدورة السابقة التي حدثت في عام ١٩٨٩م. ويبدو من المخطط أن النشاط الشمسي الأعظمي يتكرر كل ١١سنة.

النشاط الشمسي الأعظمي المقبل، فإنّه سيكون على أقل تقدير أكثر شدة وعنفوانًا. وعندما تدخل الشمس دورة نشاطها الأعظمي التي تتكرر كل ١١ سنة، سيكون في وسع الفلكيين قياس درجة النشاط على سطحها عن طريق حساب عدد البقع الشمسية الحارة (الكَلَف)، وكذا عدد مجموعات البقع التي يمكنهم رصدها خلال فترة محدّدة تراوح بين الشهر والعام الكامل. ويسمح تحديد هذه الأعداد باستنتاج مقدار مهم يدعى «معامل النشاط الشمسي» Solar Activity Index، الذي يطلق عليه أيضًا «عدد البقع الشمسية» Sunspot Number. وخلال النشاط الشمسي الأصغري، يمكن أن ينخفض عدد البقع الشمسية إلى ١٠. وفي شهر يوليو/تموز من عام ١٩٨٩م، وخلال النشاط الشمسي الأعظمي الأخير، وصل عدد البقع الشمسية إلى ١٥٩. وفي مارس/آذار عام ١٩٥٨م وصل هذا العدد إلى ٢٠١، وهو أعلى عدد سجّل في تاريخ الدورات الشمسية المدوّن.

ويقول أحد خبراء «المركز الأمريكي للمحيطات والبيئة الفضائية» الذي يوجد مقرّه في مدينة بولدر التابعة لولاية كولورادو: «سوف تكون الدورة الشمسية الثالثة والعشرون المقبلة، واحدة من أقسى الدورات الشمسية المسجلة على الإطلاق. ويمكن أن تأتي على درجة القوّة التي تجعلها تكافئ من حيث ضراوتها الدورتين





لقطة نادرة لهالة الشمس النشيطة في إحدى دورات نشاطها الأعظمي التي تتكرر كل ١١ سنة. وتبدو الألسنة والعقود التي تقذفها الهالة لملايين الكيلومترات بعيدًا عنها، وتتألف من بلازما تصل حرارتها إلى مليون درجة مئوية

السابقتين معًا». وحذّر فلكيو المركز من أن عدد البقع الشمسية المرافق لهذه الدورة يمكن أن يبلغ ١٩٠ بقعة.

وسوف تتعرض الأقمار الاصطناعية الدائرة حول الأرض لكثير من الأخطار في أثناء هبوب العاصفة الشمسية. وقدرت وزارة الدفاع الأمريكية التكاليف التي تدفعها سنويًا لإصلاح الأعطال التي تتعرض لها الأقمار الاصطناعية الحكومية بسبب الظواهر الكونية المختلفة بـ ١٠٠ مليون دولار. ولا يتعلق هذا التقدير إلا بالسنوات التي تكون فيها الشمس هادئة، هاجعة. وسجّل في كل من عامي ١٩٩٤و١٩٩٥م نحو ١٥٠ حالة تعطّل في الأقمار الاصطناعية الأمريكية التي تملكها الدولة.

وعندما تعطّل القمر الاصطناعي الأمريكي «جالاكسي ٤» المخصص للاتصالات خلال شهر مايو/أيار من العام الماضي تعطل معه أكثر من ٤٥ مليون من أجهزة هواتف التحذير «البيجر».

وعزا مسؤولون في شركة «هيوز إليكترونيكس كوربوريشن» التي بنت القمر أسباب التعطل إلى خلل مفاجئ طرأ على المعالج المركزي للحاسوب المكلف بضبط عمل أجهزة القمر كافة، والذي يعود لسبب كوني بحت.

ما الحل؟

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال: ماذا يمكن للبشر أن يفعلوه للتصدّي لمثل هذه الكارثة؟. يقول ليونارد بولداك، الباحث في «معهد هيدرو - كيبيك للدراسات الكهربائية» في إقليم كيبيك الكندي، والذي كتب له أن يتصدّى لمشكلة انقطاع التيار الكهربائي عن الإقليم في الدورة الشمسية المسجلة عام ١٩٨٩م، بأنه ليس في وسع علماء المعهد أن يفعلوا إلا القليل في مثل هذه الحالة الطارئة؛ ولقد أنفق المعهد أموالاً طائلة من أجل مجرد فهم الظاهرة ومحاولة تقويم الأضرار التي ستلحق بمعدات توليد الكهرباء ونقلها خلال النشاط الشمسي الأعظمي المقبل. واقتصر الحل الوحيد الذي اقترحه خبراء «شركة هيدرو - كيبيك» على تجهيز خطوط نقل الطاقة الكهربائية بمكثفات Capacitors تمنع مرور التيار المستمر من دون التأثير في خصائص التيار المتناوب الذي يغذّي الحواضر والمدن. وأنفقت الشركة حتى الآن أكثر من ١.٢ بليون دولار كندي لتزويد الشبكات بالمكثفات الواقية، وعمدت أيضاً إلى تجهيز الشبكات بأدوات التحذير التي تتحسّس الاختلافات المفاجئة في فرق الكمون الكهربائي وتُنبئ مشغّليها بالطريقة المثلى لإعادة توزيع الحمل الكهربائي الزائد في جزء ما من الشبكة على الأجزاء الأخرى ذات الحمل الأقل. يقول بولداك بشيء من الثقة: «لقد أصبحنا الآن على يقين من أن شبكتنا ستتمكن من الصمود أمام هذه العاصفة الهوجاء».

وينطوي الحل الثاني لهذه المعضلة المعقّدة على محاولة تقدير قوّة تأثير العاصفة المغناطيسية قبل وصولها إلى الأرض، بحيث يمكن اتخاذ التدابير الوقائية المناسبة لدرء بعض أخطارها. ولكن هذه الطريقة تنطوي على الكثير من الصعوبات، لأن العلاقة التفاعلية بين الحقل المغناطيسي الأرضي والدقائق المندفعة مع البلازما الحارة غاية في التعقيد، ويتولى الآن بعض العلماء إجراء الدراسات المفصلة لهذه العلاقة عن طريق ابتداع نموذج حاسوبي من شأنه توضيحها وتسهيل التوصل إلى أسرارها.



لقطة تلسكوبية واضحة للجيشان المستمر في هالة الشمس النشيطة الذي لا ينقطع تأثيره في الأرض

وعلى الرغم من كل الإجراءات والتدابير الوقائية التي يمكن للإنسان أن يلجأ إليها لصدّ هذا الهجوم الشمسي، فإنه، بلا شك، يبقى عاجزاً أمام القوة الهائلة لظواهر الشمس.

ولعلّ هذه الظاهرة المخيفة تكشف عن صورتين متناقضتين من الحقائق الكونية.. قوّة الطبيعة، وضعف الإنسان.

المرجع

مترجم وملخص ومزيد عن مقالة بعنوان:

Fire In The Sky, By David Appell, in New Scientist Magazine; Issue No. 2175, PP 28-32

الأفاعي: حقائق وأساطير

مجدي إبراهيم
الجيزة - مصر

يردّد أهالي أستراليا القصص عن أفعى ضخمة جدًا، وأنها إذا تمددت عبر السماء تبدو كقوس قزح، إنهم يؤمنون أنها تقف على بداية طريق الأنهار لتحمي ممراتها!

وفي اليونان القديمة، كان الجنود العائدون من المعركة في الهند يردّدون القصص عن الأفاعي، وكانوا يقولون: إن حجمها ضخم بلا حدود، وأن عينيها تقارب حجم درع الجندي!

والحقيقة: أن بعض الأنواع من الأفاعي عملاق حقًا، وتعد من اطول الحيوانات الموجودة الآن.. والرقم القياسي مسجّل باسم (روه تيك يولى تد)، وهي أفعى من جنوب شرق آسيا، يبلغ طولها نحو ثلاثين قدمًا، أما الأفاعي الهندية والإفريقية، فقد يصل طولها إلى ستة وعشرين قدماً.

وهناك أنواع لا تتعدى أطوالها خمسة الأقدام، بل إن أحدها يستوطن أستراليا، يُطلق عليه «الأفعى الطفل» لا يتعدى طوله المتر. وفي مصر عثر العلماء في حفريات ترجع إلى خمسين مليون سنة على آثار الأفاعي.



أفعى ذات رأسين، لها ذيل يشبه رأسها تماماً، تدافع عن نفسها، فتنتصب بذيلها، فيبدو كأنه رأسها، وتهرب برأسها بين جسدها الملتف، فإذا هاجمها عدو أذى ذيلها. بينما يبقى رأسها آمنا

الأفاعي وأرديتها الجميلة الألوان

ومن جنوب شرق آسيا تأتي لنا القصص عن كيفية اتخاذ الأفاعي تلك الألوان الزاهية، وطبقًا للأسطورة فإن أول أفعى ظهرت على وجه الأرض كانت بيضاء تماماً، وذات يوم وقعت أفعى ذكر (أفعوان) في حب زوجة قاطع أخشاب، وهرب الاثنان معًا وتزوجا، ثم صنعت الزوجة للأفعى (الأفعوان) معطفًا جميلاً ذا ألوان زاهية فارتداه فرحًا وإلى الأبد، ولذا تبدو الأفاعي بجلودها الجميلة.

والحقيقة أن الأفاعي لا ترتدي معاطف كما تردّد الأساطير، ولكن جلدها مغطى بقشور مختلفة الألوان، مثل الثعبان الشبكي أو السجّادي ذي الجلد الأسود اللامع الذي يغطي جسده كاملاً.

وللأفاعي جلد بني أصفر يعطي ظلالاً قرمزية، أما أفعى الأشجار الخضراء فلها أغرب رداء على الإطلاق، فكلما نما الثعبان تغير لونه من الأصفر إلى البني المحمر، ثم إلى الأخضر.

وفي معظم الأحيان تنسلخ الأفاعي من جلودها، وعندما يحين وقت الانسلاخ يبدو الجلد القديم بلا لون على الإطلاق، وتبدأ الأفعى بحك أنفها بصخرة أو جذع شجرة أو شيء جاف، ثم يُقشَّر جلدها من الرأس إلى الذيل، ثم تنسلخ من الجلد تماماً.

الأفاعي آكلة الأفيال

يروي الجنود اليونانيون القصص عن الأفاعي التي تستطيع أن تبتلع ثوراً أو ظبياً ضخماً مرة واحدة - بل إن الجنود الصينيين كتبوا عن ثعبان «البا» العملاق الذي يأكل فيلاً كاملاً! ويؤكدون أن الأفعى تستغرق ثلاث سنوات في هضم الفيل ثم تقذف بالعظام بعد ذلك!

والحقيقة: أن الأفعى العملاقة تهاجم أحياناً حيواناً في حجم الظبي أو الخنزير، ولكن ليس هناك أفعى تأكل فيلاً، فالأفاعي على كبر حجمها تأكل الطيور والثدييات الصغيرة كالفئران.. والناس في بعض أنحاء العالم يحتفظون بالأفاعي على متن السفن لتخلصهم من الفئران.

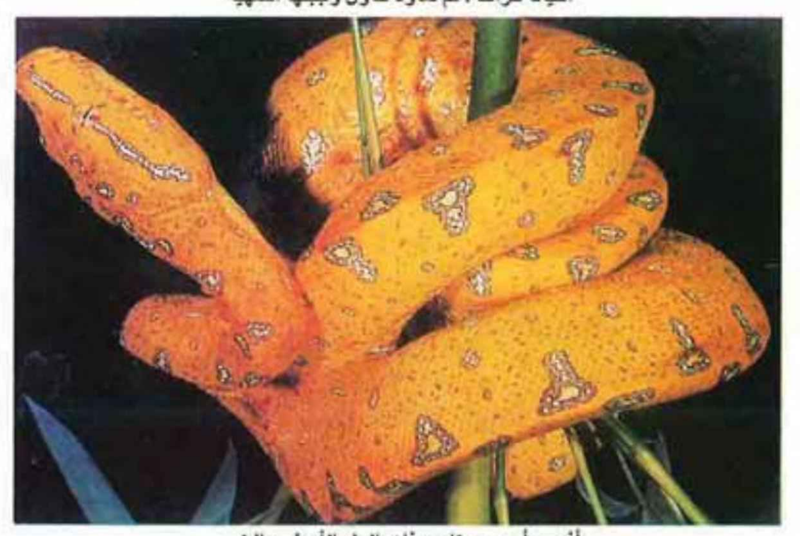
ولكي تقتنص الأفعى فريستها تجري بسرعة، ثم تقبض عليها بأسنانها الحادة، ثم تلف جسدها حول الضحية، وتبدأ في الضغط حتى تتوقف عن التنفس تماماً، وبعد موت الفريسة تبدأ في التهام رأسها بأسنانها، ثم تبدأ في إدخال بقية الجسد إلى جوفها على مراحل.

الأفاعي تهاجم الإنسان

من أكثر من ألفي عام مضت، روى **الجنود الرومانيون في إفريقية رؤيتهم**



الأفعى العملاقة تهاجم ظبيا بالغا، وهي تقضي الساعات في ابتلاعه بعد أن شلت حركته، وتتوقف أحيانًا للراحة، ثم تعاود تناول وجبتها الشهية



أفعى «أمي سستايم» ذات الجلد الأصفر والبني



تلتف الأفعى الأنثى حول بيضها حتى يفقس، بينما ترى رأسها في المقدمة يتابع نوبة الحراسة خوفا من مهاجمة عدو أقوى

لثعبان ضخم يبلغ طوله مئة وعشرين قدماً، قتل المئات من الجنود، وقالوا: إنهم نجحوا آخر الأمر في قتله بإلقاء صخرة ضخمة عليه، وأقيمت الاحتفالات لتكريم قائدهم على نصره المؤزر ونجاحه في قتل الأفعوان.

والحقيقة: أن الأفاعي لا تصيب الإنسان بأي ضرر إلا عند الدفاع عن نفسها، وليس من أجل وليمة، والحق أن الإنسان هو الذي يؤذيها، ويقتلها من أجل لحومها وجلدها الثمين الذي يصنع منه الأحذية والحافظات الجلدية، وقد يقتلها في أثناء تدمير الغابات لتشييد طرق ومدن جديدة، فيجعلها بلا مأوى..

وليس الإنسان هو عدو الأفاعي الوحيد، فهناك الحيوانات المفترسة التي تعيش لقتل الأفاعي الصغيرة - مثل التماسيح والنمور.. ومن أجل السلامة تزحف الأفاعي وتختفي في شقوق ضيقة، وإذا لم تستطع الاختباء فليس أمامها سوى المواجهة.

الأفاعي الخارقة للطبيعة

عبد الناس الأفاعي في إفريقية، وعدّوها إله الحرب، أو إله الحكمة، بل إله السعادة أحياناً.. وكان أيٌّ من الزوجين لابد له أن يأخذ البركة من الأفعى قبل الزواج، بل كانت فألاً طيباً لحصول جيد. ورددت الأساطير أنه عند بدء الخليقة ولد الناس جميعاً عميانا، وجاءت أفعى فلمست أعينهم فأبصروا!

إن بعض الناس في إفريقية يعامل أنثى الأفعى كالآلهة، ومازالوا يقدّمون لها حبات البن والأصداف الجميلة عندما تكون مع بيضها.

وأنثى الأفعى هي أفضل أم على وجه الأرض، فهي تظل مع بيضها حتى يفقس - بخلاف جميع الأمّات - وتضعه في أعشاش، وتلف جسدها حوله، وتبقي رأسها في المقدمة، وتظل تحرسه مدة شهرين، ولا تترك مكانها إلا لثوانٍ للشرب، وهناك الأفعى الهندية تبث الدفء في البيض بأن ترتعش، فالارتعاش يزيد من حرارة الجسد التي تنبعث إلى البيض لتبقيه في درجة حرارة مناسبة.

وللأفاعي قدرات رياضية مذهلة، فبعضها يتسلق الشجر بكل سهولة، ويتعلق من ذيله، وبعضها سريع جداً، وبعضها سباح من الدرجة الأولى.

ويعرف عن الأفاعي قدرتها على السباحة مسافة ثلاثين ميلاً، وقد تنتقل من إحدى الجزر في المحيط الهادي إلى أخرى.

إذن نخلص مما سبق إلى أن الله قد وهب الأفاعي كثيراً من الخصائص التي تناسب ظروفها البيئية، وتهيئ لها أن تدافع عن نفسها من أجل البقاء.



الأفاعي لا تصيب الإنسان بأي ضرر الا عند الدفاع عن نفسها



أفعى الكرة، تحمي نفسها من الضرر، حيث تلف جسدها وكأنها كرة وتجعل رأسها مختبئاً في الداخل

المياه الجوفية

بين الاستنزاف والتلوث

عماد عبدالرحمن الهيتي
طرابلس - ليبيا

تشير إحصاءات برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP إلى أن ٩٧٪ من مجموع المياه العذبة الموجودة في كوكبنا، باستثناء المياه المتجمدة في القطبين الشمالي والجنوبي، توجد بشكل مياه مخزونة في الترسبات والتكسرات الموجودة في الصخور وعلى أعماق مختلفة، أي بشكل مياه جوفية، كما يشير تقرير البرنامج عن حالة البيئة إلى أن أكثر من مليار إنسان ونصف المليار يعتمدون على المياه الجوفية لتلبية حاجاتهم من المياه العذبة. وتعكس هذه البيانات أهمية الحفاظ على هذا المورد الحيوي والثمين، ولكن الإنسان بسلوكه غير العقلاني أساء كثيراً لهذا المورد من خلال الاستغلال المفرط له من جانب، وتلويثه من جانب آخر.

تعاني المياه الجوفية، شأنها شأن الأنهار والبحيرات العذبة، من مشكلتين أساسيتين هما استنزافها وتلوثها. وسنتناول كل مشكلة على حدة وما تسببه بدورها من مشكلات خطيرة.

استنزاف المياه الجوفية

نظر الإنسان إلى الماء على أنه مورد مشاع يستطيع استخدامه دون قيود، ولكون أغلب المياه الجوفية لا تحتاج إلى معالجة قبل استخدامها، ولكونها مورداً مائياً رخيصاً، كل هذا دفع الإنسان إلى الإفراط في استهلاك المياه الجوفية دون النظر إلى ما يسببه ذلك من آثار بيئية واجتماعية واقتصادية جدية، ودون التفكير باحتياجات الأجيال القادمة.

من المعروف أن الخزانات الجوفية يتم تغذيتها بمياه الأمطار التي تتغلغل من خلال التربة إلى الطبقات الحاملة للمياه، وفي بعض الأوقات، وخاصة في مواسم الجفاف، تقوم المجاري المائية والأنهار بتزويد الخزانات الجوفية بالمياه. ومن هنا يتضح أن تصريف المياه الجوفية يعوض جزئياً أو كلياً بمياه الأمطار بعملية التغذية، لاسيما الخزانات الجوفية الضحلة، أما الخزانات الجوفية العميقة فإنها قد تحتاج إلى فترة تصل إلى ١٤٠٠ سنة لكي يتم التجديد الكامل لها بمياه الأمطار.

يعاني عدد من الخزانات الجوفية من الاستغلال المفرط بصورة تبدو فيها معدلات التصريف أعلى كثيراً من معدلات التغذية. وهذا يقود إلى انخفاض مستوى الماء الجوفي في المخزون المتبقي، ويجعل تطوير هذا النوع من الخزانات وتنميته غير مستديمين وتُحرم الأجيال القادمة من مورد يستهلكه الجيل الحالي.

ومن الأمثلة على استنزاف الخزانات الجوفية ما يحدث في قطاع غزة حيث تختل العلاقة بين معدلات التصريف ومعدلات التغذية اختلالاً واضحاً، فبينما تكون معدلات التغذية بحدود ٥٠ ـ ٦٥ مليون م٣/سنة، نجد أن معدلات التصريف تكون بحدود ٨٠ ـ ١٣٠ مليون م٣/سنة، وأغلب هذه المياه تُستعمل في أساليب ري غير محكمة.

وفي بعض الأقطار يتم استثمار المياه الجوفية الحفرية بشكل مدروس في محاولة لتسريع معدل التنمية أو تقليل كلفة استيرادات الغذاء، واستثمار المياه الجوفية في ليبيا من خلال مشروع النهر الصناعي

العظيم مثال على ذلك. ومثال مشابه آخر، هو استثمار المياه الجوفية الحفرية في المملكة العربية السعودية التي تغطي ما نسبته ٧٩٪ من احتياجات المملكة، ويبلغ معدل التصريف حوالي ٥٠٠٠ مليون م٣/ سنة، واستعمل ويستعمل الكثير منه في ري القمح.

ومع هذا، وفي حالات كثيرة، يكون استثمار المياه الجوفية أكثر صعوبة؛ وهذا يرتبط بمعدل التغذية الذي لا يكون ثابتاً، وإنما يتغير مع تغير نمط التساقط المطري. وتصبح المشكلة أكثر تعقيداً في بعض المناطق الجافة التي ربما لا تحصل إلا على تغذية واحدة في عقد واحد أو ربما أكثر من عقد، وهذا يعني أن تكرار التغذية في مثل هذه المناطق يكون قليلاً. لذلك فإن تحديد معدل استثمار دائم للمياه الجوفية في مثل هذه الأوضاع يكون صعباً. وحتى عندما تتجاوز معدلات التغذية معدلات التصريف من الخزان المائي، فإن تنمية المياه الجوفية وتطويرها قد يؤديان إلى عدد من النتائج السلبية، فالحفر غير الموجه للآبار مثلاً يمكن أن يقود إلى خسائر خطيرة في الانتاجية والإنتاج غير الاقتصادي في بعض الأماكن. كما أن انخفاض مستويات الماء الجوفي بفعل استنزاف الآبار يمكن أن يؤدي إلى تقليل جريان العيون والتي ربما تكون ضرورية للتزويد بالماء أو لحماية البيئات الرطبة.

إضافة إلى ما يسببه استنزاف المياه الجوفية من حرمان الأجيال القادمة من الاستفادة من هذا المورد الحيوي، فإنه يخلق مشكلات اجتماعية وبيئية جدية نستعرضها فيما يلي بيانه:

مشكلات العدالة الاجتماعية

تُعدّ المياه الجوفية مورداً يصعب تحديد الملكية القانونية له، وكثيرا ما ينظر إلى المياه الجوفية على أنها ملكية عامة، يستطيع مستخدموها الانتفاع من هذا المورد بينما يعاني الآخرون من نتائج أفعالهم. فهم مثلاً يستطيعون أن يواصلوا سحب المياه بينما آثار تناقص الماء وتلوثه تعود إلى الآخرين. وعلى العكس ربما يُحرمون هم من هذا المورد من خلال أفعال الآخرين. علاوة على ذلك فإنه من الصعوبة تحديد مسؤولية المتسبب في تدهور الخزان المائي ومن هو المتأثر بذلك، لذلك يكون من الصعوبة تطبيق مبدأ معاقبة المتسبب.


الأجيال القادمة تتحمل نتائج استنزاف المياه الجوفية وتلوثها

الآثار البيئية لاستنزاف المياه الجوفية

يقود الاستغلال المفرط للمياه الجوفية إلى مشكلات بيئية جدية تضاف إلى المشكلات الاجتماعية في بعض الأماكن، وتتضمن هذه المشكلات ما يلي:

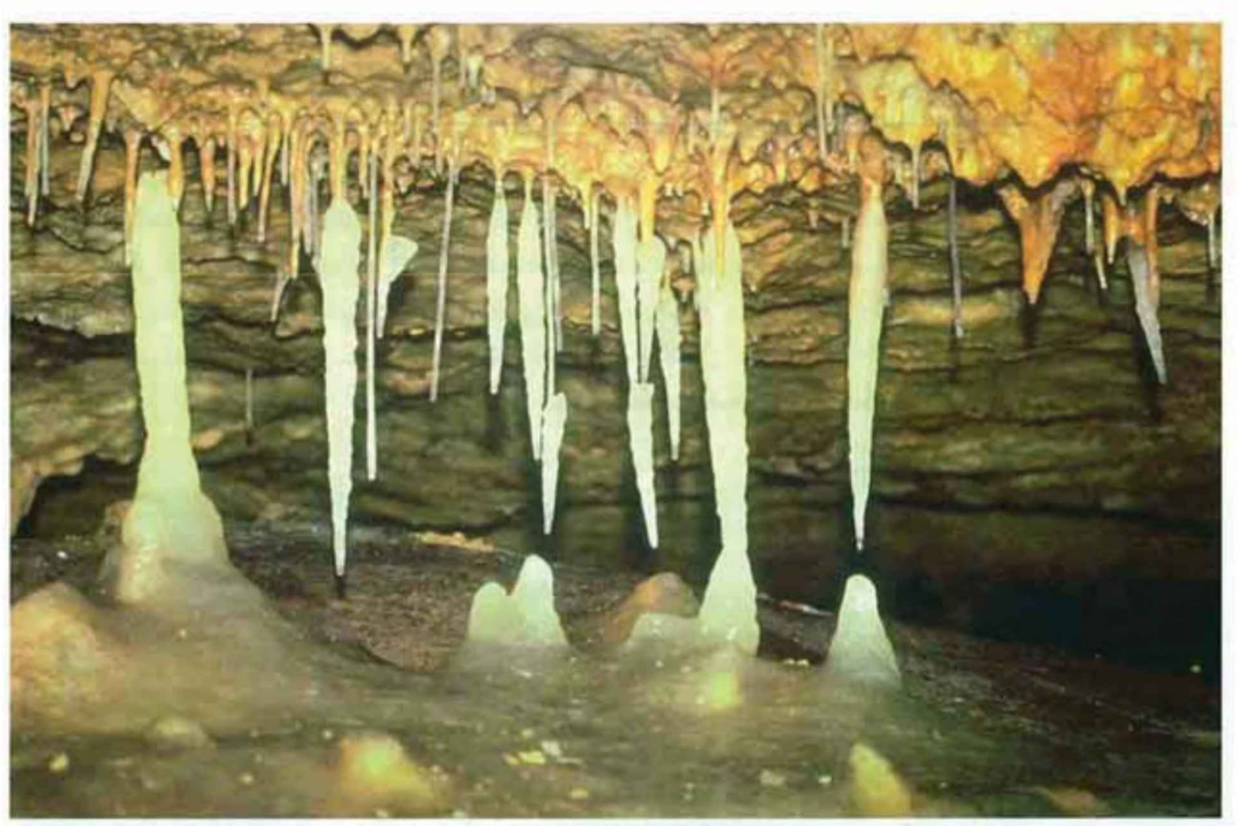
- انخساف (غور) الأرض.

أدى الإفراط في سحب المياه الجوفية في مدينة مكسيكو إلى هبوط مستوى الماء الجوفي تحت أجزاء من المدينة، والذي أدى بدوره إلى حدوث انخسافات أرضية واسعة الانتشار. وينجم الانخساف عن خروج الماء من الفراغات في الطبقة الحاملة للمياه، مما يدفع الصخرة إلى التماسك والتراص. وتعرضت أريزونا إلى مئات الشقوق في الأرض نتجت عن الاستغلال المفرط للماء والتي مزقت الطرق والسكك الحديدية والمساكن.

واستنادا إلى الوكالة الوطنية لحماية البيئة الصينية، تتعرض ٤٥ مدينة الآن لشكل من أشكال انخساف الأرض نتيجة الاستغلال المفرط للمياه الجوفية.

- تداخل (اندفاع) الماء المالح

تحت ظروف اعتيادية تنصرف مياه الخزانات الساحلية العذبة إلى البحر. ولكن في المناطق التي يحصل عندها استغلال مفرط للمياه الجوفية، تصبح هذه العملية معكوسة، أي إن المياه المالحة تتحرك باتجاه اليابسة وتلوث الخزان المائي. حدث اندفاع الماء المالح في أماكن كثيرة من العالم. ففي مناطق كثيرة في شبه الجزيرة العربية، خاصة على طول الساحل الشرقي، أدى الإفراط في سحب مياه الخزانات الجوفية إلى تسرب الملوحة - بآثارها المدمرة - خلال باطن الأرض. وكان من نتيجة ذلك أن كثيراً من آبار



لتلوث المياه الجوفية أسباب كثيرة

المياه في البحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وعُمان تم التخلي عنها، بسبب تداخل مياه البحر في مياهها.

وتبدو هذه المشكلة بوضوح في العاصمة الفلبينية مانيلا التي أدى الاستغلال المفرط للمياه الجوفية فيها إلى انخفاض مستوى الماء الجوفي بحوالي ٥٠ ـ ٨٠ متراً.

ونتيجة لذلك اندفع الماء المالح نحو الخزان الجوفي تحت المدينة إلى مسافة تزيد على ٥كم. وفي المدينة وفي أجزاء من الخزان المائي تحتها، والذي هبط فيه مستوى الماء بمقدار ٦٠ متراً، ارتفعت تراكيز الكلوريدات من ١٠ ملغم/لتر إلى ٦٠٠ ملغم/لتر. وهنا لم يأت الملح من البحر وإنما من الماء الحفري انحصور عميقاً في الخزان المائي. وسببت زيادة الملوحة التخلي



النفايات تؤثر في المياه الجوفية

عن عدد من الآبار.

- تهديد الأراضي الرطبة

يؤدي انخفاض مستوى الماء الجوفي إلى انخفاض أو توقف تصريف المياه الجوفية ومن ثم جفاف الأرض؛ ولهذا تأثيرات خطيرة في الأراضي الرطبة التي تمثل واحدة من الأنظمة البيئية القليلة التي لا تزال موطناً لأعداد كبيرة من الأنواع النباتية والحيوانية التي لا توجد في مكان آخر.

تتعرض الآن أعداد من مناطق الأراضي الرطبة للتهديد من الاستغلال المفرط للمياه الجوفية، ولا يقتصر التهديد على مواطن عدد من الأنواع النباتية والحيوانية النادرة، وإنما يؤثر في الدور المهم الذي تؤديه في تنمية مياه البحيرات الداخلية. وإزالتها تقود إلى مشكلات جدية وخطيرة.

بديلة وكلفة معالجة الخزانات الملوثة تكون عالية جداً. ولسوء الحظ فإن الخزانات على امتداد العالم أصبحت ملوثة ويزداد تلوثها نتيجةً لنشاطات الإنسان.

وسنناقش فيما يلي مصادر التلوث التي تعاني منها المياه الجوفية.

. التلوث الناتج من التمدن

أدخل التمدن عدداً من التغييرات رئيسة، تلوثت بفضلات الإنسان. وفي جميع المدن الكبيرة في العالم النامي يتم التخلص من الفضلات من خلال إلقائها في أحواض صغيرة تجاور المنازل، وتأخذ هذه الفضلات طريقها باتجاه الخزانات. ان هذا النوع من طرق التخلص من مياه المجاري يسبب تلوثًا حيويًا وكيماويًا للمياه الجوفية بشكل جدي، وذلك



فضلات المصانع تلوث معظم أنهار العالم

تلوث المياه الجوفية

يُنظر إلى تلوث المياه الجوفية على أنه غادر ومكلف، غادر لأنه ينمو تدريجياً على امتداد سنوات متعددة قبل أن يبدو واضحاً في المياه المستعملة، وقد يكون التلوث قد وصل إلى مرحلة متأخرة يصعب معها معالجة المياه وإعادة استعمالها.

ومُكلف بسبب أن كلفة إيجاد موارد على الخزانات الجوفية التي تقع تحت المدن؛ فقد تم تعديل أو استبدال آليات التغذية الطبيعية وأُدخلت آليات جديدة. فالارتشاح والنز من شبكات الماء وأنظمة الصرف الصحي أصبحت جزءاً مهماً من دورة الماء في بيئة المدن؛ فكثير من الخزانات تحت المدن في البلدان النامية التي تفتقر إلى شبكات مجارٍ نتيجة الارتشاح المستمر إلى الخزانات الجوفية.

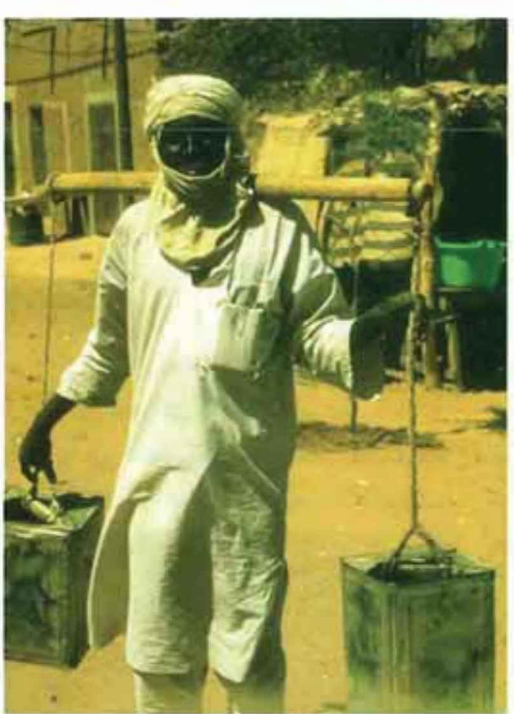
وقد تكون أشكال أخرى من فضلات الإنسان أكثر خطورة، بسبب تصريفها مباشرة إلى داخل الأرض حاملة معها الجراثيم المسؤولة عن أمراض عدة تصيب الإنسان، ولما كانت بعض من المدن تُزوّد بماء الشرب من آبار ضحلة، وعدد منها

غير محمي من الملوثات بصورة مناسبة من الملوثات، نجد هذا الماء ملوثًا بكتيريًا.

لقد أظهرت مسوحات نوعية المياه الجوفية في بعض المدن في الهند والصين وسيريلانكا ارتفاع تراكيز النترات فوق المستويات التي تسمح بها منظمة الصحة العالمية، علمًا بأن مصدر هذا الملوث هو مياه الصرف الصحي غير المعالجة التي تُلقى مباشرة وتأخذ طريقها باتجاه المياه الجوفية الضحلة. وقد تقود أنظمة الصرف الصحي الموضعية في مناطق متعددة إلى زيادة في تراكيز الكربون العضوي والتقليل من تراكيز الأوكسجين، وهذا بدوره يقود إلى إنتاج مركبات حديدية أكثر قابلية للذوبان مسببة ارتفاع تراكيز الحديد إلى مستويات غير مقبولة في المياه الجوفية. وربما ترتفع أيضاً تراكيز الكبريتات المشتقة من المنظفات التي تذهب إلى مياه المجاري.

وتعدّ النفايات الصلبة المنزلية (القمامة والورق والخشب والأقمشة ومخلفات الحدائق والمعادن والبلاستيك والسيراميك والزجاج ومواد أخرى) ملوثًا خطيرًا للمياه الجوفية. وتبرز أسوأ المخاطر في المناطق التي تفتقر إلى مواقع محددة ومسيطر عليها للتخلص من النفايات، وكذلك عند مواقع التخلص من النفايات الصناعية الخطيرة التي يتم اختيارها على أساس قربها من موقع إنتاج النفايات، وليس لملاءمتها لطمر النفايات.

وفي دراسة أجريت لستة مواقع نفايات في إحدى المدن الهندية، وجد أن نوعية المياه الجوفية تتغير مع البعد عن مواقع النفايات هذه، وأظهرت آبار على مسافة ٤٥٠ متراً من مواقع النفايات مستويات عالية من الكلوريدات والكبريتات والبيكربونات والأمونيا، على الرغم من أن هذه المواقع استخدمت منذ ١٢سنة فقط. وتكون المخاطر أكثر سوءاً، لكون التخلص من هذه النفايات كثيراً ما يتم في الأراضي المنخفضة التي يكون مستوى الماء الجوفي عندها مرتفعاً، ومن ثم يكون التلوث المباشر للمياه الجوفية محتملاً.



لا تزال الوسائل البدائية لاستخراج الماء منتشرة في كثير من أجزاء العالم

التلوث الصناعي

تلوّث الصناعات المختلفة المياه عندما ترمى الفضلات والنواتج الجانبية فيها مباشرة سواء إلى مجاري المياه أو إلى أحواض خزن، أو بعد جرفها بالماء بعيداً عن أماكن التصنيع، وهذه الفضلات هي ملوثات نوعية تتعلق بنوع الصناعة ذاتها. وتُعدّ النفايات الصناعية السائلة أكثر خطورة على المياه بشكل عام، والمياه الجوفية بشكل خاص. ولا تأتي الملوثات الأسوأ من الصناعات الكبيرة، لكونها تقوم بإجراء معالجة للنفايات السائلة، وإنما تأتي من الصناعات الصغيرة (الورق والأنسجة ودباغة الجلود والفلزات وتصليح الآليات)، وتولد مثل هذه الصناعات نفايات متنوعة تحتوي على أحماض وزيوت ووقود ومذيبات، يتم تصريف عدد منها مباشرة إلى الأرض أو مجاري المياه القريبة. وتساهم الصناعات الخدمية (معامل التصوير والمصانع وورش تعدين الفلزات أيضاً) في نفايات تؤثر في نوعية المياه الجوفية.

وتعد المذيبات المكلورة من الملوثات الغادرة بسبب ديمومتها وسميتها وطريقة انتقالها في الخزانات الجوفية. ففي مسح أجري لـ ١٥ مدينة يابانية، وجد أن ٣٠٪ من كل مخزونات المياه الجوفية تلوثت بالمذيبات المكلورة، وفي ٣٪ من النماذج التي حُللت وجد أن تراكيزها تجاوزت المستويات المسموح بها من منظمة الصحة العالمية (٣٠ملغم/لتر). وفي بعض الحالات وجدت المذيبات في مياه جوفية على مسافة ١٠كم من موقع تصريف هذه المذيبات.

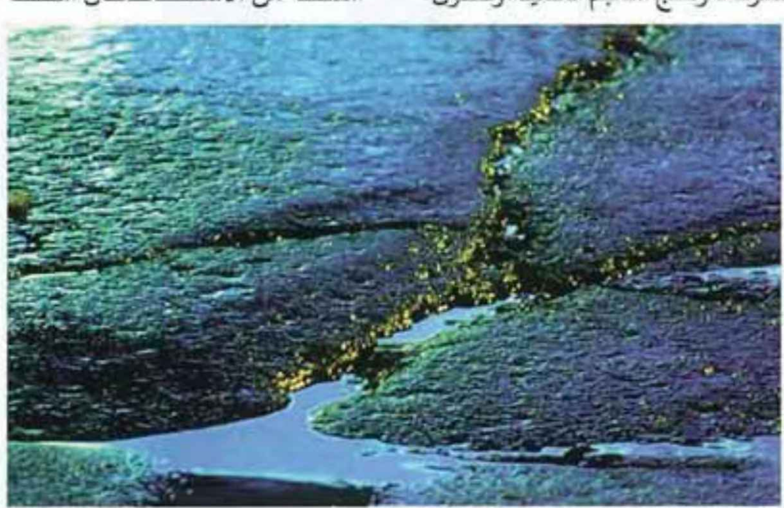
وتحتوي النفايات الصناعية أيضاً على تراكيز عالية من الفلزات مثل

(الزنك والحديد والكروم والكادميوم) وكثير منها تكون سميتها عالية، وحتى ولو كانت بتراكيز منخفضة في المياه الجوفية فإنها تشكل تهديداً جدياً لصحة الإنسان.

وتؤدي عمليات استغلال النفط وعمليات التعدين إلى مخاطر خاصة للمياه الجوفية. ففي المقالع والمناجم المفتوحة، تزال طبقة الحماية فوق الخزان الجوفي تاركةً الخزان عرضة للتلوث. وتُنتج المناجم العميقة وحقول البترولية من المصانع البتروكيماوية في الأرض ولوثت المياه الجوفية على مساحة أكبر من ١٠ اكم٢. وفي تايلاند أصبح عدد من الآبار المستخدمة للشرب ملوثة بالزرنيخ المترشح من نفايات عمليات التعدين الصغيرة.

التلوث الزراعي

الزراعة مسؤولة عن التلوث الخطير في عدد من الخزانات الجوفية في مناطق كثيرة في العالم. وتنشأ هذه المشكلة من الاستعمال المكثف



انحسار الماء ظاهرة تهدد العالم

النفط سوائل يتم التخلص منها عند السطح، وهذه السوائل قد تلوث الخزانات الضحلة، بالإضافة إلى ملوثات من أكوام السلع المعطوبة التي ربما تترشح إلى المياه الجوفية. وسُجلت عدة حالات خطيرة لتلوث المياه الجوفية من المصادر المذكورة أعلاه، ففي مدينة زاي بو في شمال شرق الصين، تغلغلت الفضلات

للمخصبات الغنية بالنتروجين والمبيدات. وانتشرت هذه المشكلة من البلدان الصناعية إلى البلدان النامية وخصوصاً في آسيا التي اعتمدت في زيادة إنتاجية المحاصيل الزراعية على الاستخدام المكثف للمخصبات. فقد تجاوزت كمية المخصبات المستخدمة في بعض البلدان الآسيوية مثل: الصين واليابان والكوريتين، مثيلاتها في أوربا وأمريكا الشمالية. ويكون هذا النوع من التلوث أكثر سوءاً في الترب ذات النفاذية العالية، حيث يتم غسل المخصبات بسرعة متخذة طريقها باتجاه الخزانات.

هناك أكثر من ٣٠٠ نوع من المبيدات المستعملة الآن، وهذه المواد سامة وثابتة. والتراكيز المسموح بها في مياه الشرب تراوح بين ١ر. و ١٠٠جزء/بليون.

ويزيد استخدام المبيدات المختلفة من تلوث المياه الجوفية خصوصاً إذا كان مصحوباً بري شديد للمنطقة المزروعة المعالجة بالمبيدات الحشرية، مما يسرّع وصول الكيماويات الملوثة إلى المياه الجوفية.

عرضنا فيما سبق حجم المشكلتين اللتين تعاني منهما المياه الجوفية، ولكي نضمن استمرار هذا المورد الحيوي الثمين وديمومته، ولكي تستفيد منه الأجيال القادمة، لابد من وضع الخطط العلمية القابلة للتطبيق لحماية المياه الجوفية، ولهذا الغرض توجد وسيلتان أساسيتان لحماية المياه الجوفية هما: تنظيم استغلالها والسيطرة على أسباب تلوثها. ولكي نحدّد مدى نجاح خطط حماية المياه الجوفية وللحصول على إنذار مبكر للتهديدات المستقبلية المحتملة للمياه الجوفية لابد من وضع برامج وطنية وإقليمية للمراقبة والتقويم لمشكلتي الاستنزاف والتلوث.

المراجع

- المياه في شبه الجزيرة العربية، بحث منشور في كتاب: المياه في العالم العربي - آفاق واحتمالات المستقبل. جميل الطوي، محمد عبدالرزاق، بيتر روجرز وبيترليدون (الناشرين) ترجمة مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- تلوث البيئة - أسبابه، أخطاره، مكافحته. فؤاد حسن صالح، مصطفى أبو قرين: منشورات الهيئة القومية للبحث العلمي، ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- Sadeq, H T., 1999, A rare and Precious resource, The Unesco Courier February, 1999, PP: 18-20
- United Nations Enviroment Programme, 1996, Ground Water: A Threatened Rresource, Nairobi, UNEP, p36.

مسابقة الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٨٠)

شوال ١٤٢٠هـ - يناير/فبراير ٢٠٠٠م

الفائز الأول: **منال علي عبده عوضين - مصر.**

الفائز الثاني: **عبدالعزيز صالح محمد السويح - السعودية.**

الفائز الثالث: **محمد الحبيب سنان - تونس.**

الفائز الرابع: **عطا الله السيد أحمد هيكل - مصر.**

حل مسابقة العدد (٢٨٠)

تأسست مطبعة الجوائب على يد: **أحمد فارس الشدياق.**

أنشئ أول كرسي للدراسات العربية في جامعة لايدن عام: **١٥٨٦م.**

تشارلز ساندرز بيرس: **فيلسوف وفيزيائي أمريكي مؤسس الفلسفة الذرائعية أو البراغماتية.**

إليسمير: **جزيرة في أقصى الشمال من كندا.**

ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها
فُرجتْ وكنت أظنُّها لا تفرجُ

قائل البيت:

إبراهيم بن العباس الصولي

مسابقة الشهر (العدد ٢٨٣)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) بدأت الطباعة الحديثة في المملكة العربية السعودية

☐ **في المطبعة الميرية بمكة المكرمة سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م**

☐ **في مطبعة الترقي الماجدية بمكة المكرمة سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.**

(٢) نياسا لاند هو ☐ **الاسم السابق لجمهورية مالاوي** ☐ **موطن لإحدى القبائل، اشتق منه اسم نيوزلنده.**

(٣) الفُلمار ☐ **طائر بحري من طيور القطب الشمالي** ☐ **مادة لدائنية صامدة للحرارة تجعل صفائح لتلبيس الأثاث.**

(٤) ميلان كونديرا ☐ **نحات إيطالي يعد مؤسس فن النحت الحديث** ☐ **روائي وكاتب تشيكي معاصر.**

(٥) من قائل هذا البيت: قال البشاشةُ ليس تُسعِدُ كائنًا يأتي إلى الدنيا ويذهبُ مرغما ☐ **خليل مطران** ☐ **إيليا أبو ماضي.**

الاسم: .... ص.ب: ....

العنوان: .... الرمز البريدي: ....

المدينة: .... هاتف: ....

الدولة: .... ناسوخ: ....

شروط المسابقة

- **الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.**
- **لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.**
- **إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.**
- **أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.**
- **أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....)**

طريقة اختيار الفائزين

- **تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.**
- **يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.**
- **تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.**
- **ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.**

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

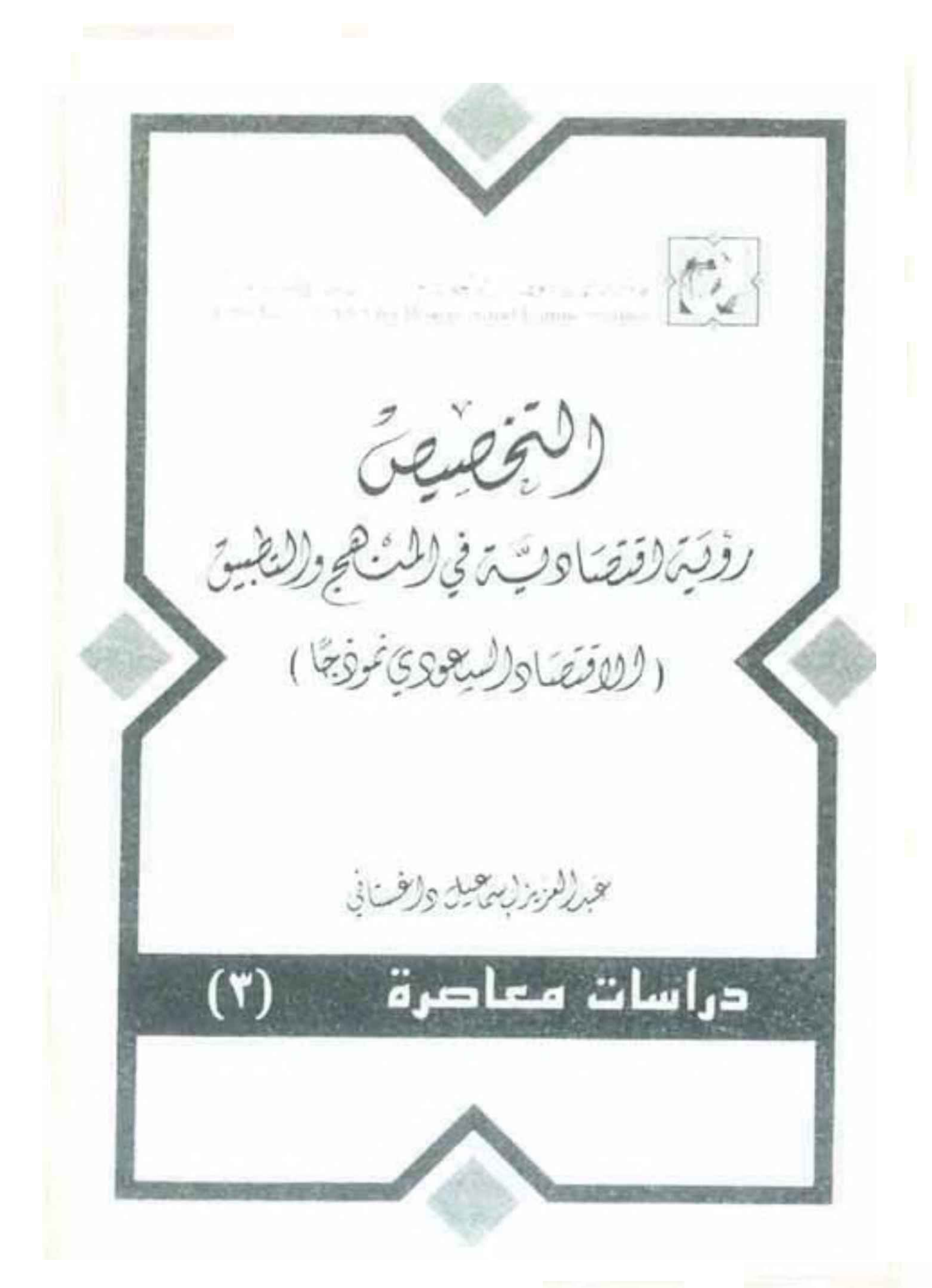
عنوان المجلة:

ص.ب (٣) - الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

صدر حديثاً عن

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

العدد الثالث من سلسلة «دراسات معاصرة »



التخصيص رؤية اقتصادية في المنهج والتطبيق (الاقتصاد السعودي نموذجاً)

ترسال الدراسات والبحوث والمراسلات إلى :
العنوان المذكور في الأسفل نفسة مع عنونتها إلى إدارة البحوث والدراسات

يطلب من :إدارة التسويق، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ص.ب:٥١٠٤٩ الرياض :١١٥٤٣

هاتف: ٤٦٣١٦١٣ ناسوخ:٤٦٥٩٩٩٣

مفهوم الذات

بين الطفولة المتأخرة والمراهقة المبكرة

دعد الشيخ
دمشق - سورية

يعد مفهوم الذات موضوعًا مركزيًا للعديد من الدراسات النفسية والاجتماعية، وينظر إليه معظم المشتغلين في مجال علم النفس والصحة النفسية على أنه يمثل حجر الزاوية في فهم الشخصية، إذا لا يمكننا أن نحقق فهمًا واضحًا للشخصية أو للسلوك الإنساني بوجه عام دون أن نضمن متغيراتنا مفهوم الذات(١).

إن تأثير مفهوم الذات في نمط السلوك والتكيف النفسي جعله مجالاً لدراسات كثيرة، منها دراسة مارتير واستنر Martire, Steiner اللذين وجدا علاقة إيجابية بين مفهوم الذات والتكيف(٢) ولقد وجد دوماس Dumas أن النظرة الإيجابية إلى الذات تهيئ لصاحبها قدرة أفضل على التعامل الناجح مع الحياة(٣) وأشار باندورا Bandura إلى أن مفهوم الذات يؤثر في تقدير الفرد لنفسه(٤) ورأى فيتش Fitch أن الأفراد ذوي مفهوم الذات المنخفض يحبون أنفسهم أقل من الأفراد ذوي مفهوم الذات العالي(٥) كما أوضحت دراسة كوبرسمث Smith أن صورة الطفل عن ذاته وحكمه عليها لا يؤثران في سلوكه فحسب، بل يؤثران في حياته أيضًا؛ فالأطفال الذين يقدرون أنفسهم



إيجابيا يميلون إلى السلوك بطريق تحقق لهم التقبل والتقدير، ولا يجدون صعوبة في تكوين صداقات، وهم أكثر ثقة بأنفسهم(٦).

مطلب اجتماعي مهم

وإذا كان مفهوم الذات هو الدور البارز في مراحل حياة الفرد، فإن هذا الدور يبدو أكثر وضوحًا في مرحلة الانتقال من الطفولة المتأخرة إلى المراهقة المبكرة. فما إن تبدأ التغيرات الجسمية (الفسيولوجية) التي ترافق مرحلة البلوغ حتى يبدأ المراهق في تكوين صورة جديدة عن قدراته وإمكاناته متأثرًا إلى حد كبير بأوصاف الآخرين المحيطين به.

إن أهمية مفهوم الذات في مرحلة

الانتقال هذه، وحاجة المراهق المتنامية لتكوين مفهوم واضح عن ذاته، مع ما يترتب على ذلك من نتائج تترك بصماتها على مسيرة النمو اللاحقة، يدعو إلى الاعتقاد بأن العمل على معرفة مفهوم الذات كما تقيسه أدوات توضع لهذه الغاية، وتبيان فعاليته المستمرة (ديناميته) وفق متغيرات العمر والجنس والثقافة..إلخ، أمور لها مكانتها وتصلح بجدارة لتكون موضوعاً لبحث علمي جاد من المتوقع في أن تسد نتائجه فراغاً في مكتبتنا العربية يلمسه المتخصصون في ميادين

معرفة المعلم لخصائص طلابه واتجاهاته الإيجابية نحوهم تعزز ثقتهم بأنفسهم

السلوك وأساليب تعديله، الأمر الذي تكمن فيه أهمية متفردة، ويحمل في طياته قيمة ثقافية واجتماعية تؤدي بشكل ما وبمقدار ما إلى رفع مستوى الوعي النفسي الذي يُعدّ، مع أشكال الوعي الأخرى السياسية، والصحية، والحقوقية.. إلخ، قاعدةً للتغير الاجتماعي الإيجابي، ومنطلقاً لفهم (ميكانيزمات) الشخصية وتوجيهها في محيط يتبدل بسرعة، وتتنوع فيه أساليب التكيف التي تتعدل وتتغير تحت تأثير مفهوم الذات المباشر لدى كل فرد.

وتحقيق القدر المناسب من الصحة النفسية للأطفال والمراهقين مطلب اجتماعي مهم، لأن مفهوم الذات يعكس تقييماً ثابتاً نسبياً للذات قائماً على نماذج مشتقة من الخبرات الاجتماعية.

ومعرفة أثر العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع في مفهوم الذات عند الطفل والمراهق توفر قاعدة ضرورية للطالب، والمعلم، والوالدين، والقائمين على الإرشاد والتوجيه التربويين، إذ إن اتجاهات الطالب الإيجابية نحو ذاته تجعله أكثر ميلاً إلى عزو النتائج الإيجابية في عمله إليه مما يرفع من مستوى تحصيله، ويؤثر في سلوكه، وهذا ما أشارت إليه نظرية التوازن لـ: (هيدر Heider) إذ رأى أن تكوين المتعلم اتجاهاً إيجابياً مسبقاً نحو ذاته يجعله أكثر ميلاً إلى عزو النتائج الإيجابية إليه، وعدم عزو السلبية منها. أما النظرة السلبية إلى الذات فإنها تجعل الفرد أقل قدرة على العمل المثمر(٧).

وقد أكد روزنبرغ Rozenberg أن اختلاف الطلاب في تفسير الحقيقة السببية لأدائهم يعود إلى تباينهم من حيث مفهوم الذات(٨).

أما بالنسبة إلى المعلم، فإن معرفته لخصائص الطلاب واتجاهاته الإيجابية نحوهم تعزز ثقتهم بأنفسهم، ورغبتهم في العمل والتحصيل، وتوفر لهم فرصاً أفضل للنجاح، كما تساعد على تنمية مفهوم موجب للذات عندهم، في حين تؤدي اتجاهاته السلبية نحوهم إلى عكس ذلك.

وهذا ما يؤيده بحث هورلوك Hurlock الذي ذهب إلى أنه إذا اعتقد الطالب أنه جيد وأن معلمه يراه كذلك فإن ذلك يساعد في تعزيز فكرته عن ذاته(٩). أما الوالدان فهما المصدر المهم الذي يُعِدّ الفرد للاستجابة بطريقة إيجابية أو سلبية للخبرات الحياتية، وهما اللذان يهيئان الجو النفسي والاجتماعي الذي يعيشه الطفل ويشكل من خلاله مفهومه عن ذاته، وقد أكد بولبي Bolbye أن أساس الصحة النفسية والعقلية والنمو النفسي السوي للطفل هو أن يمارس ألواناً من العلاقات الحارة والحميمة مع والديه(١٠).

وفي مجال الإرشاد والتوجيه يساعد تعرف خصائص الطلاب وأساليب إدراكهم لذواتهم، وأثر البيئة الاجتماعية في تشكل مفهوم الذات، كل ذلك يساعد المرشدين والمربين على تقديم الخدمات الإرشادية بشكل مناسب يسهم في توجيه العملية التربوية نحو الأفضل.

خطوات البحث العلمي

باستخدام منهج البحث الوصفي التحليلي لتعرُّف مفهوم الذات لدى الطلاب، وتحديد العلاقات بين المتغيرات، ثم القيام ببحث علمي على عينة ممثلة للطلاب بين ١١ - ١٥ سنة في محافظتي دمشق وريف دمشق، اعتمدت الباحثة التوزع الجغرافي للريف والمدينة، كما أخذ في الحسبان شمول العينة للمدارس المختلطة والمدارس غير المختلطة، وبسبب ضخامة المجتمع الأصلي

الذي بلغ عدد أفراده (٩٠٠٨٨) طالبًا وطالبة تم الاكتفاء بنسبة ١,٥٪ من هذا المجتمع وبذلك بلغ عدد أفراد عينة البحث (١٣٤٩) طالبًا وطالبة.

واستخدم اختبار مفهوم الذات بجوانبه الجسمية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، وتم إعداده وفق خطوات علمية متسلسلة.

كما تمّ استخدام الملاحظة والمقابلة أثناء التطبيق.

صدق الاختبار

من الطرق التي يمكن إن يلجأ إليها الباحث للحصول على صدق المحتوى اللجوء إلى عدد من المحكّمين ليقوموا بالحكم على أي بند: هل يمثل تمثيلا صادقًا ما وضع له، وهل يفيه حقّه؟ (١١).

وبناء على ذلك تم استخراج صدق الاختبار عن طريق صدق المحتوى، حيث قامت الباحثة بعرض عبارات الاختبار على أربعة عشر محكمًا من السادة الأساتذة والمدرسين في كلية التربية بجامعة دمشق لبيان رأيهم في فقرات الاختبار ومدى صلاحيتها في قياس ما وُضعت لأجله.

واستخرج ثبات الاختبار بإعادة إجرائه على العينة نفسها، وكان الفاصل بين التطبيقين ثلاثين يومًا، وقد بلغ معامل الثبات باستخدام معامل الارتباط (بيرسونار) ٨٢٪ للمقياس الكلي.

نتائج البحث

أولاً: عند الموازنة بين العينة الكلية للطفولة المتأخرة والعينة الكلية للمراهقة المبكرة بخصوص مفهوم الذات العام، بينت الإحصائية عدم وجود فرق ذي دلالة بين العينتين.

ثانيًا: أوضحت الموازنة بين عينة الطفولة المتأخرة للإناث وعينة المراهقة المبكرة للإناث أن مفهوم الذات العام لدى العينة الأولى أعلى منه لدى العينة الثانية.

ثالثًا: أكدت الموازنة بين عينة الطفولة المتأخرة للذكور وعينة المراهقة المبكرة للذكور بخصوص مفهوم الذات عدم وجود فرق بين العينتين.

رابعًا: أشارت الموازنة بين عينة الطفولة المتأخرة وعينة المراهقة المبكرة للإناث في الريف إلى أن مفهوم الذات لدى العينة الأولى أعلى منه لدى العينة الثانية.

خامسًا: بيّنت الموازنة بين عينة الطفولة المتأخرة وعينة المراهقة المبكرة للإناث في المدينة بخصوص مفهوم الذات عدم وجود فرق بين العينتين.

سادسًا: أشارت الموازنة بين عينة الطفولة المتأخرة وعينة المراهقة المبكرة للذكور في المدينة إلى أن مفهوم الذات لدى العينة الأولى أعلى منه لدى العينة الثانية.

سابعًا: أوضحت الموازنة بين عينة الطفولة المتأخرة وعينة المراهقة المبكرة للذكور في الريف أن مفهوم الذات لدى العينة الثانية أعلى منه لدى العينة الأولى.

دلالات نتائج البحث

تتفق نتائج الفرضيات السابقة مع خصائص النمو الاجتماعي لمرحلة الطفولة المتأخرة بأن الأسلوب المميز في التفاعل الاجتماعي لهذه المرحلة هو العمل على اكتساب المعايير والقيم التي يشجع عليها الوسط الاجتماعي، إن التصورات التي يكونها الطفل عن ذاته تشمل أمورا تتفاوت في أهميتها من مرحلةإلى أخرى، وتعبر عن الصورة التي يكونها عن ذاته من حيث القوة أو الضعف، الجاذبية أو عدم الجاذبية، كونه يشعر أنه محبوب ومرغوب فيه اجتماعيًا أو لا ... إلخ.

إن هذا المفهوم عن الذات يتكون تدريجيًا عند الطفل، وهو يبنى نسبيًا على التقديرات التي يعكسها الآخرون الذين يتعامل معهم، وإذا

المفهوم عن الذات يتكون تدريجيًا عند الطفل، ويبنى على التقديرات التي يعكسها الذين يتعامل معهم

كان الطفل في مرحلة الطفولة المتأخرة لم يتعرض بعد للتغيرات الجسدية (الفسيولوجية) وما يرافقها من ظهور حاجات خاصة بها، فإنه يشعر أنه ما زال قادرا على التكيف وقبول الآخرين له، وبذلك تكون تصرفاته منبعثة من داخله تتحكم بها القيم الاجتماعية بصورة غير مباشرة عن طريق التشجيع والتعامل الحسن، مما ينمّي مفهوم الذات. إنه يكتسب القيم الاجتماعية والوالدية بطريق عفوية، وينتظم معظم سلوكه حول الجهود التي

يبذلها لحفظ الذات وتعزيزها، ويصبح قبوله لما يريد الآخرون وقبولهم لسلوكه بمنزلة معزز لإحساسه بذاته وتقبله لها.

ويكون للنمو السريع الذي يحدث مع بدء مرحلة المراهقة وما يرافق هذا النمو من ظهور حاجات جديدة سببا في بحث المراهق عن هويته الجديدة، وعن مكانته الاجتماعية، إنه يتأرجح بين جماعتين هما جماعة الصغار وجماعة الراشدين، فهو سلوكيا ما زال في مرحلة الطفولة المتأخرة، ولكنه جسديا قد وصل إلى مرحلة المراهقة المبكرة، وفي هذه المرحلة الانتقالية يتحتم عليه أن يتخلى عن بعض الأنماط السلوكية التي اعتادها ، وأن يكتسب أنماطا سلوكية جديدة في إطار توافق اجتماعي مقيد بمعايير المجتمع لا بمعايير المراهق. إن على المراهق الآن أن يسلك أنواعا من السلوك تتحكم بها اتجاهات الكبار غير الثابتة في معظم الأحيان، والتي غالبا ما تتجاهل الطبيعة الجسدية والنفسية، كما تغفل الصراع الذي يعيشه المراهق حول أسلوب إشباع حاجاته، وخصوصا الحاجة الجنسية.

إن اختلاف النظرة إلى المراهق وتناقض المسؤوليات التي تعطى له، وعدم السماح له بممارسة الأدوار التي يفضلها، يخلق عنده مشكلات نفسيه واجتماعية، وما الثورة والتمرد وبوادر العدوانية والقلق سوى رد فعل لما يلاقيه المراهق من الأفراد الذين يتعايش معهم، وهذا ما ينسجم مع نتائج بحث هيرلوك Hur-lock التي ترى أن أول عامل من العوامل التي تؤدي إلى شدة قابلية الانفعال عند المراهق هو الضغوط الناشئة عن إشراف الأبوين، وذلك لأن بعض الآباء، في ملاحظتهم للمراهق وهو يحاول التكيف مع الظروف الاجتماعية الجديدة عليه يعرفون أن المراهق كثيرا ما يخفق، وقد لا ينجح إلا نجاحا جزئيا في هذه المحاولات، وبدافع من عطفهم عليه يواصلون توجيهه كما لو كان طفلا حتى يجنبوه الإخفاق أو الأخطار، كما أن بعض الآباء الآخرين لا يستطيعون ملاحظة التغيرات السريعة التي تصاحب نمو المراهق، ونتيجة لذلك يخفقون في تعديل معاملتهم له تعديلا يمكنه من مواجهة هذه التغيرات، والمراهق في كلتا الحالتين يثور على هذه المعاملة لأنه لم يعد طفلا، وفوق ذلك يسيء تفسير المعونة الأبوية التي تقدم له(١٢).

معاملة المراهق على أنه لا يزال طفلاً تثير قلقه وتجعله يرفض تقاليد البيئة المحيطة به وقيمها

وغالبا ما يلجأ المراهق إلى أساليب تكشف عن قلقه، وعن بحثه عن شيء لم يصل إليه بعد، فيرفض تقاليد البيئة المحيطة وقيمها، ويشعر بالغبن الذي يحيطه به المدرسون والأهل، مما ينعكس سلبا على قيامه بواجباته ومشاركته في النشاطات الاجتماعية، ويؤدي من ثم إلى تشكل مفهوم منخفض للذات.

أما بشأن ارتفاع مفهوم الذات لدى عينة المراهقة المبكرة للذكور في الريف كما أشارت إلى ذلك نتائج الفرضية السابقة، فيمكن أن يفسر من حيث توافر عناصر أساسية في المجتمع الريفي تساهم في إشباع حاجات المراهقين في هذه المرحلة، وتعمل على تنمية مفهوم عال للذات لديهم، وهي من وجهة نظر الباحثة كالتالي:

ـ إن أسلوب تنظيم أوقات الفراغ للمراهقين الذكور في الريف أمر ينبعث من مدى حاجتهم وتحت إشرافهم دون التدخل المباشر للكبار في أغلب الأحيان، وهذا ما يخفف عن المراهق وطأة الضيق والتوتر النفسي، كما يرفع معنوياته ويحرره من النزعات الأنانية، ويهيئه لمعرفة قوانين الجماعة واحترامها، كما يعمل على التخفيف من حدة الضغوط الجنسية التي يشعر بها المراهق، وهذا يعني أن مشكلة النشاط الاجتماعي الترفيهي مشكلة نادرة عند مراهقي الريف، إذ لا توجد موانع تحول بين الفتى وبين الإسهام بالنشاطات الاجتماعية الترفيهية التي يبتكرها المراهقون غالبا والتي تكون منبعثة من شعورهم بالحاجة إليها، ومن ثم. فإن التصريف الزائد للطاقة يكون بالطريقة التي يراها المراهق مناسبة له، دون أن تفرض عليه من الآخرين.

- إن طبيعة العلاقات الاجتماعية في الريف، وكثرة الأصدقاء والأقرباء تشعران المراهق بندرة الخطر والتهديد، فهو دائماً يستطيع أن يجد من يشاركه همومه ويستمع إلى شكواه، ولهذا فإن المراهق في الريف لا يشعر بالحاجة إلى الانغماس في الخيال وأحلام اليقظة لإشباع حاجاته وتلبية رغباته بسبب تسامح الضوابط الاجتماعية المتعلقة بنظام الدراسة واختيار الأصدقاء وقضاء أوقات الفراغ.

- ومما يساهم في رفع ثقة المراهق الريفي بذاته هو أن حاجته للتعلق بشخصية من جنسه في بداية المراهقة أمر طبيعي، إذ توفر البيئة الريفية الفرصة المناسبة للتقليد والمحاكاة وتمثل القيم والمواقف التي يعجب بها المراهق ويتخذها مثلاً له، كما تمكنه من تقمص الشخصية التي تلفت انتباهه في بيئته فلا يخاف مما عساه أن يباعد بينه وبينها، ولا يلاقي بتقربه منها أي صد أو إحباط أو شعور بالخجل من الآخرين.

- إن قبول المراهق لجسمه، وللتغيرات الطارئة على بنيته الداخلية والخارجية أمر تفرضه طبيعة العلاقات الاجتماعية في الريف، إذ إن ظهور العلامات الدالة على الرجولة لدى المراهق يجعل الآخرين يوكلون إليه المهام التي توكل إلى الكبار مما يشعره برجولته، وبأن ما طرأ عليه من تغيرات إنما هو أمر يبعث على الفخر، لأن الآخرين بدؤوا بالاعتماد عليه، وبذلك يشبع حاجته الأساسية إلى التقدير الاجتماعي، وقدرته على تقديم المعونة مما يزيد من ثقته بنفسه ويجعله يتطلع دائماً لأن يعامله الوالدان والإخوة والأصدقاء باحترام ومحبة، وهذا ما يحقق ذات المراهق ويشعره بقيمته وبإنسانيته، فالعمل وسيلة من وسائل التعبير عن الذات وإشباع الرغبات، والمراهق يحقق ذاته من خلال العمل الذي يوكل إليه، إذ تتكون لديه الثقة بأن له مكانة اجتماعية واقتصادية يستطيع أن يملأها ويحقق من خلالها استقلاليته فيما بعد.

- لوحظ من خلال تطبيق الاختبار في ريف دمشق أن معظم الطلاب في المرحلة الإعدادية يشعرون أن المناخ المدرسي يخلق عندهم التعبير الذاتي من خلال المشاركة في الفعاليات المختلفة، مما يعزز مفهوم الذات لديهم، وهذا ما أكده دين .ر. هوك الذي وجد علاقة مهمة بين مفهوم الذات للطلاب وإدراكاتهم فيما يتعلق بإعطائهم الاستقلالية من قبل المعلمين (١٣).

كما وجدت بعض الأبحاث التي أجريت في الصفوف Johnson & Johnson 1970. Johnson. Maruyana. Johnson. Nelson 1981.

أن مفهوم الذات أعلى بين طلاب الصفوف التي تؤكد التعاون واستقلالية الطالب بدلاً من المنافسة الفردية، وأن المتغير الرئيسي هو تفسير الطالب للموقف (١٤) وترى الباحثة أن الوسط الاجتماعي المدرسي في الريف يؤكد التعاون ويساهم في تهيئة المناخ الذي يساعد الطالب على إدراك استقلاليته وتقبل ذاته.

المراجع

١. اختبار مفهوم الذات للكبار. إسماعيل. عماد الدين. الكويت. دار القلم. ١٩٨٦م. ص:٣.

٢. لابين بيرت ولاسي. وجرين. مفهوم الذات أسسه النظرية والتطبيقية. لابين بيرت. ترجمة فوزي بهلول . بيروت. دار النهضة العربية. ١٩٨١م. ص:٢٦.

٣. تقدير الذات والتكيف المدرسي لدى الطلاب الذكور. رسالة دكتوراه. موسى عبدالخالق جبريل. جامعة دمشق. ١٩٨٣م. ص:٣.

4 - Bandura, A. Self- efficacy. Toward a unifying theory of behavioural change. Michigan, 1977 p78

٥. العلاقة بين مفهوم الذات وعوامل النجاح والفشل التحصيليين كما يدركها طلاب المرحلة الثانوية في الأردن. صبحي عبدالرزاق خنفر. رسالة ماجستير . جامعة اليرموك. ١٩٨٣م. ص٤.

٦. مفهوم الذات وعلاقته بمستويات الطمأنينة الانفعالية. حسين. محمود عطا. مجلة العلوم الاجتماعية. جامعة الكويت. العدد الثالث. ١٩٨٧م. ص:١٢٥.

7 - Dumas. Wayne - Factors associated with self - concept change in student teachers - journal of educational research vol. 62, 1969. p 275.

٨. العلاقة بين مفهوم الذات وعوامل النجاح والفشل في مرجع سابق.

9 - Hurlock. Elizabeth. B. personality development. New York. 1974 p 338

10- Bowlbye. J. Maternal care and mental health. world health organization -Geneva 1952 . P 11

١١. التقويم والمقياس في التربية. نعيم الرفاعي. دمشق. المطبعة التعاونية. ١٩٨٢م. ص٢٣٢.

١٢. مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية. منيرة حلمي. القاهرة. دار النهضة العربية. ١٩٦٥م. ص١٩٨.

13 - Dean R. Hoge. school Experiences predicting in self - Esteem of sixth and seventh grad students - journal of educationl psychology. 1990, vol. 82. p 118.

١٤. المرجع السابق. ص١١٨.

السبعةُ الشُّهُب من الشعراء

إبراهيم باجس عبدالمجيد
الرياض - السعودية

هناك مقولة خاطئة عند كثير من الباحثين، وهي أن العصر الوسيط في التاريخ الإسلامي عصر انحطاط وتردٍّ فكري وثقافي وعلمي.
ولئن كانت هذه المقولة تنطبق إلى حدٍ كبير على العالم الأوربي الغربي، إلا أنها مجانبة للصواب فيما يخص العالم الإسلامي.

فنحن إذا ألقينا نظرة عجلى على الحياة العلمية في الشرق الإسلامي في عصر المماليك على سبيل المثال، نجد أنها زاخرة بالنشاط العلمي، وقد أنجب هذا العصر اثيرين من العلماء الذين برزوا في مختلف أنواع العلوم، وبرز منهم علماء موسوعيون من أمثال: النُّويري (ت:٧٣٣هـ)، والقلقشندي (ت:٨٢١هـ)، وابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، وغيرهم.

وإذا نظرنا أيضا إلى الناحية الأدبية والشعرية، نجد كثيراً من الشعراء الذين برزوا في هذا العصر.

ومن الطرائف أن هناك سبعة من الشعراء عاشوا في زمن واحد، وهو منتصف القرن التاسع الهجري، اسم كل واحد منهم أحمد، ولقبه شهاب الدين، حتى لقبوا واشتهروا بالسبعة الشُّهُب. وكانت بين هؤلاء السبعة الشهب لشعراء مراسلات ومطارحات ومساجلات شعرية دُوِّنت في كتب الأدب والتراجم.

لم تجمع بين هؤلاء السبعة الشهب وشائج القربى والنسب، إنما هو العلم والأدب، فكانوا يتواصلون بالأشعار فيما بينهم ما بين مطارحات شعرية أو مديح أحدهم للآخر، أو إلقاء لغز شعري وطلب حله، أو رثاء من مات منهم قبل صاحبه.

ونذكر في هذه المقالة نبذاً موجزة من ترجماتهم، وبعض ما دار بينهم من مطارحات ومساجلات شعرية.

حافظ الوقت

فأول هؤلاء السبعة الشهب هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، المعروف بابن حجر العسقلاني، حافظ الوقت ورئيس القضاة في عصره.

ولد سنة ٧٧٣ هـ بمصر العتيقة، ونشأ بها يتيماً، ولما شبَّ عانى كتب الأدب، ونظم الشعر فبرز فيه، ثم حُبِّب إليه العلمُ الشرعي، فبرع في علم الحديث خاصةً وعلوم الشريعة عامةً، وألف عدداً من الكتب، منها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، وتهذيب التهذيب، والتلخيص الحبير، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، وإنباء الغمر بأنباء العمر، وغيرها من الكتب. وله دواوين شعر مطبوعة، منها: الكواكب السبعة السيارة. وتوفي هذا الشهاب سنة ٨٥٢ هـ.

وقد كان بين الحافظ ابن حجر وبقية الشهب الآخرين مطارحات شعرية، ولهم فيه مدائح في حياته ومراثٍ رثوه بها بعد موته تنبئ عن صدق المودة التي كانت تربط بينهم، فمن ذلك ما مدحه به الشهاب المنصوري:

يا سيداً بفضله ونَيْله ... صيّر أحرار البرايا أعبُدا
العبد قد أهدى إليك مدحة ... وربما يُهدى إلى البحر الندى

ورثاه الشهاب المنصوري أيضاً

بعد موته في قصيدة مطولة، منها:

قد بكت السحب على
قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي
كان مشيداً من حجر

وسنذكر شيئاً مما دار بين الشهاب ابن حجر وبين الشهب الآخرين عند ذكر كل منهم إن شاء الله.

والشهاب ابن حجر العسقلاني مترجم في كتاب «الضوء اللامع» لتلميذه السخاوي ٣٦/٢ ـ ٤٠ وقد أفرد له ترجمة مستقلة في كتاب «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»، وقد قمت بتحقيقه، وطبع في دار ابن حزم ببيروت عام ١٤١٩هـ.

الشاب التائب

وثاني هؤلاء الشهب هو أحمد ابن علي بن محمد القرافي ثم القاهري، المعروف بالشاب التائب المتوفى سنة ٨٦١هـ.

قال عنه السخاوي في الضوء اللامع: كان أديباً فاضلاً مطارحاً، جيد النظم. وممن تطارح معه: الشهاب المنصوري.

وقد فرّق السخاوي بين الشاب التائب هذا وشاعر آخر حمل الاسم واللقب والكنية نفسها، فكان اسمه أحمد، ولقب بشهاب الدين، وكني بالشاب التائب، وهو أحمد بن عمر بن عبد الله، توفي سنة ٨٣٢هـ، ولا يدخل هذا في زمرة السبعة الشهب الذين نحن بصدد الحديث عنهم. وقد ذكرته على أنه واحد منهم في تعليقي على حاشية ص ١٨ من كتاب «المنجم في المعجم» للسيوطي، ولم أتفطن لتفريق السخاوي بينهما.

فرسا رهان

والشهاب الثالث من هؤلاء هو أحمد بن محمد بن صالح الإشليمي، المعروف بالشهاب ابن صالح. ولد سنة ٨٢٠هـ، وطلب العلم، فبرع في فنون، وأقبل على فن الأدب، وقال النظم الرائق المكن القوافي، المنسجم الألفاظ والمعاني.

وقد اختلف في تحديد سنة وفاته، فأرخها السخاوي في الضوء اللامع ١١٥/٢ بسنة ٨٦٣هـ، أما السيوطي، فقد ذكر في نظم العقيان ص ٨٥ أنه توفي سنة ٨٦١هـ.

وللشهاب ابن صالح صلة قوية بغيره من الشهب الذين عاصرهم، ومنهم الشهاب ابن أبي السعود، حيث يصفهما السخاوي في "الضوء اللامع ١١٥/٢ بأنهما كانا كفرسي رهان مع ما بينهما من التباين.

ومما دار بينهما من مراسلات شعرية: أن الشهاب ابن صالح كتب إلى رفيقه الشهاب ابن أبي السعود ملغزاً في كأس من قصيدة مطلعها:

ألا يا شهاباً لي بأنواره هدى
وللضدّ منه جذوة النار تلفحُ

وقال يمدح شهاب الدين ابن حجر العسقلاني لما ولي التدريس في المدرسة الصلاحية:

لواحظه تجني وقلبٌ يُعذّبُ
ولا سلوة عنه ولا الصبر يعذُبُ

ومنها:

شهابٌ رقى العليا بصدق عزائم
فلا مطلب عنه من الفخر يحجبُ
أبو الفضل لا ينفك بالفضل مغرماً
ولا عجب أن يفتتن بابنه الأبُ
بنو حجر بيتٌ عليٌ وأحمدٌ
له كعبة حجوا لها وتقربوا

وهي قصيدة طويلة تزيد على الخمسين بيتاً.

ابن مبارك شاه

ورابع الشهب السبعة هو أحمد ابن محمد بن حسين، المعروف بابن مبارك شاه. ولد سنة ٨٠٦هـ وتوفي سنة ٨٦٢ هـ.

اشتغل بأنواع العلم وتفنن وبرع وتميز، وكان متصفاً بالتواضع والأدب والسكون والقناعة مع المداومة على التحصيل والإفادة.

وكان الحافظ ابن حجر العسقلاني كثير التبجيل والإصغاء إلى كلامه. وقد مدح ابن مبارك شاه رفيقه ابن حجر بقصيدة من ٦٩ بيتاً يقول فيها:

شهابٌ ضياءُ الدين من نور فضله
زكيٌ سنى الأفاق يشرق بالهدى
صحيح البخاري مذ شرحت حديثه
بفتح من الباري ونصر تأيدا

المنوفي ابن أبي السعود

وخامس الشهب السبعة هو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن موسى المنوفي، المعروف بابن أبي السعود، المولود سنة ٨١٤ والمتوفى سنة ٨٧٠هـ.

ترجم له السخاوي في الضوء

اللامع ٢/٢٣٢ ـ ٢٣٣، فقال: إن والده مات وهو صغير، فنشأ يتيماً فحفظ القرآن.. وقرأ كتب الفقه والطب وعلم الكلام والفرائض والحساب والأدب.. وعانى الأدب فبرع فيه وساد وطارح الشعراء، وقال الشعر الجيد والنثر البديع. إلا أنه أعرض في أخريات حياته عن تعاطي الشعر.

وقد سبق ذكر ما كان بينه وبين الشهاب ابن صالح أحد السبعة الشهب. كما كانت تربطه بالشهاب ابن حجر العسقلاني صلات وشيجة، وقد مدحه بعدة قصائد، منها قصيدة نونية ذكرها السخاوي في «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» ١/٤٠٨ ـ ٤٠٩، يقول فيها:

أحبرُ علمه بحر خضمٌ
يفوه بأنفس الدرّ المصون
ومن هو بالثنا روض أريضٌ
زها من غيث كفيه الهتون

وله في مدحه أيضاً قصيدة أخرى يوم ختم كتاب فتح الباري، يقول فيها:

حبر الهدى حافظ الإسلام أحمد من له من «التفتح» ذكرى فتح خير نبي
شرحت صدر البخاري مثل «جامعه» فراح ينشد: هذا منتهى الطلب

الشهاب الحجازي

والشهاب السادس من هؤلاء الشهب الساطعة في سماء القرن التاسع الهجري هو أحمد بن محمد ابن علي بن حسن بن إبراهيم، أبو الطيب الخزرجي العبادي، المعروف بالشهاب الحجازي. وهو من ذرية الصحابي الجليل عبادة بن الصامت.

> وقد كان بين الحافظ ابن حجر وبقية الشهب الآخرين مطارحات شعرية، ولهم فيه مدائح في حياته ومراثٍ رثوه بها بعد موته تنبئ عن صدق المودة التي كانت تربط بينهم

ولد الشهاب الحجازي سنة ٧٩٠هـ وتوفي سنة ٨٧٥هـ. قال عنه السيوطي في كتابه «المنجم في المعجم»: عني بالأدب كثيراً إلى أن تقدم فيه وصار أحد أعيانه، وألف فيه عدة تصانيف؛ منها: «روض الآداب، والقواعد المقامات في شرح المقامات»، وغير ذلك من الكتب بالإضافة إلى ديوان شعره.

وكان بينه وبين الشهب الآخرين صلات قوية، وقصائد إخوانية متبادلة في المناسبات المختلفة؛ فمن ذلك ما أرسل به إلى الشهاب ابن حجر العسقلاني وقد عوفي الأخير من رمد عرض له:

لا تخــشى من رمــد ولا تخف
من حاسد وارض له بالبين
فالله عافاك على رغم العدا
نعم وقد كفاك شرّ العين

وكتب له مهنئاً بالعام الجديد:

هُنيت عاماً مقبلاً يا سيدي
وسموت للعلياء باستحقاق

وقال مهنئاً له بتوليه منصب القضاء:

فقد سررت بيوم
قد نلتَ فيه مناني
والمنصب اليوم أضحى
ذا بهجة وسناء
بشيخ الاسلام حقاً
والحبر في العلماء

وكان بين الشهابين ابن حجر وابن أبي السعود مطارحات شعرية، فمن ذلك ما كتب له ابن أبي السعود ملغزاً في (مربع):

أيا شيخ الاسلام المعظم قدره
وقاضي قضاة العصر لا زلت تشرفُ
ويا عالم الأقطار يا حافظ الورى
ويا حاكماً ما زال بالعدل ينصفُ
فديتك أي اسم يرادف موضعاً
له غاية في الطول والعرض تعرفُ

وهي قصيدة طويلة، وقد حل لغزها الشهاب ابن حجر، وأرسله شعراً إلى الملغز في قصيدة مطلعها:

ألا يا شهاب الدين نورك مشرق
وأنت على العلياء بالفضل مشرفُ

وقد حفظ الشهاب الحجازي الودَّ لصديقه ابن حجر، حيث رثاه بعد موته بقصيدة مطلعها:

كل البرية للمنية صائرة
وقفولها شيئاً فشيئاً سائرة

يقول فيها أيضاً:

هو شيخ الاسلام المعظم قدره
من كان أوحد عصره ونادره

قاضي القضاة العسقلاني الذي
لم ترفع الدنيا خصيما ناظره
ورزنت فيه فليت أني لم أكن
أو ليت أني قد سكنت مقابره
يا قبر طب قد صرت بيت العلم أو
عينا به إنسان قطب الدائره

ومثلما رثى الشهاب الحجازي صديقه ابن حجر، فقد رثى الحجازيّ صديقه الشهاب المنصوري، وهو آخر السبعة الشهب موتاً، فقال:

لهف نفسي على أفول الشهاب
تحفة القوم نزهة الأصحاب
فقدت بره أيامى المعاني
ويتامى جواهر الآداب

وله فيه مرثية أخرى أوردها السيوطي في المنجم في المعجم ص ٦٦-٧٦، قال فيها:

زادني فقد الحجازيّ شجى
هل يطيب العيش مع فقد الحجا
فالحجازيّ بكته مصره
والشهاب اشتاقه بدر الدُجى
ليس بدعاً إن بكيناه دما
لهب الحزن يذيب المهجا

وكان بين هذين الشهابين - أعني الحجازي والمنصوري - مودة وإخاء، فيفرح أحدهما لفرح صاحبه، ويحزن لحزنه، ومن ذلك أن الشهاب الحجازي مرض، فأرسل إليه الشهاب المنصوري هذين البيتين اللذين أوردهما ابن إياس في «بدائع الزهور من وقائع الدهور» ٣/٧٥:

قيل الشهاب سقيم قلت وأسفا
ما بال أحمد لا يخلو من العلل
وزن الرقائق من أضحى يحررها
ووصفه بفنون العلم والعمل

الشهاب المنصوري

أما آخر السبعة الشهب في سماء شعر ذلك العصر، فهو أحمد بن محمد بن علي السلمي المنصوري، وهو من ذرية الصحابي العباس بن مرداس السُلمي الشاعر، وأم العباس هي الشاعرة المشهورة الخنساء رضي الله عنها. فبراعة الشهاب المنصوري في الشعر نزوع

> كان الشهاب المنصوري آخر الشهب موتاً، وقد أدرك وفاة من قبله، وأحزنه موتهم واحداً تلو الآخر، فرثاهم جميعاً في قصيدة

إلى أجداده في هذا الفن، وكما قيل:

كل نهر فيه ماء قد جرى
فإليه الماء يوماً سيعود

ولد الشهاب المنصوري سنة ٧٩٨، وتوفي سنة ٨٨٧ هـ.

قال السخاوي في ترجمته من «الضوء اللامع» ٢/١٥٠: عانى الأدب وطارح الشعراء، وصار بأخرة أوحد شعراء القاهرة... وكان ظريفا كيساً متواضعاً مشاراً إليه بالشعر في الآفاق.

ومن لطيف شعره في وصف شوقه إلى الكنافة:

إليك اشتياقي يا كنافة زائد
فما لي غناء عنك كلا ولا صبر
فلا زلت أكلي كل يوم وليلة
ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وقد ضمّن الشطر الثاني من البيت الأخير عجز بيت لذي الرُمّة الشاعر، صدره:

"ألا يا اسلمي يا دار ميّ على البلى"

وكما قلنا، كان الشهاب المنصوري آخر الشهب موتاً، وقد أدرك وفاة من قبله، وأحزنه موتهم واحداً تلو الآخر، فرثاهم جميعاً في قصيدة قال فيها:

خلت سماء المعاني من سنا الشُهب
فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجهاً بعد رحلة من
تجاذبوا بالمعاني مركز القطب
لو تعلم الأرض ماذا ضمّنت بطرت
بهم كما يبطر الإنسان بالنشب
ولو درى المسك أن التُرب ضمهمُ
لود نشقة عرف من شذا الترب
زانوا بنظمهم الدنيا ولا عجبٌ
إذا تزينت الظلماء بالشُهب
لا تعجبن إن قضوا نحباً وفاجأهم
ريب المنون فما في الموت من عجب
سقى ثراهم غواد لا انقشاع لها
عيونها مثل أفواه من الترب

وبعد، فهؤلاء هم السبعة الشهب الذين تزاحموا في سماء الشعر في العصر المملوكي، وسطع نورهم. ولم يكن هؤلاء السبعة هم الوحيدين من بين الشهب في ذلك العصر، بل كان هناك الكثير من الشعراء في عصرهم ممن لقب بشهاب الدين، ولكن غلب هذا اللقب على هؤلاء السبعة دون غيرهم، فاشتهروا بالسبعة الشهب.

جوناثان سويفت
الساخر العملاق

ميسون عبدالرحمن النحلاوي
دمشق - سورية

ليس منا من لم يسمع حكاية من حكايات جليفر، ذلك العملاق في بلاد الأقزام، والقزم في بلاد العمالقة بمغامراته الشائقة. لقد ألهبت هذه المغامرات خيالنا الطفولي، وكنا دائماً في شوق إلى سماع المزيد منها ظناً منا أن جليفر هذا مستمر في رحلات لا تنتهي. وإذا كنا نعرف ما نعرفه عن هذه الرحلات التي تفردت في صمودها عبر القرون ورحيلها عبر البحار، فماذا عن مبدعها؟

ولد جوناثان سويفت عام (١٦٦٧ - ١٧٤٥م) في دبلن بعد موت والده. وسويفت هو ابن جوناثان سويفت وحفيد توماس سويفت، النائب الملكي المعروف في يوركشاير، وابن عم الأديب المشهور دريدن Dryden. تلقى تعليمه مع كونغريف في مدرسة كيلكني ثم في كلية ترينتي في دبلن حيث كان يلام دائماً على إساءته للنظام، وحصل على شهادته بمنحة خاصة. وفي عام ١٦٨٩م تم قبوله في أسرة تيمبل في وظيفة سكرتير. طبع سويفت إحدى كتاباته الشعرية البندارية Pindarics* في عام ١٦٩٢م إلا أنها كانت بنظر دريدن محاولة غير ناجحة، إذ علق عليها بقوله: «ابن عمي سويفت إنك لن تكون شاعراً أبداً».

هل كان يكره الجنس البشري؟

وإذا كان سويفت قد أخفق في نظر ابن عمه في أن يكون شاعراً، فقد أثبت مكانته كأعظم كاتب نثري عرفه القرن الثامن عشر. ناقد عظيم، وساخر عبقري تبلغ سخريته في بعض الأحيان من القوة حداً تقف أمامه بعض العقول عاجزة عن الاستيعاب، كما حدث عند صدور كتابه «عرض متواضع» (سنأتي على ذكره لاحقاً) الذي استعصى إدراك ما يرمي إليه سويفت من خلاله على بعض المثقفين. إلا أن براعته في السخرية التي كانت تظهر حتى في بعض أشعاره ونكاته المدرسية، كانت تخفي وراءها كراهية عميقة يصفها بعضهم أنها كراهية للجنس البشري، ولكنها في الواقع لم تكن كراهية مطلقة، فقد كان لسويفت عدد من الأصدقاء يخلص لهم ويحترمهم، وكثيراً ما ناضل من أجل إنجاز ما فيه الخير لهم ولفقراء دبلن، أما كراهيته فقد كانت تنحصر بالرجل الذي تدنى إلى الدرك الحيواني وتخلى عن خصائصه الإنسانية.

بدأت هجائيات سويفت النثرية تأخذ مكانتها مع صدور «معركة الكتب» Battle Of the Books الذي كتبه عام ١٦٩٧م، ونشره عام ١٧٠٤م مع قصة Tale Of a Tub، وهذا الأخير هو عمل هجائي هزلي يتناول الفساد في الدين والعلم، ويحكي قصة إخوة ثلاثة يرثون عن والدهم إرثاً يقتسمونه ويتصرفون فيه كل على طريقته. الإرث يرمز إلى الدين المسيحي، والإخوة الثلاثة بيتر ومارتن وجاك ينتمون إلى كل من الكنيسة الرومانية والأنجليكانية والمنشقين. والعمل في بعض مقاطعه مضحك جداً، شديد السخرية لدرجة جعلت الملكة آن من شدة الصدمة تحرم سويفت من أن يصبح أسقفاً، وهذا بدوره ساعد على ترسيخ الشعور بالإحباط والمرارة داخله. وفي عام ١٧٠٨م بدأ بكتابة كتيبات حول أسئلة كنسية مع مناقشة ساخرة ضد القضاء على المسيحية، وأتبعها في السنة نفسها برسالته التي كتبها بخصوص «الاختبار السري» وهو هجوم على المشيخة Pres-byterian الإيرلندية، مما سبب له الكثير من المشكلات مع حزب الأحرار Whigs.

كتب سويفت أعمالاً سياسية من أبرزها «الروح العامة لحزب الأحرار» ١٧١٤م رداً على أزمة ستيل Steele وحول موت الملكة عام ١٧١٤م وسقوط

وزارة توري Tory؛ وقد نشرت أوراق أخرى فيما بعد في الدفاع عن الأخير، وفي السنة نفسها انضم سويفت إلى كل من بوب، وأربوثنوت، وغي، وبارنيل، وآخرين في نادي سكريبليروس Scribler-us Club ويقال إن هذا النادي كان له أثر كبير في أعماله الهجائية، ولاسيما رحلات جليفر.

أبرز المدافعين عن حرية الإنسان

بقي سويفت فترة يكره الإيرلنديين، ويعد نفسه «إنجليزياً سقط في إيرلندا»، إلا أن سوء الحكم الإنجليزي وما أسفر عنه من نتائج اجتماعية سيئة أدت إلى انقلاب موقفه لكونه من أبرز المدافعين عن حرية الإنسان، فالتقط قلمه من جديد لمهاجمة حزب الأحرار ولكن لصالح الإيرلنديين في هذه المرة. عاد إلى إيرلندا في شهر آب/أغسطس من عام ١٧١٤م، وبالتدريج التفت حوله نواة حزب إيرلندي، وحاز على دعم جمهوري بعد كتابته لرسائل درابيير الست الشهيرة عام ١٧٢٤م التي ضمنها سويفت احتجاجه على الامتياز المخزي الذي كان قد تم منحه لـ ويليام وود William Wood من أجل تزويد إيرلندا بعملة النصف بنس النحاسية. ونتج من احتجاج سويفت الذي ورد في تلك الرسائل سحب الامتياز من وود هذا ليصبح سويفت بطلا وطنياً.

وفي «عرض متواضع» Modest Proposal ١٧٢٩م يقدم سويفت إحدى أقوى كتاباته الساخرة وأشرسها. هنا يقترح سويفت بمنطق ساخر حلاً لمشكلة بقاء أطفال فقراء إيرلندا عبئاً على آبائهم ووطنهم من جهة، وجعلهم أكثر فائدة للجمهورية من جهة أخرى، وذلك بأن يجري تسمين هؤلاء الأطفال، ومن ثم ذبحهم في سبيل توفير الغذاء الجيد للأغنياء، وإغراقاً في السخرية يصف سويفت عرضه هذا بأنه «بريء سهل وفعال»!!.

أديب بارع في ثوب ساخر

يعتمد سويفت الأسلوب البسيط في كتاباته التي تبدو كسطح ناعم من الجليد يمكن التزلج عليه بكثير من المتعة دون الانتباه إلى التصدعات السوداء الموجودة تحت ذلك السطح، وعلى الرغم من تنوع إبداعاته الساخرة، إلا أن عمله النثري



جوناثان سويفت

«رحلات جليفر» يُعدّ أكثر أعماله شهرة وشيوعاً. لم تكن «رحلات جليفر» عملاً عادياً فقد أخذت مكانها في مصاف الكتب العظيمة التي انتقلت من جيل إلى جيل محتفظة برونقها وكأنها وضعت البارحة فقط. وهي تخفي بين أسطرها الكثير من النقد الساخر بشكل ذكي جداً.

يبدو العمل للوهلة الأولى، وربما الثانية، كتاب مغامرات لرحالة ذي شخصية جذابة وقصة تجلب انتباه الأطفال واهتماماتهم بكثير من التشويق، إلا أنه بقي موضوع نقاش طويل وجدال عنيف بين المؤرخين والفلاسفة والأدباء والنقاد. قصد سويفت أن يكون أسلوب الكتابة بسيطاً جداً، وحسب عادته فقد كان يقرأ مقاطع كبيرة مما كتبه على خدمه بصوت عال ليتأكد من أن كل جملة من جمله قد حققت مستوى البساطة الذي أراده، وهكذا يمكن التزلج على ذلك السطح الجليدي الناعم بكثير من المتعة، دون الانتباه إلى التصدعات السوداء الموجودة تحته، وهذا دون شك ما يحدث مع الأطفال عندما يقرؤون النسخ الخاصة بهم. لقد قام سويفت بوضع السخرية والدمائة، والهزل والجدال المتوازن في طبات متداخلة بغاية الدقة والحذر. لقد أوجد سويفت أحجية لا نهاية لها عن عمد.

سخرية مهذبة

يروي سويفت على لسان «لومول جليفر» الجزء الأول من رحلته إلى ليليبوت، بلاد الأقزام، بدقة لا يمكن مجاراتها. سكان هذه الجزيرة لا يزيد طولهم على ست بوصات، وكل شيء في الجزيرة بحجم البوصة بالنسبة إلى القدم إذا ما قورنت بالأشياء التي اعتادها جليفر. وينطبق ميزان الحجم الصغير جداً هذا على اهتمامات أهل هذه البلاد، وعلى عظمة الإمبراطور، والضغائن بين سكان المدينة والحرب مع جيرانهم. وهكذا يمضي في هذا الجزء ينسج شبكة من النقد الساخر للسياسات الإنجليزية بطريقة مهذبة جداً، وتبلغ السخرية أشدها في وصف لابسي الكعب العالي والكعب المنخفض تارة، وفي عرضه لسبب نشوب الحرب بين أهل الجزيرة وجيرانهم تارة أخرى، حيث يصور الجدال حول ما إذا كان كسر البيضة من نهايتها العريضة أو من النهاية المدببة سبباً وجيهاً للخلاف. يقول جليفر: «في تلك الليلة جاءني رجل من عظماء ليليبوت، وصديق حميم للملك يدعى ريلد ريسال، وأخبرني بنشوب نزاع

في ليليبوت منذ عدة سنوات، وقال: «هناك جانبان في هذا النزاع: أصحاب الطرف الكبير وأصحاب الطرف الصغير، والملك من أصحاب الطرف الصغير وكذلك معظم أفراد الشعب. إلا أن أصحاب الطرف الكبير يتلقون الدعم من شعب جزيرة بليفوسكو؛ والخلاف داخل البلاد وخارجها يجعلني أشعر بخوف شديد. لا أعرف ما الذي سيحدث، لعلك تستطيع مساعدتنا وإلا فمصيرنا الهلاك والضياع» فسألته عن موضوع الخلاف وما المقصود بصاحب الطرف الكبير؟ فأجاب ريدريسال: «الخلاف حول مسألة مهمة تدخل في الحياة اليومية لشعبنا وتتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يتم بها كسر البيضة كي تؤكل. أصحاب الطرف الكبير يعتقدون أنه يجب كسر البيضة من نهايتها العريضة، وأصحاب الطرف الصغير يعتقدون أنه يجب كسرها من نهايتها المدببة».

وفي الجزء الثاني يغادر جليفر إلى «بروبدينغانغ» بلاد العمالقة، وهنا نجد قصة ليليبوت معكوسة إذ يقارب أطوال سكان هذه الجزيرة أبراج الكنيسة، وكل شيء فيها يتناسب مع ذلك المقياس. وهنا يمكننا أن نستعرض أشد مهاجمات سويفت للمجتمع الإنجليزي وأعنفها، وأقرب محاولة له قام بها على الإطلاق لوصف انطباعه أو فكرته الشخصية عن البلد المثالي، يقول جليفر: (وحين كنت أتحدث بشعور من الاعتزاز عن بلدي إنجلترا، عن حروبنا وثروات عائلاتنا العظيمة، عن الصراعات بين رجال الكنيسة وحكامنا والبرلمان، كان الملك يضحك محدثاً جلبة عظيمة. قال الملك للملكة ذات مرة: «إن هذا يظهر لنا سخافة الشعور بالفخر والاعتزاز، فنحن نظهر بمظهر العظماء، ولكننا نجد أقزاماً كهؤلاء يظنون في أنفسهم عظماء أيضاً). ويلخص الملك انطباعه حول الإجابات التي أدلى بها جليفر عن تساؤلاته حول سلوكيات الناس والحكومة والتعليم في أوربا بقوله: «من خلال ما جمعته من رواياتك التي رويتها.. لا يمكنني إلا أن أستنتج أنكم لا تعدون أن تكونوا سلالة خبيثة من الطفيليات القبيحة التي تزحف فوق الأرض».

خداع التاريخ

ويمثل الجزء الثالث (الذي كتب في النهاية) زيارة إلى الجزيرة الطائرة «لابوتا» والقارة المجاورة والعاصمة لاغادو. والنقد هنا موجه إلى الفلاسفة ورجال العلم والمخططين والمؤرخين.

يعتمد سويفت الأسلوب البسيط في كتاباته التي تبدو كسطح ناعم من الجليد يمكن التزلج عليه بكثير من المتعة دون الانتباه إلى التصدعات السوداء الموجودة تحت ذلك السطح

في لابوتا يجد جوليفر الحكماء حبيسي تأملاتهم، حتى إنهم يتكلمون في المسائل العلمية كالرجال المخرفين. وفي لاغادو يزور جوليفر أكاديمية المخططين حيث ينغمس الأساتذة الكبار في استخلاص أشعة الشمس من الخيار، ومشاريع مشابهة أخرى مضحكة. أما في جزيرة المشعوذين فيتمكن من الاتصال بالعظماء من العجائز، ويكتشف من خلال إجاباتهم عن أسئلته خداع التاريخ. ويحكي لنا قصة سلالة الستراندبروغز، وهي سلالة منحت الخلود، ولكنها بعيدة جداً عن رؤية ذلك عطية أو ميزة عظيمة، على العكس من ذلك، فقد جعلهم هذا الخلود نوعاً من البشر يعيشون تعاسة لا نهاية لها.

في الجزء الرابع يصف سويفت بلاد الأونيم، وهم جياد وهبوا العقل، ويتناقض مجتمعهم النظيف والعقلاني والبسيط مع قذارة الياهو ووحشيتهم، وهم بدورهم وحوش في شكل إنسان. أجبر جليفر على تمييز رذائلهم الإنسانية على كره منه. لقد ولدت نقائصهم ووحشيتهم لديه شعوراً بالنفور الشديد من النوع البشري الذي ينتمي هو نفسه إليه، حتى إنه عندما عاد إلى منزله في النهاية بقي وقتاً طويلاً يشعر بالتقزز من عائلته ومن مجرد فكرة الاقتراب من زوجته. ويظهر هذا الجزء كسخرية إصلاحية للطبيعة الإنسانية نفسها، إلا أن أي محاولة لتكثيف معاني هذا الجزء لوصفه في جملة لن تكون سوى ضرب من السخف. في بلاد الأونيم ترتجف الأرض تحت أقدامنا، وتهب عاصفة فوق رؤوسنا، وكأن رماحاً مخيفة من الضوء والظلام تنطلق راجعة عبر الكتاب إلى كل زاوية من زوايا العقل الإنساني.

بعد أن أنهى سويفت عمله هذا دوّن في الفصل الأخير قوله: إنه يأمل في أن يكون قد تمكن من إخراج هذا الكتاب على أنه عمل بعيد عن اللوم، وأن لا يجد المراقبون والمستكشفون والمنفعلون في ما كتبه قضية يجربون فيها مهارتهم العقلية في الهجوم عليه، وبالطبع هو يقصد عكس ذلك تماماً، وكان له ما توقع.

لاقى أول عمل له صدر في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٢٦م نجاحاً سريعاً، ويقول أحد التقارير: إنه تم بيع عشرة آلاف نسخة خلال سبعة أسابيع فقط، وعلى الفور تم البدء بترجمته إلى الفرنسية والألمانية، كما أخذت الصحف تطبع مقاطع مسروقة منه، بينما تسارع

الأصدقاء في إرسال رسائل المديح إلى المؤلف في دبلن. كتب كل من «جون غي»، و«ألكسندر بوب»: إنها رواية عالمية لها قراؤها من أعلى الطبقات، ومن أكثرها تواضعاً على حد سواء». لقد حاز العمل، وخلال وقت قصير، على القبول في دهاليز السلطة، حتى دوقة مارلبورف العجوز، إحدى ضحايا سخرية سويفت القاسية، قيل: إنها قرأتها «بجذل ونشوة»، وقالت إنها لم تعد تحلم بشيء سواها منذ أن قرأتها. وهكذا هدأت مخاوف سويفت الذي كان قد أخبر بوب قبل ذلك بسنة أن هذا الكتاب سيبقى في انتظار ناشر يجد في نفسه الشجاعة الكافية كي يتورط في نشر عمل كهذا؛ ففي تلك الأيام كان الكتّاب يتعرضون في خلافهم مع السلطة لمخاطر السجن والفقر المدقع، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث لسويفت، وسارت الأمور على ما يرام. ويؤكد بوب ذلك بقوله: «لقد بدأت هذه القصة طريقها من اللوردات ووصلت إلى الشعب، قرأتها كل المدينة ونفذت أفكارها إلى رجالها ونسائها وأطفالها على حد سواء».

نتيجة شيطانية

ولكن هل تقبل الأدباء والنقاد على اختلاف مستوياتهم عمل سويفت هذا «رحلات جليفر» بالترحيب والإعجاب اللذين أبداهما كل من «جون غي»، و«ألكسندر بوب»؟

جاء الاعتراض الأول على لسان أحد أصدقاء سويفت اللورد بولينبروك الذي يقول عنه بوب: «إنه الأقل تقبلاً لهذا الكتاب فهو يتهمه بأنه تخطيط لنتيجة شيطانية، هدفه الانتقاص من قدر الطبيعة الإنسانية»، إلا أن ذلك لم يتعد كونه نكتة شبيهة بتلك التي طرحها ذلك العجوز الذي قال: إن عليه أن يذهب إلى الخارطة ليبحث عن ليليبوت أو لابوتا ليتمكن من متابعة القصة، أو بما قاله ذلك الأسقف بأنه مملوء بالأكاذيب، وأنه لا يصدق ولا كلمة مما ورد فيه. إلا أن ذلك في الواقع كان له أثره مع تقدم الزمن في ظهور النظريات الهجومية على سويفت ورحلات جوليفر.

كانت روايات الدكتور جونسون الزائفة الركيزة الأساسية التي اعتمدت عليها الافتراءات التي لحقت بسيرة سويفت الشخصية، فهو يدعي بأن بوب، صديق سويفت، قد عهد إلى أوصيائه بسيرة مشوهة تتناول هجوماً مزعوماً من سويفت على بوب نفسه أبقاها بوب في

لقد رُفضت نظرية الاعتقاد بجنونه لأربعين سنة من قبل كل باحث متميز ناقش هذا السؤال المزعج

جعبته كي يظهرها حالما يستبد به الغضب من سويفت، إلا أن الأدلة التاريخية تحط من قيمة هذه الرواية، إذ لم تشهد أي من السجلات الإنجليزية الأدبية صداقة صافية بين شخصيتين شهيرتين خالية من أي شكل من أشكال الحسد والغيرة، كتلك التي كانت بين سويفت وبوب. وعلى هذه الشاكلة أخذ مروجو الإشاعات ينسجون قصصاً حول خيانات سويفت وأطواره الغريبة وطبيعته المريضة أو حتى الجنونة، وتم نسيان «الكتاب المرح» تماماً وأصبح شيئاً مشوهاً فاسداً.

ولكن من وراء هذا الانتقال المدهش من المتعة والتشويق إلى الخوف والكراهية الشديدة؟ على الرغم من أن بعض كتاب سيرة سويفت الأوائل يتحملون شيئاً من المسؤولية، إلا أن الذنب الأكبر يقع على عاتق الدكتور جونسون. ولم يقتصر تأثير ذلك على من أراد مناصبة سويفت العداء، بل تخطاه إلى أصدقائه أيضاً، إذ لم يتمكن السير والتر سكوت، الصديق المحافظ الذي قام بكتابة حياة سويفت وجمع أعماله عام ١٨١٤م، من ابتلاع رحلات جليفر فكتب عنها أنها هجاء قاس غير عادل ومتدن، رحب به، وانتصر له أولئك الذين ألقت بهم آمالهم المحبطة في أتون البغض نفسه للجنس البشري الذي يظهر في كتابات سويفت. فإذا كانت هذه هي الطريقة التي يدافع بها أصدقاؤه السياسيون عنه، فماذا يمكن أن نتوقع من أعدائه؟ إذاً فقد أصبح الكتاب المرح عملاً شيطانياً.

قوة حركت العالم

إلا أن افتراءات الدكتور جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤م) لم تصمد زمناً طويلاً، ففي عام ١٨١٨م ألقى ويليام هازليت Hazlitt محاضرة في الرد على الدكتور جونسون، وطرح رؤية جديدة لرحلات جوليفر. يقول هازليت: «سواء كانت عظمة رحلات جوليفر في مضمونها أو في أدائها، فهذا ليس موضع نقاش، فالقوة موجودة في مكان ما.. قوة حركت العالم. القوة ليست بالكلمات الكبيرة الجوفاء، ولا بالتبجح في الأماكن العامة؛ لقد ترك سويفت هذه الأشياء لأولئك الذين يرغبون فيها، وقام بما يمكن أن يتخيله عقله، وتمليه عليه ملكته الفكرية. كان هدفه تعرية الكبر الفارغ من مظهره الخداع، والكبرياء المصطنعة من عظمتها الجوفاء، ولهذا الغرض احتال على تخيل الأوهام بتقليص كل شيء إلى الحجم المجرد. قام بتضخيم الميزان أو إنقاصه، على طرفي نقيض، كما يرغب ليظهر تفاهة اهتماماتنا أو حقيقة عيوبنا

وآفاتنا الإنسانية. فعل ذلك بدقة رياضية وعناية فائقة تامة بطريقة ضمن من خلالها وصول الفكرة التي يريد إلى فهم الرجل والطفل على حد سواء، دون أن يبتعد عن جدارة العمل أو عبقرية المؤلف. حاول إجراء تجربة على الحياة الإنسانية، ووضع قاعدة لقياسها، وميزاناً لوزنها، فوجدها في معظم جوانبها معيبة لا قيمة لها، وبقي نظامه خالياً من أي شيء صلب وذي قيمة، عدا عن الفضيلة والحكمة. وهنا نسأل: أين تلك الجرأة على العنصر البشري؟ وما الدليل على كراهيته للجنس البشري؟ أين الحقد المتعمد في بيانه لحقيقته وعرضه للوضع المثالي لكينونته؟ ويالها من ضربة موجعة تلك التي تلقاها المجد الوطني في تلك الحادثة المشؤومة التي تمثلت في خوض جوليفر القناة وحمله أسطول بليفسكو بكامله! لا يمكنني أن أرى أذى رفيقاً أو كراهية للنوع البشري، أو نزعة غير أخلاقية في هذا، بل إن الدرس الأخلاقي يبدو لطيفاً ورقيقاً، وكذلك جاء العرض الفكري الممتع. إنه محاولة لتمزيق قناع الخداع عن وجه العالم، ولا شيء سوى الخداع يحق له أن يشتكي من ذلك».

ومع وجود بعض المدافعين عن سويفت في عصر هازليت إلا أنهم لم يكونوا واضحين بدفاعهم عنه كما كان هازليت نفسه. دفع وليام كوبيت William Cobbett في سن الرابعة عشرة ثلاثة بنسات ثمناً لرواية سويفت Tale Of a Tub، وكانت في نظره أثمن ما اقتناه في حياته، وكذلك كانت نظرته بالنسبة إلى رحلات جليفر. وليام غودوين William Godwin من جهته، المعلم والناصح الخاص لشيلي ولهازليت نفسه، والمناصر لفكرة الفوضوية الإنجليزية English Anarchisim، وجد أن الكاتب يبحث في المبادئ الحقيقية للعدالة السياسية أكثر من أي كاتب سابق أو معاصر.

هل جن سويفت؟!!

بعد عدة عقود قام عدد من الكتاب بجمع معلومات كانت قد أغفلت فيما مضى في محاولة لإعادة تنظيم سيرة ذاتية Biography لسويفت تضع الحقائق في سياق مناسب لتأخذ صورة سويفت الغول بالانجلاء. في ذلك قام كل من ليسلي ستيفن ١٨٨٢م، وتشرتون كوليتز ١٨٩٣م باستقراء للعمل المنجز مسبقاً في محاولة لتصحيح الأخطاء والمظالم، ومع ذلك فقد جبن الاثنان أمام الرحلتين الأخيرتين اللتين وصفهما ستيفن بأنهما «مؤلمتان ومثيرتان، ورسم كاريكاتوري مروع».

هازليت: «سواء كانت عظمة رحلات جوليفر في مضمونها أو في أدائها، فهذا ليس موضع نقاش، فالقوة موجودة في مكان ما.. قوة حركت العالم»

ويقول: «إن القراء الذين يحبون أن يستغرقوا في مسرحية من الخيال السليم دون ألم من الأفضل لهم أن يحرموا بحذف الرحلتين الأخيرتين، لأن سلسلة الكراهية الإنسانية التي تمتد عبرهما تثير الضيق ببساطة». ولم تكن ردة فعل تشرتون تختلف كثيراً. إذاً فقد بقيت الرحلتان الأخيرتان تشكلان رعباً حقيقياً لدارسي أدب الهجاء السويفتي، ولكن لماذا؟ هل كانت رحلات جليفر أو على الأقل: «رحلة إلى بلاد الأونيم» نتاج عقل مريض أو معاق؟ هل كان سويفت إنساناً كئيباً لم يعرف المرح في حياته، كارهاً لكل الناس وبشكل خاص للنساء، مستهلكاً في أتون حقده الشخصي؟ هل كان يعاني من مرض عضال في شبابه؟ باختصار هل جن في النهاية: إن الحقيقة المؤكدة غير متوافرة بالضرورة، إلا أن أغلب الدلائل الثابتة تشير إلى أن سويفت لم يجن، وأن الرواية التي تحكي عن نهاية مروعة محبوكة من خليط من الحقد والغضب والعنف، وهي لا تتعدى أن تكون أسطورة تبناها ونشرها د. جونسون. وعلى الرغم من أنه لا مجال هنا للتدقيق في الحقائق التي عرضها أحد أشهر أطباء الأمراض العصبية والدماغ في بريطانيا، السير والتر روسل برين، وما جاء في كتاب البروفيسور إيرينبريس Ehrenpreis «شخصية جوناثان سويفت»، فإننا نجد أنه لا مناص من التعرض إلى النتيجة التي توصل إليها البروفيسور إيرينبريس: «لم يكن سويفت خلال حياته منذ ولادته حتى وفاته مجنوناً تحت أي تعريف طبي، كما أنه لم يكن يعاني من أي اضطراب عصبي أو غرابة في أطواره بأكثر مما كان يعاني منه كل من بوب وجونسون، بل إنه قد يكون أقل منهما معاناة. لقد رفضت نظرية الاعتقاد بجنونه لأربعين سنة من قبل كل باحث متميز ناقش هذا السؤال المزعج. على كل حال، فإن ادعاء من يقول بجنونه، وانعكاس ذلك على قصته «رحلات جليفر» مردودان عليه. فقد قام سويفت بكتابة عمله هذا قبل عشرين سنة من موته، كما أن الجزء الذي يتحدث عن الرحلة إلى بلاد الأونيم لم يكن الجزء الأخير من الرحلات».

ولكن ماذا لو قرأنا «رحلة إلى بلاد الأونيم» بغض النظر عن الكاتب وعما قيل عنه، فهل سنجد ما نقرؤه بعيداً عن الواقع الذي نعيشه في القرن العشرين مثلاً؟ قال بعضهم: إنه يبحث عن الكمال، أو عن

يوتوبيا جديدة في وصفه لمجتمع الأونيم، وقال آخرون: إنه أغرق في امتهان الجنس البشري بتناوله لمجتمع الياهو. إلا أن الموضوع قد يبدو أبسط من هذا أو ذاك، فبتضخيمه لفضائل الأونيم ومبالغته في وصف رذائل الياهو يضع سويفت القارئ في موضع العقل الذي أعطي حرية الحكم على ما يقرأ، وهكذا كل يرى في مرآته الخاصة، فالذي يعاني من الشرور البشرية، وقليل من لم يعان، يسقط معاناته على بعض جوانب مجتمع الياهو، أو على الكثير منها؛ وذلك حسب حجم معاناته، بينما يمكن لكل من يتوق إلى حياة إنسانية أفضل أن يرى في مجتمع الأونيم مما يتوافق مع ما يتطلع إليه.

فالموضوع إذا ليس موضوع حكم ومحاكمة، كما أنه ليس موضوع دراسة ودارسين يدرسون ويقررون. إنه أدب: نقد وهجاء، ولم يكن النقد والهجاء في يوم من الأيام حبيسي حكم يقيدهما في زاوية من زوايا الزمان والمكان. الهجاء والنقد لا يأتيان من فراغ، وهما ليسا من إبداع خيال، ولا يقصد من ورائهما إنجاز أسطورة يخلدها التاريخ.. صدق النقد وقوته فقط هما اللذان يضمنان بقاءه وتأثيره.

إن المناقشات المستمرة في التفسير المفصل لرحلات جيلفر تشبه لعبة الشطرنج: التغيرات فيها غير محدودة، وهناك دائما المزيد يمكن تعلمه، ولكن، وكما هو الحال في لعبة الشطرنج أيضا، المشاركة ممكنة على المستويات كافة، إذ يمكن أن يستمتع بـ «جليفر» حتى الذين لا يعرفون شيئا عن افتتاحيات اللعبة، فليس من الضروري أن يكون القارئ في البلاد الإنجليزية خلال عصر الملكة آن، أو أن يعرف الشيء الكثير عن العالم البعيد من الخيانة والحروب، بل تكفيه مشاهدة المحاكم وهي تعمل في القرن العشرين، وسلوك النساء والرجال في عصر قنبلة هيروشيما.

وعلى الرغم من كل ما قيل وكتب عنه يبقى سويفت بإجماع النقاد ـ كاتبا مقنا وأديبا عظيما، لقد برع في كتاباته الشعرية والنثرية ليطبع كلا من جيمس جويس في عمله «المكتب المقدس» الذي كتب بشعر «سويفتي» وألدوس هيكسلي في «القرد والعطر». أما جورج أورويل فقد قدم من خلال عمله «مزرعة الحيوان» Animal farm نقدا لاذعا يعد بحق عملا يدين بالولاء والتقدير إلى عبقرية سويفت.

روح النكتة في أدبه

من الممتع قبل أن نأتي على النهاية أن نستعرض كلمات تعد من أجمل ما كتب في النقد الكوميدي الساخر، كتبها سويفت في الجزء الثالث «رحلة إلى لابونا» وهو يتكلم عن أحد العلماء: «لقد أمضى ثماني سنوات في مشروع لاستخلاص أشعة الشمس من الخيار، هذه الأشعة ستوضع ضمن قوارير تختم بطريقة كيماوية ثم يتم تسريبها لتسخين الهواء في أيام الصيف القاسية. لقد أخبرني أنه ليس لديه أدنى شك في أنه سيتمكن بعد ثماني سنوات أخرى من تزويد حدائق الحاكم بأشعة الشمس بنسبة معقولة، إلا أنه يشتكي من أن مخزونه أصبح قليلا، ثم أدخلني كي أمنحه بعض ما يمكن أن يكون تشجيعا للإبداع، خاصة وأن الوقت كان فصل الخيار».

قد تجلعنا هذه الأسطر نتساءل هل يمكن أن يكون من كتب هذه الأسطر وحشا كئيبا؟ لقد ترك خلفه تأملا لا يمت إلى المنطق بصلة إلا أن الخيار قد أصبح، بحق، من الخضار الساحرة بالنسبة إلى بعض الناس، فمن الممكن من خلاله توليد أيام صيف إنجليزية، إلا أنه من الصعب تحديد إن مر قبل حساب سريع للفرص التي يمكن للحاكم من خلالها الحصول على أشعة الشمس الخاصة به. على الأقل ستكون تلك القوارير في عصر البلاستيك هذا أقل ثمنا.

وإذا أخذنا الموضوع بجدية وموضوعية أكثر بعيدا عن التكاليف اليومية التي تعامل معها سويفت في الجزء الثالث، فماذا عسانا نرى في قصة الملك وعلمائه العباقرة، الذين اخترعوا كل الوسائل الغريبة للغزو والدمار مقابل تفجير لابونا بشكل كامل من أجل مملكة قادمة، سوى نبوءة للقنبلة الهيدروجينية.

وفي النهاية تبقى رحلات جليفر في منزلتها المتفوقة كأدب نادر: قصة ساحرة للأطفال وعمل جاد للكبار لم تفقد أبدا شيئا من سحرها أو فتنتها أو موضوعيتها.

المناقشات المستمرة في التفسير المفصل لرحلات جيلفر تشبه لعبة الشطرنج: التغيرات فيها غير محدودة، وهناك دائما المزيد يمكن تعلمه

الهوامش

١. Pindarics: أشعار تنسب إلى الشاعر الإغريقي بندار.

٢. Anarchism: الفوضوية وهي نظرية سياسية تقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها ولا ضرورة لها وتنادي بإقامة مجتمع مرتكز على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعة.

المراجع:

1 - Gulliver's Traveles: introduction by Michael Foot
2 - The Oxford Companion To English Literature.
3 - English literature: Antony Burgess.
4 - Great Books Of the Western World: William Benton.

رابندرانات طاغور

من خانقين إلى بغداد

سهيلة داود سليمان

عمان ـ الأردن

وقع بيدي مجلد ثمين يحوي أعدادًا من صحيفة أسبوعية عراقية قديمة اسمها «الحاصد» كانت تصدر في الثلاثينيات وربما قبلها، والأعداد التي يحويها هذا المجلد تعود إلى العامين ١٩٣١ ـ ١٩٣٢م. وقد كتبت فيها كل الأسماء الأدبية الرائدة في حقل الصحافة والأدب العراقيين آنذاك، وكان يرأس تحريرها الأديب العراقي والشاعر والقاص الرائد أنور شاؤول قبل أن تنفث الصهيونية سمومها على أرض الوطن العربي وتنشر فيه الفساد.

ومن بين مواد هذا الملف (التراثي) المهم، عثرت على نص يؤرخ لزيارة شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور يحمل تاريخ ٢ حزيران ١٩٣٢م. وبعد قراءته فكرت في إطلاع أدباء العربية على هذه الزيارة التاريخية لما لمنزلة الشاعر طاغور عالميًا، ولم أجد غير مجلة «الفيصل» لتنشر على صفحاتها الرصينة، وقد حرصت على نقل النص حرفيًا من دون تدخل.

الشاعر الأكبر على الحدود

الساعة العاشرة والنصف صباحًا، والشمس وضّاحة الجبين، لا غيم يسترها ولا غبار، عندما كنا في دائرة جوازات السفر على الحدود العراقية(١). كنا ننتظر بفارغ صبر سيارة الضيف المحبوب.

لم يطل الانتظار حتى وافت سيارة تتبعها أخرى، تقدمت نحونا ببطء وإذ صارت على مقربة منا تطلعنا، فإذا هي تحمل من أوفدنا لاستقباله. ومدّ رأسه قليلا من نافذة السيارة، تبدو على محياه أمارات البشر الممزوج بعناء السفر. وابتسم ابتسامة خفيفة وهو يصافح شاعرنا الكبير الأستاذ جميل صدقي الزهاوي رئيس الوفد:

«يُرحب العراق بشاعر الشرق العظيم، ويحييه ويحيي فيه العبقرية والنبوغ».

هذه كانت الكلمات القليلة الجامعة التي خاطب بها الزهاوي ضيف العراق، فكان الجواب كلمات موجزة أيضًا، قالها الشاعر الأعظم بصوت منخفض: «إنني لسعيد بهذه الحفاوة، وفخور بمجيء شاعر العرب لتحيتي تحية شاعر لشاعر».

وتقدم إليه أعضاء الوفد واحدًا فواحدًا يصافحون مرحبين به (وبكنته) وسكرتيره. ثم رجوناه أن يتفضل بالنزول من السيارة لأخذ رسم تذكاري على الحدود مع أعضاء

رابندرانات طاغور

الوفد، فلبى الرجاء عن طيبة خاطر.

على مائدة الشاي

وسارت السيارات تحمل الضيف وأتباعه، ووفد الاستقبال وبعض كبار «خانقين» من موظفين وأهلين قاصدين محطة القطار حيث أعدت مائدة شاي أنيقة.

هنا اسمح لي أيها القارئ أن أصف لك طاغور، أو أن أحاول وصف طاغور لك؛ لأن في طاغور من الصور الأخاذة بمجامع القلب ما يعجز القلم عن تلوينه:

شيخ هرم تجاوز السبعين، طويل القامة، ولكن السنين قوست ظهره، فكان حتماً عليه أن يكون وئيد الخطا، حنطي اللون ذو لحية طويلة تملأ وجهه، وتسترسل إلى صدره بخيوطها البيضاء. ينظر إليك تارة من وراء نظارة بسيطة، وتارة من دون نظارة بعينين صافيتين هادئتين يلتمع فيهما بريق العبقرية الفذة.

كان لباس السفر ثوباً نظيفاً من الصوف، أسود هو أشبه بالمسوح الذي يرتديه القساوسة، وطاقية سوداء استقرت على رأسه دون انتظام. يتحدث إليك بصوت خفيض ذي نبرات موسيقية سحرية، فلا تشعر إلا وأنت منصرف إلى سماعه بكليتك، يفوه ببضع كلمات ثم ينقطع. ثم يخفض رأسه ثم يرفعه متطلعاً، وهو يتكلم، إلى من حواليه، أو إلى الأفق، ثم أحياناً يطبق جفنيه مثلما تطبق الزهرة أوراقها بهدوء ولطف وهو مستمر في حديثه.

كنا نلتهم ما يحدثنا به الشاعر العالمي الأكبر حتى إنني نسيت كوب الشاي أمامي طويلاً، ولم أشعر أن الشاي أصبح مرطباً إلا حين وضعت الكوب بين شفتي، وأحسست بالبرودة، هكذا حرمت الشاي لأني لا أتناوله ما لم يكن حاراً يكوي.

بعض أحاديثه

وعلى مائدة الشاي دار الحديث حول شؤون شتى، وكان دائما يأسف لجهله اللغة العربية، ولكنه كان سعيداً بفهمه الملامح البادية على الوجوه، ملامح المحبة والإخلاص، وكان يبدي اهتماماً بكل ما يتعلق بالعراق الجديد، فطلب إلينا إطلاعه حسب الإمكان على المنتوجات العراقية من فكرية وفنية وصناعية، وعلى ما هناك من مؤلفات مهمة عن بلاد العرب عامة في أدوارها الماضية والحالية كافة.

حسرة أليمة

وأطلق طاغور حسرة أليمة، وقال: إن ما شهده في إيران من تسامح وتساهل ووحدة ليس له مثيل في الهند حيث التعصب والشقاق، حيث الدماء تسيل أنهاراً لا لسبب، حيث الإنسانية يتذابح أبناؤها.

وقال: «إنني أرجو أن يكون العراق حظيرة الأمن والسلام والمحبة والوحدة».

فأجبناه: «إن العراق لفخور بوحدته، معتز بتلك الوحدة المقدسة بين أبنائه على اختلاف طبقاتهم وأديانهم».

شيء عن معهده

وجاء بلمحة موجزة عن معهده «مدرسة السلام» وقال: «إن الحضارة الإسلامية واللغة العربية كانتا تدرسان سابقاً من قبل أستاذ مستشرق من بودابست، ولكنه استغنى عنه مؤخراً لأسباب. وقد كان من دواعي سروره أن يتبرع جلالة رضا شاه بهلوي بإيفاد أستاذ خاص لتدريس الآداب الفارسية، وهو يرجو أن يتبرع جلالة ملك العراق بإيفاد من يقوم بتدريس الآداب العربية في معهده»(٢).

ومن غايات طاغور السامية خلق حضارة آسيوية شاملة لا تختص بقطر أو قومية.

يحتفون به في كل مكان

في كل محطة كان الشاعر الأعظم


الزهاوي

موضع حفاوة وإجلال، في خانقين وشهربان، في بعقوبة وفي محطة بغداد(٣). لقد صفقت الأيدي له عالياً، لقد كانت الأفواه تهتف بحياته، والأزهار تُنثر عليه.

هو ذا ابن الإنسانية البار ينعم بعطف الإنسانية وإكرامها، ألا فليحي طاغور.

آخر مساء قضاه طاغور على ضفاف دجلة

احتفالات عديدة أقيمت لضيف العراق الكريم الدكتور رابندرانات طاغور طوال الأيام العشرة التي قضاها في بغداد، كان في كلها موضع

حفاوة وإجلال وإعزاز.

ولربما لا نكون مغالين إذا قلنا: إن الاحتفال الأخير الذي أقيم للشاعر الكبير مساء الأحد الماضي كان أكثر الاحتفالات جمالاً، وأشدها أثراً في النفوس. لقد كان احتفال الوداع.

ففي قصر الشابندر المطل على شواطئ الكاورية في دجلة، اجتمع لفيف من الأدباء والصحفيين يحيطون بالضيف العزيز. كل شيء كان سحرياً، شعرياً، الطبيعة هادئة، النسيم عليل، الأزهار يفوح شذاها، النهر يجري رقراقاً. والمغنية العراقية الشهيرة «الست جليلة» تطرب في هذا الاجتماع الشاعر العالمي - الذي رغب في استماع موسيقانا وغنائنا - بأعذب الأغاني العراقية الشجية مصحوبة بأنغام جوقها المبدع «المتبرع».

رابندرانات طاغور

- شاعر هندي ولد عام ١٨٦١م ورحل عن عالمنا عام ١٩٤١م.
- من أعلام الأدب العالمي.
- امتاز شعره بروح التدين والوطنية.
- حاز على جائزة نوبل عام ١٩١٣م.
- من دواوينه الشعرية: ذكريات، قربان الأغاني، أغاني المساء، أغاني الصباح، رسوم وأناشيد.

المفروض عليها تجاه شخصية فذة».

وجاء في كلمة صاحب الحاصد «إن الأزهار تتضوع فتبعث شذاها الى مدى محدود من جنائن وبساتين، والأنهار تتدفق فتغدق خيراتها على بقاع محصورة؛ أما أزهار شاعرية طاغور فقد كانت تنعش القريب والبعيد، ونهر حكمه الفياض كان وما زال يسقي عالماً بأسره. إن طاغور لكالشمس كان ومازال يبعث بالأشعة إلى مرتفعات الجبال، وأعماق الأودية أشرقاً كان أم غرباً، جنوباً أم شمالاً».

وألقى رب الدار الشاب المهذب إبراهيم بك الشابندر كلمة طيبة تناسب المقام.

وقام طاغور بإبداء الشكر للصحافة العراقية وللشباب العراقي وللعراقيين كافة. وإذ تأهب الحضور للانصراف طلب الأستاذ الرصافي من الأستاذ عبدالمسيح وزير الذي كان في هذه المرة أيضاً المترجم

رابندرانات طاغور بين الشعراء والأدباء الإيرانيين أثناء زيارته لايران

كل شيء كان سحرياً

شعرياً: الأحاديث، الابتسامات، الخطب؛ فقد انبرى الأستاذ إبراهيم حلمي العمر، وهو بلا جدال القطب الذي دارت حوله هذه الحركة الأدبية المباركة لمناسبة مقدم الشاعر العظيم، فارتجل كلمة وداعية كلها رقة وبلاغة. أجابه المحتفى به بكلمة أرق وأبلغ. ثم دعي صاحب مجلة «الحاصد» ليلقي كلمة باسم الصحفيين، فارتجل كلمة مناسبة جاء فيها: «إنه لا يخاطب الضيف العزيز كواحد من ملايين قرائه الذين طالما اغتذوا بلبان حكمه (وسلسال) شعره، ولا كواحد من أبناء البشرية المتألمة الذين طالما واسى طاغور آلامهم، وخفف من ويلاتهم، وضمد جروحهم بدعواته القدسية الحارة.

إنما يخاطبه كأحد أبناء الأسرة الصحفية العراقية التي كثيراً ما ازدهرت حقولها ببدائع طاغور وروائعه، والتي نخشى أنها كانت مقصرة في القيام بالواجب الأكمل

ترشيق لخطب الحفلة، أن يكلف الضيف العزيز أن يلقي نظرة على دجلة الوادعة، ويتنشق هواء العراق بملء رئتيه، وأن يتطلع إلى عقد المصابيح الكهربائية الخافقة في هذه الساعة التذكارية الجميلة. وقال شاعرنا العبقري الكبير الرصافي:

«إن هذا الخفوق وهذه المناظر الطبيعية الخلابة، لأفصح منا لساناً، وأقدر على التعبير عما في الصدر في مثل هذه المواقف».

هوامش

١. «خانقين» بلدة شرق العراق على الحدود العراقية - الإيرانية حيث كان طاغور في إيران في طريقه الى العراق.
٢. لا نعلم إن كان الملك فيصل الأول. ملك العراق آنذاك قد لبى طلب الشاعر!
٣. هي أسماء المدن التي يمر القطار بها من الحدود العراقية إلى بغداد.

قصص قصيرة

لقد منحونا الأرض

خوان رولفو
ترجمة: محمد القاضي
طنجة . المغرب

بعد ساعات طويلة من السير على الأقدام لم نجد خلالها ظلالاً لشجرة ولا نبتة صغيرة ولا شيء يذكر، كل ما هناك هو نباح الكلاب الذي يتناهى إلى سمعنا. وكنا في منتصف هذا الطريق المقفر نفكر أحياناً بأننا لن نعثر على شيء ما في نهاية هذا السهل المنبسط والمتشقق بالأخاديد والجداول الجافة. ومع ذلك فثمة ما يلوح في الأفق. هناك قرية. إننا نسمع نباح الكلاب من بعيد، نشم رائحة دخان يتطاير في الهواء، كل هذا يحدث بصيصاً من الأمل والراحة في نفوسنا.

لكن القرية مازالت بعيدة، والريح وحدها تقربها إلينا.

نحن نسير منذ الفجر، والساعة الآن تشير إلى الرابعة بعد الظهر. ينظر أحدنا إلى السماء، ويفتح عينيه محدقاً بالشمس المعلقة بلا حركة في جوف السماء ويقول:

إنها الرابعة بعد الظهر تقريباً.

ميلقون هو الذي تكلم، وبجواره كنا ثلاثة: فاوستينو واستيفان وأنا.

نحن أربعة.. اثنان في المقدمة واثنان في المؤخرة. ألتفت إلى الوراء ولا أرى أحداً.. وأقول في نفسي: نحن أربعة، وقبل فترة، أي في حدود الحادية عشرة، كنا نحو عشرين شخصاً. لكنهم تفرقوا شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم إلا هذه المجموعة الصغيرة.

قال فاوستينو: قد تمطر السماء.

ونرفع رؤوسنا نحو غيمة سوداء كثيفة تمر من فوقنا. فقلنا في أنفسنا: قد تمطر فعلاً. وصمتنا، ولم يفصح أحد عما يجول في ذهنه. ومضى وقت ونحن لا نرغب في الكلام، الحرارة هي التي دفعتنا إلى السكوت. لقد جفت حناجرنا من شدة الحرارة. كان يحلو لنا الكلام عندما كنا ما نزال في مكان غير هذا، ولكن الكلام هنا يتطلب منا جهداً، ولا أحد يقدم على الكلام. هنا، حيث نتكلم يسخن الكلام في أفواهنا بسبب الحر، ويجف فوق اللسان ويغدو مثل لهاث.

فجأة تسقط قطرة ماء كبيرة ومستديرة، وتحفر ثقباً في الأرض تاركة عجينة مثل عجينة اللعاب.

إنها القطرة اليتيمة التي تسقط، ونأمل أن يعقبها فيض منها.. وتبدأ عيوننا تبحث عنها، ولكنها لا تجد سواها، السماء لا تمطر. والآن ننظر إلى السماء ونجد الغيوم تتسابق في سرعتها، تدفعها الريح الآتية من القرية باتجاه ظلال المنحدرات الزرق. أما نقطة المطر التي سقطت خطأ فقد شربتها الأرض واختفت في عطشها. ترى لماذا يتسع هذا السهل المترامي، ومن أجل ماذا؟

كنا قد شرعنا في المشي، وتوقفنا لنرى السماء تمطر، ولكنها لم تمطر، وتابعنا السير وأعتقد أننا سرنا أكثر مما ينبغي. هذا ما يخطر ببالي الآن. ولو أمطرت، لكنت قلت، ربما، شيئاً آخر. وأنا أعلم أنني منذ طفولتي حتى اليوم لم أر المطر يهطل فوق السهل، لم أعرف ما هو المطر؟.

السهل لا ينفع لشيء، فليس فيه أرانب ولا طيور، لا شيء

البتة، سوى قليل من الأشواك الجافة والمتناثرة هنا وهناك.. لا يوجد شيء على الإطلاق.

وها نحن أولاء في هذه البقعة نمشي على أقدامنا، وكنا من قبل نمتطي جياداً، ونحمل بنادق فوق أكتافنا. أما الآن فلا جياد ولا بنادق. وكان يخيل إلي أنهم أحسنوا صنعاً إذ جردونا منها، لأنه ضرب من المجازفة أن تتجول في هذه المناطق ومعك سلاح ما. ويمكن أن يقتلوك في أية لحظة إذا ما رأوك مسلحاً، أما بالنسبة إلى الجياد فهذه قصة أخرى. ولو كنا على ظهورها لشربنا من مياه النهر الخضراء، وتنزهنا في شوارع القرية، فتهضم بطوننا الأكل الذي أكلت؛ لكنهم أخذوا منا الجياد والبنادق!



أنظر من حولي وأرى السهل أراضي شاسعة لا يكسوها شيء، الأعين تنساب ولا شيء يستوقفها. وحدها بعض الزواحف تطل برؤوسها من ثقوب الأرض وتسرع لتحتمي في ظل جحرها ما أن تشعر بحرارة الشمس. ولكن ماذا عنا نحن وعلينا الاشتغال هنا؟ فما الذي سيحمينا من الشمس؟ ولماذا منحونا قشرة الأرض المشققة هذه لنزرعها؟

قالوا لنا:

- من هنا إلى هناك، إلى القرية كل شيء لكم.

وتساءلنا:

- السهل؟

- نعم، السهل، السهل الكبير كله.

- أردنا أن نعبر عن رفضنا السهل وأن نقول: إن ما نبغيه هو المنطقة المجاورة للنهر، ومن النهر إلى هناك، حيث الحقول والأراضي الصالحة وأشجار الكازورينا Casurainas وليس جلد البقرة اليابس هذا، والذي يدعونه السهل.

ولكنهم لم يأذنوا لنا بالكلام، ولم يحضر مندوب الحكومة لمناقشتنا، واكتفى فقط بوضع الأوراق بين أيدينا وقال:

- لا تخافوا من أن تكون لكم وحدكم كل هذه الأراضي الشاسعة.

- لكن السهل يا سيدي المندوب!

- إنه آلاف وآلاف من الأفدنة.

- ولكن ليس ثمة ماء، وليس ثمة ما يكفي لملء أفواهنا به.

- والعاصفة؟ لم يبلغكم أحد بأننا سنمنحكم أراضي سقي، وعندما تمطر سوف تنبت الذرة جيداً.

- ولكن يا سيدي المندوب: إن الأرض صلبة وقاسية، ولا نعتقد أن المحراث يستطيع أن يغوص فيها. ويجب أن نشق حفراً بالمعول لزرعها، وحتى هذا ليس مؤكداً من أن شيئاً ما سينبت، لا ذرة ولا شيء آخر.

- عليكم أن تقدموا احتجاجكم كتابة، والآن انصرفوا.

- إن الاحتجاج يجب أن يقدم إلى الأرض وليس إلى الحكومة التي تمنحكم الأرض.

- انتظر قليلاً يا سيدي المندوب، نحن لم نقل شيئاً ضد المركز. ما قلناه هو ضد السهل فقط. ونحن لا نستطيع مواجهة المستحيل. هذا ما قلناه.

- انتظر لكي نشرح لك.

- لكنه لم يكن ليستمع إلينا.

هكذا منحونا هذه الأرض، وهم يريدون أن نزرعها ليتأكدوا إذا كان ثمة زرع يمكن أن ينبت فيها. لكن هنا لا شيء يمكن أن ينبت. حتى النسور تحلق عالياً في السماء، بعيداً جداً، محاولة الخروج بأقصى سرعة ممكنة حيث لا شيء يتحرك، وحيث يبدو السير إلى الأمام تراجعاً إلى الوراء.

يقول ميلتون: هذه هي الأرض التي منحوها لنا.

يقول فاوستينو. ماذا؟

- أما أنا فلم أنبس بشيء، وأعتقد أن ميلتون فقد صوابه، ولعلها الحرارة التي تجعله ينطق بهذا الكلام. فهي قد تسربت من تحت قبعته وسخنت رأسه، وإلا لماذا يتحدث هكذا؟

- مــا هــذه الأرض التي مـنحــونـا يا ميلتــون؟ هنا لا يوجد ما يلزم الريح لكي تثير الزوابع؟!

- قال ميلتون أيضـًا:

- لا بد أنهــا تنفع لشيء مـا، لـعـدو الأفراس، ربما.

- أية أفراس؟ يتساءل استيفان.

أنا لم أدقق في ملامـح استيفان من قبل، تنبهت إليـه الآن بينما هو يتكلم، فـهو يرتـدي سـترة تصل إلى سرته، ومن تحت السـتـرة يطل رأس قد يكون رأس دجاجة.

- نعم، إنها دجاجـة حمراء، واستيفان يحملها تحت سترته، كـانت تبدو نائمة ومنقارها مفتوح، وكأنها تتثاءب.

- فسألته:

- اسمع يا استيفان، من أين سـرقت هذه الدجاجة؟

- إنها دجاجتي.

- ولكن لم تكن معـك من قبل، من أين اشتريتها؟

- لم اشترها. إنها من حظيرتي.

- إنهــا، إذًا، زادك في الرحلـة. أليس كذلك؟

- لا، بل أحـمـيـهـا. لقـد تركت بيتي خاليًا، وليس هناك من يطعمها. وإنني دومًا أحملها معي حين أبتعد كـثيرًا عن بيتي.

- لكنها ستختنق إذا ما أبقيتها تحت السـتـرة، الأفـضل أن تـخـرجـهـا إلى الهواء.

- أخرجها ووضعها تحت ذراعه ونفخ فوقها بلهاثه الحار. ثم قال:

- نكاد نصل الوادي.

ويتابع استيفان حديثه دون أن أصغي إليه.

- وشكلنا صـفًا واحدًا كي نهبط إلى الوادي، وكـان اسـتـيـفـان يمشي في المقدمة، يحمل الدجاجة من أطرافها ويرفـعـهـا من وقت إلى آخـر حتى لا يرتطم رأسها بالأحجار.

وبقدر ما كنا نـنحدر، كـانت الأرض تبدو أفضل نوعية، وكان الغبار يلتف من حولنـا، كما لو كنا قـافلة من البـغال وهي تهبط إلى الأسـفل، لكننا كنا نـسـتـأنس بالغبار.

وبعد رحلة دامت إحدى عـشرة ساعة مشـينا فيها فوق صلابة السـهل، وجدنا أنفـسنا نـطأ أرضـًا لهـا طعم الأرض، ففرحنا.

على التـلال الخضـر فوق النهـر تحلق طيـور خـضـر. وهذا مـا أفرحنا أيضـًا. والآن نسمع نباح الكلاب، القرية قريبة منا. وبسبب الريح التي تهب من القرية، فـإن النبــاح يرتد نحـو الـوادي ويملؤه بضـجيجـه. وعندما اقتربنا من بيوت القرية، حمل اسـتيـفان دجاجتـه بين ذراعيـه، واختفى وإياها وراء الأعـشاب البرية. ثم نظر إلينا وقال:

- هنا سأقيم!

أما نحـن فقد تابعنا سيرنـا إلى الأمام، ودخلنا إلـى القرية، بينمـا الأرض التي منحوها لنا ظلت وراءنا هناك.

الهوامش

- خوان رولفو أديب من المكسيك (١٩١٨- ١٩٨٥م). وشخصية نادرة في الأدب المكتوب باللغة الإسبانية، وواحد من أكبر العباقرة المبدعين في هذا القرن. كتب أول أعماله الأدبية «السهل الملتهب» سنة ١٩٥٣م و«بيدرو بارامو» سنة ١٩٥٥م. وعلى الرغم من قصر أعماله فقد كان لها دور طلائعي في ميدان النثر في القرن العشرين. حاز على الجائزة الوطنية في الأدب بالمكسيك، وجائزة أستورياس الإسبانية. شهد شهرة عالمية، وترجمت أعماله إلى أكثر من خمسين لغة. تميزت أعماله بأسلوبها الأدبي المتفرد، وبنائها المتماسك الذي يضارع بناء فولكنر. «ويجمع أسلوب رولفو في قصصه وفي رواياته، بين اللغة الشعبية واللغة الشعرية. وفي أعماله يبلغ من امتزاج الفانتازي والواقعي أنه في بعض الحالات لا يمكن عمليًا التمييز بين الواقع والخيال المخترع (الفانتازيا). ويصوغ كل أعماله القاسم المشترك للوحدة والموت.. ومن المؤكد أن كل قصص رولفو تشير إلى حقائق فيزيائية تاريخية أو اجتماعية. لكنها جميعًا مكتوبة بالضمير الأول المفرد، وجميعها تكتسب نغمة اعتراف. فكان على الشخصيات أن تهرب من وحدتها وتوصلها إلى القراء. وفي العادة تقع أقاصيص رولفو في الحاضر وفيها جميعًا، على وجه التقريب، تظهر كلمة (ذاكرة) أحيانًا بصورة متكررة. وفي لحظة حاسمة من حياتها يكون على الشخصيات أن تتذكر الماضي بينما تود نسيانه بكل طاقتها» [illegible] كتاب: «أدب أمريكا اللاتينية» قضايا ومشكلات. القسم الأول. سلسلة عالم المعرفة. عدد ١١٦ ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

إن قصص رولفو ذات أرضية خصبة، يتصدر كل قصة قروي فقير يعيش في عالم يناهضه: أرض [illegible] جرداء، و[illegible] محروم من جميع حقوقه كإنسان.

شخصيات القصة تتحدث دائما فيما بينها أو تناجي نفسها في حديث داخلي مغلق، وهي في بعض أعماله تعيش مهمشة متخلفة عقليًا، متابعة قانونيًا، إنها مرتبطة بالقضاء والقدر، مغلوبة على أمرها من الطبيعة، ومن الوسط الاجتماعي. وهذا يوضح صورة الصراع والعنف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي في المجتمع، عالم متفكك لا يكتمل أبدًا لأن هناك حاجة تنقصه دائمًا.

[illegible] الاجتماعي مستمر في العالم الطبيعي والإنساني (جذب الأرض) مع سيطرة (الفردية) عند شخصيات الحكاية والحياة التي يعاني منها الفقراء كظاهرة انفصام الشخصية عن واقعها، وهو ما يحدث في كثير من قصصه. فالإنسان عند رولفو هو رمز المجتمع الذي تعيش فيه الفوضى والفقر والحزن والحقد والأحكام القمعية التي تمنع هذا الإنسان (المجتمع) من التحرك والمطالبة المستمرة.

ففي قصة «لقد منحونا الأرض» وهي أول قصة كتبها رولفو. ونشرت أول مرة في مجلة PAN التي كانت تصدر في مدينة «وادي الحجر» وذلك سنة ١٩٤٤م.

في هذه القصة تحاول مجموعة من الرجال، بصورة واقعية، الحياة في مكان قفر، ويجدون أنفسهم محكومًا عليهم بالبؤس والموت، وهي ضمن المجموعة: «السهل الملتهب»

بالاسبانيةLLAND EN LLAMAS PS: 129 - 133
(COLECCION NARRATIVA) EDITORIAL PLANETA
BARCELONA - ESPANA

النافذة المفتوحة

هـ. هـ. مونرو

ترجمة: زهير رومية

دمشق. سورية

«ستحضر عمتي في الحال، سيد نوتيل». قالت السيدة الشابة الرصينة ذات الخمسة عشر عاماً، «وأضافت في غضون ذلك، عليك أن تنتظر وتصبر معي».

حاول فرامتون نوتيل أن يولي بعض الاهتمام لابنة الأخ بأن يجاملها باقتضاب، وبما لا يقلل من أهمية العمة التي كانت على وشك القدوم. في سره، كان يشك أكثر من أي أحد آخر، في أن هذه الزيارات الشكلية المتوالية لغرباء، سوف تجدي في مساعدته على الشفاء من التوتر العصبي الذي كان يفترض به أن يتخلص منه.

قالت له أخته عندما كان يحضر للرحيل إلى هذا المعتزل الريفي: «أعرف كيف سيكون الحال... ستدفن نفسك هناك، ولن تتكلم مع شخص حي، وستسوء حالتك العصبية أكثر بسبب الكآبة. سأعطيك رسائل تقدمة إلى كل الأشخاص الذين أعرفهم هناك. بعضهم، كما أذكر، كانوا ممتعين جداً. تساءل فرامتون: هل السيدة سابلتون، التي يحمل لها واحدة من تلك الرسائل، من بين ذلك «البعض» الممتع؟.

سألت ابنة الأخ، عندما رأت أنهما تبادلا ما يكفي من الصمت «هل تعرف الكثير من الناس هنا؟».

قال فرامتون: «شخص واحد على الأكثر، أنت تعلمين أن أختي كانت تقيم هنا، في بيت القسيس، أنت تعلمين، منذ نحو أربع سنوات مضت، وقد زودتني برسائل تقدمة إلى بعض الأشخاص هنا».

قال العبارة الأخيرة بلهجة أسف واضحة.

أضافت السيدة الشابة الرصينة: «إذاً، عملياً، أنت لا تعرف شيئاً عن عمتي؟».

«اسمها وعنوانها فقط». أقر المنادى. كان يتساءل هل السيدة سابلتون متزوجة أم أرملة. ثمة شيء ما غير واضح في الغرفة، جعلها تبدو سكناً لرجال.

قالت البنت: «حدثت مأساتها الكبيرة منذ ثلاث سنوات... أي منذ أيام أختك».

سأل فرامتون: «مأساتها؟.. بطريقة ما، تبدو هذه البقعة الريفية الوادعة بعيدة عن أن تكون مسرحاً لمآس».

قالت ابنة الأخ مشيرة إلى نافذة فرنسية ضخمة مفتوحة على المرج: «قد تستغرب لماذا نبقي تلك النافذة الواسعة مفتوحة في ظهيرة يوم من أكتوبر».

قال فرامتون: «الطقس دافئ في مثل هذا الوقت من السنة.. ولكن ما علاقة تلك النافذة بالمأساة»؟.

قالت البنت: «عبر تلك النافذة، منذ ثلاث سنوات، خرج زوجها وأخواها الشابان في رحلة صيد. لم يرجعوا أبداً. أثناء عبورهم المستنقع باتجاه البقعة المفضلة لديهم للصيد، ابتلعتهم سبخة مستنقعية غادرة. حدث هذا في ذلك الصيف المطر البغيض، أنت تعلم، الأماكن التي كانت آمنة، انحسرت فجأة دون سابق إنذار. أجسادهم لا تستعاد، وذلك هو الرهيب في الأمر». هنا، فقد صوتها نغمته الهادئة، وتحول إلى صوت متهدج: «على الدوام، تفكر عمتي المسكينة أنهم سيرجعون يوماً ما، هم وكلبهم الرمادي الصغير الذي فقد معهم، وسيجتازون النافذة كعادتهم. لهذا السبب، نبقي النافذة مفتوحة حتى تحل الظلمة تماماً. يا لعمتي العزيزة المسكينة، تخبرني مراراً كيف ذهبوا، زوجها وقد وضع معطفه الأبيض الواقي من المطر، وأخوها البكر وهو يترنم «بيرتي، لم أنت عاضبة؟». هكذا كان يفعل دائماً ليغيظها، فهي اعتادت أن تقول: إنها تضبط أعصابها. هل تعلم أنني أحياناً وفي الساعات الهادئة الساكنة كهذه، غالباً ما ينتابني شعور بأنهم سيرجعون وسيمرون عبر تلك النافذة؟..».

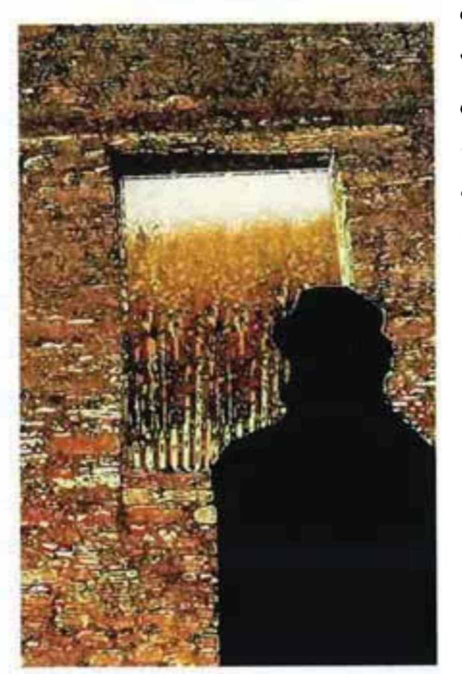
هنا توقفت فجأة، وارتعشت قليلاً. كان مريحاً لفرامتون أن

دلفت العمة مسرعة في تلك اللحظة إلى الغرفة وهي تعتذر بتشوش وارتباك عن تأخرها في إتمام زينتها فقالت:

«آمل أن تكون فيرا قد روحت عنك».

قال فرامتون: «كانت ممتعة جداً».

قالت السيدة سابلتون برشاقة: «أرجو ألا تزعجك النافذة المفتوحة»، وأضافت: «زوجي وأخواي يرجعون إلى المنزل حالاً من رحلة الصيد. لقد اعتادوا الدخول منها دوماً، ذهبوا اليوم للصيد في المستنقعات، لذلك أتوقع أن يتسببوا في بعض الفوضى والاتساخ لسجاداتي المتواضعة، كما يفعل كل الناس، أليس كذلك؟». ثم استمرت في الثرثرة حول أمور الصيد وندرة الطيور وعن التوقعات بخصوص البط في الشتاء. بالنسبة إلى فرامتون، كان كل ذلك مرعباً تماماً، لقد بذل جهداً يائساً ليدير دفة الحديث باتجاه موضوع أقل ترويعاً، كان يعي أن مضيفته توليه جزءاً يسيراً من اهتمامها، بينما عيناها تتيهان بثبات، متجاوزة إياه، نحو النافذة المفتوحة والمرج الذي وراءها. بالتأكيد. كانت مصادفة غير مناسبة أن يمضي زيارته في ذكرى مأساوية كهذه.



«اتفق الأطباء في طلبهم مني، الراحة التامة، والابتعاد عن الإثارة الذهنية، وتجنب أية تمارين جسدية عنيفة». أعلن فرامتون، الذي كان يرزح تحت وطأة الوهم بأن هؤلاء الغرباء عنه، يتعطشون لمعرفة أدق التفاصيل عن اعتلاله الجسدي وأمراضه. ثم أكمل قائلاً: «فيما يخص الحمية الغذائية، لم يكن اتفاقهم تاماً».

قالت السيدة سابلتون: «لا» بصوت أحدث فجوة في اللحظة الأخيرة، بعدها، تهلل وجهها فجأة بانتباه يقظ، لكن ليس لما كان يقوله فرامتون. وصرخت:

«هاهم أخيراً!.. تماماً في موعد شرب الشاي، ولا يبدو أنهم دُكْن اللون من الاتساخ!»

تململ فرامتون باستخفاف. ثم التفت تجاه ابنة الأخ بنظرة قصد أن يعبّر بها عن تفهمه وتقديره المتعاطف. كانت البنت تحدق بعينين مبهورتين عبر النافذة المفتوحة. وبرعشة من القشعريرة الناجمة عن خوف مجهول المصدر، استدار فرامتون في مقعده ثم نظر في الاتجاه نفسه.

في الشفق الأدكن، كان ثمة ثلاثة أشخاص يعبرون المرج متجهين صوب النافذة، كانوا جميعاً يتأبطون البنادق، وواحد منهم، إضافة إلى ذلك، يحمل معطفاً أبيض ألقاه على كتفيه، بينما كلب رمادي اللون يمشي متعباً بمحاذاة أقدامهم بلا ضوضاء، اقتربوا من المنزل، عندها، انبعث من عتمة الغسق، صوت أجش لشاب يترنم: «أنا قلت، بيرتي لم أنت غاضبة؟».

قبض فرامتون على قبعته وعصاه مذعوراً، باب حجرة الجلوس والطريق الممهد بالحصى والبوابة الأمامية، كلها كانت محطات تفصلها مسافات من الظلمة، هكذا بدت له أثناء تقهقره وانسحابه الطائش المتهور، حتى إن راكب دراجة يعبر الطريق اضطر إلى الانحراف نحو السياج تفادياً للاصطدام به.

قال الذي يحمل معطفاً أبيض، داخلاً عبر النافذة: «ها نحن، يا عزيزتي.. قليل من الوحل، لكن أغلبه جاف. من ذلك الذي فرّ أثناء قدومنا؟».

قالت السيدة سابلتون: «رجل مفرط الغرابة، سيد نوتيل هذا.. يستطيع أن يتحدث عن علله وأمراضه فقط. لقد غادر مندفعاً دونما وداع أو اعتذار حالما وصلتم، حتى ليخال المرء أنه قد رأى شبحاً».

قالت ابنة الأخ برصانة: «أعتقد أن ذلك بسبب الكلب» وأضافت: «لقد أخبرني. أن لديه رعباً من الكلاب. ففي إحدى المرات، طاردته مجموعة من كلاب الشوارع، في مكان ما على ضفاف نهر الغانج، فالتجأ إلى إحدى المقابر هناك، كان عليه أن يقضي الليل في قبر حفر حديثاً، والحيوانات تزمجر وتكشر عن أنيابها فوقه تماماً. هذا يكفي ليجعل أي شخص يفقد أعصابه».

خيال رومانسي مع عبارات قاطعة مقتضبة، تلك كانت ميزات لابنة الأخ.

هامش

المؤلف: هـ. هـ. مونرو (المعروف عالمياً باسم Saki) ١٨٧٠ – ١٩١٦م.
ولد في بورما وتعلم في المدارس البريطانية. عمل في البداية صحفياً ومراسلا أجنبيًا في روسيا وفرنسا. ثم ذاع صيته ولمع نجمه. تتميز قصصه بالدعابة والرهبة والخوف. توفي في معركة خلال الحرب العالمية الأولى.

استغاثة

إبراهيم الناصر الحميدان
الرياض - السعودية

هل اسئل عم دخيل سلاحه وكمن قريباً من ذلك المنزل؟ إن صراخ الطفل يوحي بأن أمراً ما يحدث في منزل سويلم. ولكن ما هو؟.

نظرات عم دخيل تراشقت يمنة ويسرة وعلى سطوح المنازل المحيطة. هل هو لص أطل من نافذة قريبة من سرير الطفل فأرعبه وجعله يستغيث؟ أين أبواه.. أتراهما غارقين في حلاوة أحلام آخر الليل.

يقولون: إنها أمتع أوقات النوم، ولكنه لا يعرفها، فقد أمضى أكثر سني حياته متجولاً ومتسكعاً في الأزقة والحارات.. يرصد أية حركة حتى لو كانت للكلاب المشاكسة، يطاردها بعصاه الغليظة حين تشتبك في عراك يقلق راحة النائمين من حولها.

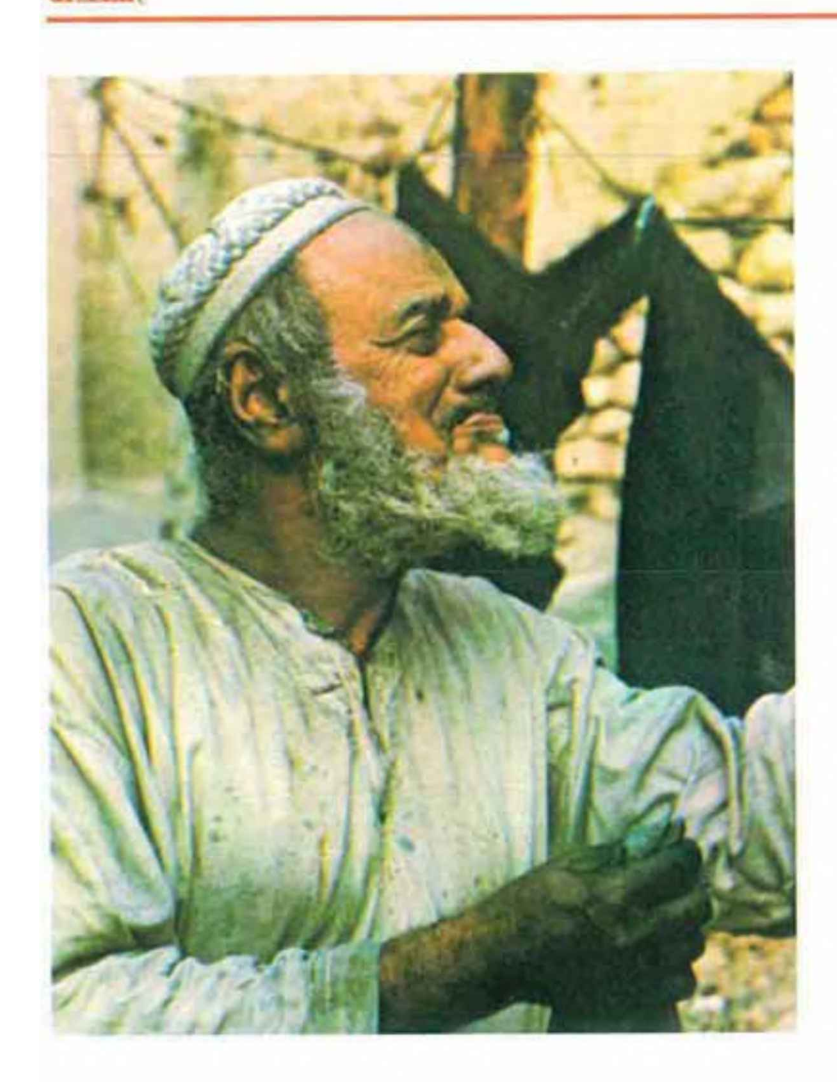
عم دخيل كهل دلف إلى مشارف الخمسين من العمر، ضخم الجثة قوي العضل.. حاد البصر. جعله عمله المضني في الحراسة الليلية رشيق الخطوات. علاقاته ومعارفه متعددة سواء من كبار السن الذين يلتقونه في أواخر الليل وهم متجهون لأداء فريضة الفجر، أو الشباب الذين تجرفهم السهرات حتى وقت متأخر من الليل مما يضطره إلى نصحهم بأن السهر مضر بالصحة ولا فائدة ترجى من ورائه.. وحين يشاغلونه قائلين: وأنت لم تسهر طوال الليل؟ يجيب متنهداً: إنها العيشة يا أولادي. وقد كتب لكل إنسان ما خلق له. فيتضاحكون مهرولين إلى منازلهم.

في هذه الليلة الشتائية كان متدثراً بالملابس الثقيلة حين تناهى إلى سمعه صراخ ذلك الطفل الرضيع. فوقف يصيخ السمع مستثاراً، ومد يده قريباً من سلاحه معتقداً أن حركة ما سوف تتلو تلك الصرخة.

هكذا هو الانطباع في العادة وتراءى له أن والدي الطفل في شُغلٍ عنه. والأطفال في مثل هذه الأوقات لا يستيقظون إلا لسبب جوهري. كأن تتسرب السوائل من جوفه فتغرق ملابسه باردة أو حارة، فتوقظه على الفور، أو يشعر بالجوع فجأة. وغير ذلك أن يرى في منامه حلماً يروعه فيستغيث ليسمع صوت أمه حتى يطمئن، وتذكر كيف أن أحفاده يفخرون به ويدعونه بالبطل؛ لأنه يطارد اللصوص في الشوارع ولا يخشاهم، بينما أمهاتهم يحذرونهم من اللصوص وقت النوم قائلين: إن اللصوص تسرق الأطفال المستيقظين.

كان الوقت يقترب من الفجر، وبعض الشيوخ يسعلون من بعيد متجهين إلى المساجد القريبة من منازلهم، إنه يكاد يعرفهم بالتحديد لكثرة ما يلتقيهم طوال العام.

الطفل لم يكف نهائيًا عن إطلاق الصرخات، وهذا ما استنفر كلّ الهواجس لدى عم دخيل، فجعله يحوم مثل الصقر حول منزل سويلم، ويستشرف أسوار جيرانه بانتظار أن يصرخ هو الآخر في



أعقاب اللص الذي روع الطفل في ليلة باردة كهذه. سوف يدعوه حتماً إلى الاستسلام وإلا سيطلق من مسدسه ما يجعله يرتعد ويطلب الرأفة. هكذا هم قساة القلوب يتمسكون بالحياة، ويخافون الموت والعقاب الرادع.

إنه يحاذر من مواجهة مثل هذه المواقف التي تجعله صلبًا لا يتورع عن إنزال العقوبات بالذين يهددون أمن المسالمين من عباد الله. والحي الذي يحرسه لا يعدّ من الأحياء التي يقطنها أثرياء، وإن كانت الأسواق المحاذية هي التي تشكل الخطورة؛ لأنها تحوي بضائع مرتفعه الأسعار بما فيها أسواق الذهب والفضة.

وتذكر أن أحفاده أخذوا يعاتبونه في الآونة الأخيرة على عدم تمكن الرجال من إنقاذ الصبي الذي سقط في بئر مهجورة في مشارف المدينة، وأخذ يصرخ مستغيثًا يطلب إبعاد الذين يضايقونه داخل البئر.

والناس يستغربون قوله لأنهم لا يشاهدون أحداً من مرصدهم فوق فوهة البئر، على أن كبار السن هم فقط الذين فسروا ما يقوله حين غمغموا قائلين: لا شك أنهم أهل الأرض من تحتنا، فسبحان الذي قسم الأماكن بين عباده!!

الصبية يستيقظون أحيانًا مروعين من تأثير هواجس حكايات الجدات التي تقصها عليهم قبيل النوم. والطفل مازال يستغيث مما جعله يفكر بأن يطرق الباب ولكنّه يتراجع في آخر لحظة معتبراً ذلك من باب الفضول والتدخل المنهي عنه. واكتفى بأن صاح بصوت مرتفع (من هناك) فاستمع إلى صدى صوته من ديدبان في شارع آخر يصرخ (صاحي.. صاحي) وترددت أصوات صافرات في أنحاء الحي. عم دخيل ارتكز على شجرة كبيرة تتوسط الحي، وبقي هناك حتى ارتفعت الشمس مائلة في الأفق وعندها غادر إلى الزقاق إلى أن وصل قريبا من منزل سويلم؛ وهناك استرعى انتباهه بعض النسوة الملفعة بالسواد بين داخلات ومغادرات وهنّ ناشجات. بل إنه رأى، ليس بعيداً عن المنزل، أكثر من رجل مطأطئي الرؤوس والحزن يفترش وجوههم.

ولقد فهم بأن زوجة الرجل توفيت تلك الليلة، وهنا أدرك بأن المرأة كانت تحتضر في أثناء استغاثات طفلها الرضيع فتمتم؛ إنا لله وإنا إليه راجعون.

رثاء العنقاء

فوزية العلوي
القصرين. تونس

أنا حذرتك من يوم أنام فلا أرى طيفك يخفق كالشراب، ويتماوج كرغوة الفضة، وأنهض فلا ألمح وجهك يتخلق من المرآة كروح الشهب، ويتوزع نرجسا ونيلوفرا فتضيء لي مشارق الأرض ومغاربها، أنا حذرتك من يوم يصبح فيه صوتك شبيها بكل الأصوات، لا قطر فيه ولا هديل، ولا حفيف ولا غنة ظباء، وبسمتك تنطفئ فلا يواقيت ولا محار.

وحذرتك من صباح أستفيق فيه فلا أشتاق، وأرتمي على فراشي فيأخذني نوم كنوم التماسيح، وأنهض فلا جوى يعصر قلبي، ولا وجل ولا انتظار ولا وحام ينتابني إن أنا أتيت الطعام.

وأخلط ألواني على ورقي فلا يحتلك شعرك، ولا يتلألأ قمرك، وأرسم الأفق البعيد فلا تفاجئني راحتك بسماحتها، ولا يتبسط قلبك، ولا تشع أناملك، ولا تعرج بي ضحكتك إلى عليين. وها قد جاء يومك فمن يرثيك ومن يحن إلى وجه بلا ماء، وقمر مندلق على مقبرة، وصوت منطفئ، أين مني هدهداته ومجراته المفضية إلى ضوء عدن؟

ها قد جاء يومك، لكني عن رثائك أجدني عاجزة، فلست اليوم بمهيج جواي، ولا بمرقرق دمعي، ولا بمصدع قلبي، ولست اليوم بمتحكم في سير الزمن، ولا بمختزل نبض العالم في حفيف خطوك وسندس خطراتك.

ها قد جاء يوم كنت حذرتك منه ومن بطرك! وياكم حذرتك من قطاعة النسيان، وعناكب اللامبالاة وغبار التشابه. ها قد جاءك يوم من رماد، أين أنت من توقد ثوانيه؟ أكتوي عليها ثانية ثانية ولحظة لحظة، وأسام فيها اختلاجات السماوات والأرض.

ها قد جاءك يوم لفظتك فيه جناني وخزامى فراديسي، وخاصمتك ملائكة الولع. وها قد جاء يومي الذي ضيعت ألقه على أعتاب بابك. فهيا انفضي يا امرأة عنك هذا الغبار ودونك النوافذ ففكي مغاليقها، وأزيحي ستائرها، وهاتي لصدرك الأفق رحبا والهواء خفاقا، وأريقي من الشمس عصير الوجود، بل طيري إليها، وامتصي حلمتها واحترقي، وافسحي لك طرقا يا كم اكتظت بطيفه فتشابكت أغصانها، واحترت أي مسالكها تسلكين؟ وفي أي مساربها تسيرين؟ دونك المدائن فارتادي حواريها، وتذوقي رحيق كرومها، وانشقي عبق بساتينها، واتشحي بألوانها، وتعشقي كحل عيونها، أم تراك نسيت كل العيون؟

... أزيحي يا امرأة عن جدار ذاكرتك هذا التقويم، واذكري الأشهر شهرا شهرا، وعيشي الأيام يوما يوما، وردي عليك مناخاتك وطقوسك، وبراعم أعوامك وعبير لحظاتك لكأن الزمن كان واقفا، وعقارب الساعة امتصها مغناطيس خلقي، فثبتت في مكانها ذات شتاء، وطارت إليها ندف الثلج فسمرتها وجمدتها، وظلت من رحيق القلب تمتص حتى مادت بك الدنيا، وكدت تتبددين، وناديت من قعر بئرك، وطين أخاديدك، وطبقات دوارك وانهياراتك الأرضية:

يا مالك المدارات أغثني، ولا تحرمني لؤلؤ نشيدك، ويا واهب المجرات سناما رد سنا لحظتي فأنا عشيت!!.

يا امرأة مالك ساهمة؟ اقذفي هذا الغصن اليابس الذي أهداك ذات مساء فجثوت عنده تتعبدين، تقبلين بتلاته الذاوية، وتنشقين ريحه الذاهب، ونسيت الأفق رحبا، والروض مزهارا تدلله الفصول. دونك اللوز، فكم

مر من ربيع لم تلتحفي بياضه، وكم تساقطت حباته فلم تلقطني لوقعها!

***

أنهض الساعة من رمادي، وأطير فوق رؤوس الملأ جميعاً، أنت أحرقتني، لا رحمت ريشي ولا منقار عاجي، ولا أظافر زمردي، ولا رضيت ببأس قوادمي تأخذني إليك، ولا أغرتك خوافي. دعوتك إلى وعدها ملأى بأسرار بهجتها هاتفة بدفء لحظتها.

أنت سرقت مني جذوة الدنيا، وأوقدت لي سقري، فلم تدعني إلا وأنا كومة من رماد.



وكنت ناديتك يا سيد الوقت، أبق عليّ دهشتي، وارفق بطفولتي وأرجحني، واقطف لي من ذاك العنب المتهدل على ناصية الليل، ثم أهملني بعدها ودعني ثم عدْ لي وهدهدني، وقل لي عمت مساء، وحييت في حزنك الجليل، واتلُ عليّ ما شئت من آياتك العذاب!

أنت أذهبت فرحي، وأوقدت عريشي وقصبي وريشي، وأربكت موازين وقتي، وزلزلت راسيات الحكمة في سفوحي. وها أنا أنتفض الساعة من رمادي، وأتبرعم من كمي، وأحمل بيضة الرخ بين أظافري، ثم أحطها على كل بحر فيغيض، وعلى كل جبل فيضج بطيره وسباعه، وينبو صنوبره، ويفوح عراره، وينطلق حجله، ويَسرح سحاليه.

أنا حذرتك من يوم تنادي فيرتد عليك صداك، وتشتاق فيسخر منك شوقك، وتتتابع أيامك بيضاً، لا من يرسم حرفاً، ولا من يريق نقطة ضوء. وتغيب فكأنك حضرت، وتحضر فكأنك غائب، وتنطق فلا تردد العنادل صوتك، وتصمت فلا تئن نواقيس، ولا تتوجع أوتار. لكأنك واثق من هذا الزمن، ولكأن قبضتك مملوءة بوعده، والزمن آكلي وآكلك، ودائس على لوزي وزيتونك، ومقتلع عروق الياسمين من صوتي، ومُلق بحة الغياب في غنائك، وجارح زجاج كؤوسنا، ومغبش مرايانا. فما ذنبي أنا إن حننت لورد من أورادك، وتغم من أنغامك، ودعوة لي عند الصباح أن قُومي فقد أعددتُ لك قهوة الصّبا وفسحة النهوند تهدهدنا لحظة، ثم تطيرها عصافير الوقت إلى غير رجعة. آه على وجوهنا من أفعوان الرمل! أو كُنت حقاً تحرمني وجهك؟

آه على أناملنا من دود الوقت! وكانت جداول النور في كفيك تُحيي موات الجذل في لحظتي، فكيف بخلت؟

آه على خطانا من برودة التراب، وقعقعة الحصى! أو كنّا حقا نضنُ بحركتنا فيجذبنا نجم إلى مداره فلا نستجيب؟ وآه، آه على شدونا سكبناه فيروزاً ورحيق كهرمان، وإكسير نجوم، فارتد علينا صدى بائساً باكيا تُحشرجه التلال وشاهقات الذّرى!!

كان لك الوقت كله، فبماذا أثثته؟ وهل تُراك أسرته؟ كان لك الصوت كلّه، فعلى منْ نثرت ياقوته وأقحوانه؟ أو ضجت له القلوب كما ضج قلبي؟ ورقصت له الأهداب كما رقص هُدبي؟ كان لك الليل كله فعلى من بسطت خزّه وديباجه؟ أو حنت له الأكف كما حنت أكفي، وتاقت له الأعناق كما حنّ عُنقي؟ كان لك الولعُ كلّه، فمن رقص بأقدام الجذل على إيقاعه وتعتعه الوله على نبضه.. كان لك.. كان لي.. وكان لي ولم يعُد لك ولم يكن لي ولم يكن لك ولم يكن لك ولم يعد لي...

ولم أعُد أدري في لحظتي ذي أأنا أرثيك أم أرثي أفول لحظتي؟

ترنيمة

حسن عبدالله الشرفي
صنعاء - اليمن

غَبَشُ شَعرِكِ هذا أم غَسَقْ
كلّما توشّحتِهِ - قلبي خَفَقْ
يتدلّى فيدلّي صبوتي
في تناهيدي كأطياف الشفق
يا ابنةَ العشرين لو نَيْلَ المنى
بيدي ما جئتُ مشبوبَ القلق
كلّما هبّتْ نسيماتُ المسا
خِلتُ قلبي بالمواجيد احترق
حينَ ألقاكِ بها هفهافةً
تسكبُ البوحَ المندّى والعبق
قلتُ للوعدِ الذي لاحتْ به
ليتَهُ مِنْ قبلِ مسراها صدق
يا ابنةَ البيتِ الذي شبّاكُه
يُشعلُ الدمعَ بعينيّ والأرق
أنا من حبّكِ في بحرٍ بلا
شاطئٍ - أطرحُ عمري للغرق



احتفالية

محمد زايد الألمعي
أبها - السعودية

من يمن هذا الذبيح؟!
تلك أكفانه تتعطر،
ذا يبرقُ الموت، في كسلٍ يتماوج،
هذي الميادين
تأخذ زينتها الكابية،
المدى رفرف بالكآبات معتكرٌ،
والمزامير؛ ريح!

***

من يمن هذا الذبيح؟!
النساء تهيأن للحزن
والأفق منتصبٌ في مهابته،
كالضريح
التوابيت تلبس بهرجها المخمليّ،
تتهامس عن أيها سوف يحضن
ذاك المليح؟!

***

من يمن هذا الذبيح؟!
ملك الموت يجمع أرتاله،
ثم يدعو
لمأدبة العنفوان الكسيح
يقرع الدهر قرعته؛
فتنز الجبال،
وينكسر الوقت،
حتى تمر الدماء!!
حزّةً؛
ويئج الضياء
حزّةً
ويمر العذاب،
أيصفح عن قاتليه القتيل؟!؟
أم يجول بأحداقهم،
ويخاصر ساعاتهم بترانيمه
السرمدية:
هاهو الآن يهزج:
لولا الدماء؛
لما ولد الشعراء
ولولا المظالم
ما اجتمع الموت والكبرياء
ولولا الأساطير
ماكان هذا الغناء

***

كان دهراً حروناً، ومر
وستنسى البلاد
تحرّق من رحلوا
وشرايينهم باتجاه المقام القبيح
كان دهراً حروناً،
وأنيابه في شرايين آبائنا
وحوافره؛
في عظام السنين
وها الصبية الآن
يستبقون إلى الشمس
ثم يسيرون
بين المقابر والنخل؛
شاهدةً
ثم كلب!
وشاهدةً، وغراب
وأسارير موتى
تسائل أبعاضها:
أترى ينسخ الوارثون الكتاب؟!

***

شاهدةٌ، ثم طفل
وشاهدةٌ
وجدار!!
والمدى: وطن
والزنازين: نار
ولولا الدماء
لما ولد الشعراء
ولولا المظالم
ما اجتمع الموت والكبرياء

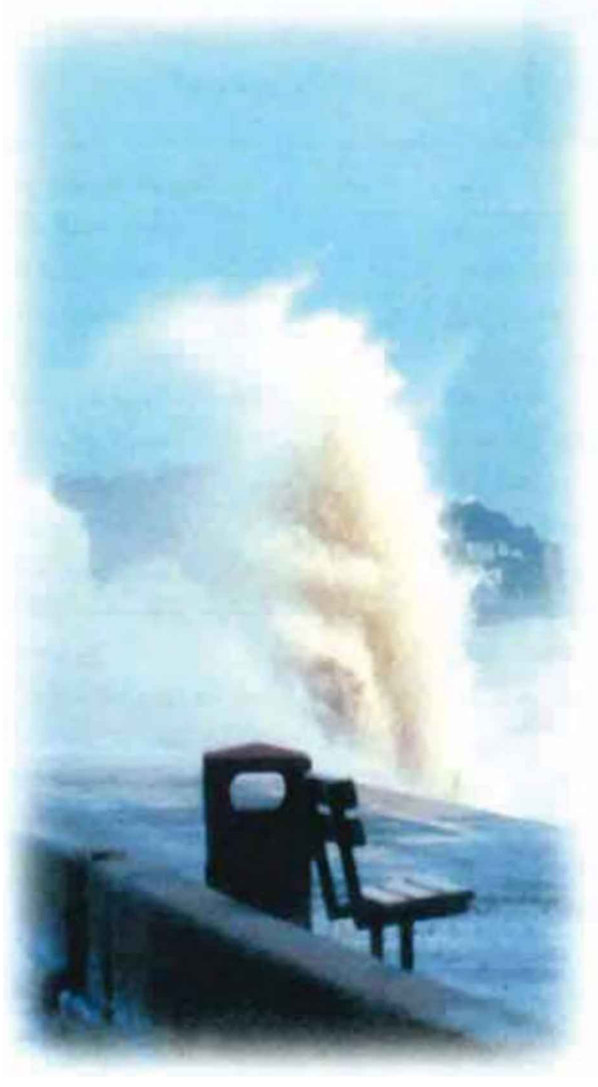
***

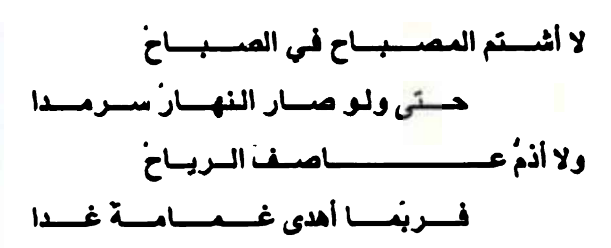
شاهدةٌ
ثم طفلٌ
وشاهدةٌ وجدار
وقهقهة في الطريق
فهل أحد يوقن الآن
أن الذي مات
في غير قبلته
سوف يشنقنا
في احتفالات هذا الدمار

قصائد ومفردات

عبدالله بن سليم الرشيد

الرياض - السعودية





لا أشتم المصباح في الصباحْ

حتى ولو صار النهارُ سرمدا

ولا أذمُّ عاصفَ الرياحْ

فربّما أهدى غمامةً غدا

◦◦◦

لقد صرتُ في دهر: إذا حفظ الفتى

لأصحابه أسماءهم عُدَّ وافيا

◦◦◦

هبوني صاغ لي فرحي ذهولا

إلى أن صرتُ دائرة الذهول

ورفَّ السعدُ في قلبي وطرفي

رفيفَ الخصْبِ في زمن المحول

ولكن لم أجد فيكم مُعينا

على فرح له ارتعشتْ فصولي

فلا تتعجّبوا إن غاض مائي

فقيمةُ فرحتي أن تفرحوا لي

◦◦◦

يستحيلُ الغمامُ قطرًا فيهمي

مُنعِمًا، والتراب يبقى ترابا

◦◦◦

إن أقسى البلاء أن تسنح الفرْ.....

حةُ في ساعة الحداد الشديد

رحلة نيقولاي باغيا فلينسكي في إمارات الخليج العربي

مراجعة: زهير التّجاني
موسكو ـ روسيا

ضمن منشورات جامعة موسكو والشرق، صدر هذه السنة كتاب جديد تحت عنوان «رحلة نيقولاي فاسيلفتش باغيا فلينسكي في إمارات الخليج العربي سنة ١٩٠٢» من تأليف غينادي غرياتشكين(١) ومارغريتا كيسلوفا(٢)

يقع الكتاب في ١٨٤ صفحة من الحجم المتوسط، ويتألف من كلمة المؤلفين ومقدمة وفصلين ثم خاتمة، بالإضافة إلى الملحق الوثائقي.

أشار المؤلفان في كلمتيهما الافتتاحية إلى أن الكتاب وضع على أساس المذكرات التي كتبها نيكراسوف (١٨٧٤ ـ ١٩٦١م) تلميذ العالم الرحالة باغيا فلينسكي الذي كان من أوائل الناس القليلين الذين طافوا بأنحاء الخليج العربي، ونقلوا للمواطن الروسي أولى المعلومات الأمينة عن هذا العالم الساحر، ومن ثم ساهموا في تشييد لبنات علاقات روسية عربية قوية. وهذا الكتاب الجديد نفسه ـ كما أوضح المؤلفان ـ هو سعي جاد لتعميق تلك العلاقات ورفع مستوى الحضور الروسي في الشرق العربي.

في مقدمة الكتاب عمل المؤلفان على توضيح الإطار التاريخي الذي تمت خلاله رحلة باغيا فلينسكي، أي أحداث نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتحولات التي شهدتها السياسة الخارجية الروسية وخاصة تجاه الشرق. فبعد حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م) والحرب التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) تراجعت القوة العسكرية الروسية وضعف تأثير روسيا سواء في أوربا أو الشرق، مخلية مكانها للقوى الأوربية الصاعدة: بريطانيا وفرنسا والنمسا. ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان العالم يدخل عصرا جديدا يتميز بتصاعد التنافس حول تقسيم العالم بين دول أوربا الغربية الأكثر تطورا، وانضافت الدول الصناعية الجديدة: الولايات المتحدة واليابان. وقد شاركت روسيا بفعالية في هذا الصراع لمواجهة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط وبلاد الفرس، وفي هذا السياق التاريخي بدأ اهتمام روسيا بمنطقة الخليج العربي التي كانت تحت النفوذ الإنكليزي.



غينادي غرياتشكين
مارغريتا كيسلوفا
موسكو: منشورات جامعة موسكو، ١٩٩٩م.

بداية العلاقات الروسية العربية

كانت أولى المعلومات التي وصلت إلى روسيا عن الخليج العربي عن طريق التاجرة والرحالة الروسية أفانيسيا نيكيتا التي توجهت في ربيع ١٤٦٨م إلى بلاد فارس والهند، ثم زارت في طريق عودتها عدة مدن في الخليج العربي، ومن خلال مذكراتها تعرف الروس أول مرة نحو ٢٥ اسما مرتبطا بالخليج العربي والعرب.

بعد ذلك بوقت طويل تطورت العلاقات التجارية الروسية بشبه الجزيرة العربية عبر ثلاث طرق: بحر قزوين ـ بحر الخليج، وآسيا الوسطى ـ الهند وطريق البحر الأسود، والبحر المتوسط ـ البحر الأحمر.

وعلى الرغم من المصاعب التي واجهت بدايات العلاقات التجارية فقد تطورت هذه الأخيرة في اتجاه تصاعدي وبدأت تتطور معها العلاقات الثقافية أيضا، وقد أدى المسلمون الروس دورا أساسيا في تعميق تلك العلاقات خاصة بزياراتهم السنوية لمكة المكرمة والمدينة المنورة لأداء فريضة الحج.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بدأت روسيا تفتح بالتدريج قنصليات في الخليج العربي، ولاسيما قنصلية «بوشهر» التي يعد افتتاحها سنة ١٩٠١م نقطة تحول نوعية وبداية عهد جديد في العلاقات الروسية بالخليج العربي، وبالعالم العربي. وبداية من سنة ١٩٠٣م تم افتتاح خط للنقل المدني بين الخليج العربي ومدينة

أوديسا، كما تمّ افتتاح بعض المؤسسات المالية والتجارية في «بوشهر»، وفي الوقت نفسه بدأت موانئ الخليج العربي تشهد زيارات السفن الحربية الروسية، وبذلك بدأ يتغير الوضع السابق عندما كانت المنطقة تحت السيادة الكلية تقريباً لبريطانيا. وتؤكد الوثائق المنشورة في الكتاب أن شيوخ الخليج العربي استقبلوا الوجود الروسي في المنطقة بترحاب وتشجيع.

دور العلماء والرحالين

يشير المؤلفان في نهاية المقدمة إلى أن علاقات الاحترام المتبادل بين روسيا والخليج العربي في جميع المجالات لم تُشيّد بفضل الدبلوماسيين فقط، بل وطدت كذلك بفضل حماسة العلماء والرحالين ورجال الدين الذين اهتموا بالشرق، وعملوا على إطلاع شعوبهم على ثقافة الخليج العربي وتقاليده ومشكلاته وحاجياته، كما عملوا في الوقت نفسه على تعريف الشعب العربي بروسيا، ذلك أن المعرفة المتبادلة هي التي تؤدي إلى تعزيز العلاقات الرسمية بين الجانبين.

نبذة عن فلينسكي

اشتمل القسم الأول من الكتاب على تعريف بشخصية الرحالة والأستاذ بجامعة موسكو نيقولاي باغيا فلينسكي الذي ولد في ٩ تشرين الأول/أوكتوبر عام ١٨٧٠م بمدينة ريزان، وعاش طفولة صعبة حيث اضطر منذ سن الرابعة عشرة - بعد وفاة والده - إلى العمل لإطعام أسرته، إلا أن ذلك لم يمنعه من الدراسة، وعندما أنهى التعليم الثانوي بتفوق التحق بجامعة موسكو بقسم العلوم الطبيعية. وخلال حياته الجامعية برز لدى باغيا فلينسكي ولع بالترحال حيث قام بعدة رحلات علمية، كما اهتم بعلم الوراثة ونشر عدة أبحاث مهمة في هذا الإطار. وفي سنة ١٩١٣م عيّن رئيساً لقسم «علم الأنسجة والأجنة» حيث عمل بهمة عالية حتى وفاته عام ١٩٢٩م بعد صراع طويل مع مرض الملاريا الذي أصابه في إحدى رحلاته العلمية في تركمانستان.

كانت اهتمامات باغيا فلينسكي وأبحاثه متعددة، فبالإضافة إلى علم الأنسجة والأجنة، اشتغل أيضاً في مجال الأنثروبولوجيا (علم السلالات)، والإثنوغرافيا (علم الأجناس)، كما تخصص في علم الحيوان.

وخلال أعماله العلمية آمن باغيا فلينسكي بأن البحث العلمي يجب ألا يظل حبيس المختبرات، بل عليه البحث في الواقع الحياتي الملموس، والأماكن الطبيعية الحقيقية لجمع مادة البحث، وهذا ما دفعه إلى القيام برحلات طويلة قادته إلى الجهات الأربع من العالم، ولاسيما أوربا والشرق، حيث زار الهند وبلاد فارس والمغرب ومصر والخليج العربي. وخلال كل تلك الرحلات، وفي كل مكان وطئته قدماه كان يجمع في عمله بين الطبيعة والعلم، والفن والأدب، والإنسان والسياسة، والثقافة و(الإثنوغرافيا)....، وبذلك تحديداً تميز باغيا فلينسكي بأنه عالم موسوعي يؤمن بالدور الإنساني للعلم في التقريب بين الشعوب.

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان العالم يدخل عصراً جديداً يتميّز بتصاعد التنافس حول تقسيم العالم بين دول أوربا الغربية الأكثر تطوراً

رحلة فلينسكي إلى الخليج

أما القسم الثاني من الكتاب فقد تتبع رحلة باغيا فلينسكي للخليج العربي خلال أبريل/نيسان - يونيو/حزيران ١٩٠٢م، فكانت فكرة إرسال عالم إلى الخليج العربي لتجميع عيّنات من حيوانات المنطقة قد ولدت في منتصف عام ١٩٠١م داخل جمعية محبي العلوم الطبيعية و(الإثنوغرافيا) التي كان باغيا فلينسكي أحد أعضائها، وكانت هذه الفكرة تلحّ عليه منذ عدة سنوات، وقد حاول تنفيذها برفقة صديقه بابرينسكي عام ١٨٩٦م إلا أنهما عادا من منتصف الطريق عندما أخطرتهما القنصلية الروسية في طهران بأنها لا تستطيع ضمان أمنهما بسبب الأوضاع المضطربة في جنوب بلاد فارس. لذلك لم يضيّع باغيا فلينسكي الفرصة الجديدة - ولو وحيداً - وأنشأ لجنة خاصة لإعداد الرحلة.

كان شيوخ إمارات الخليج العربي قد تسلموا في لحظة انطلاقه رسائل تزكية من القنصل العام الروسي في طهران، عبّروا فيها عن استعدادهم لاستقبال العالم الرحالة. ولم يخف هذا الأخير - مع تجربته الطويلة في الترحال - تهيّبه من زيارته وحيداً لمناطق لا يعرف عنها بعد أي شيء، ولم يزرها أحد تقريباً من الأوروبيين.

في نهاية شتاء عام ١٩٠٢م كانت الرحلة جاهزة، وتوجه باغيا فلينسكي إلى ميناء أوديسا الذي سينطلق منه إلى الخليج العربي على ظهر السفينة «كورنيلوف»، إلا أن السفينة كانت قد غادرت الميناء قبل وصول الرحالة إليها مما اضطره للانتظار أسبوعاً كاملاً وكان في هذا الأسبوع نهباً للقلق.

وأخيراً انتهى الأسبوع وأقلعت السفينة «كورنيلوف» من جديد محمّلة بالسكر الذي كان من أهم المواد التي تصدرها روسيا إلى منطقة الخليج، في اتجاه ميناء إسطنبول مروراً بعدة موانئ على البحر المتوسط والبحر الأحمر وكذلك الخليج العربي مثل بورسعيد، وجيبوتي، وعدن، وجدة، ومسقط وغيرها. وقد وصف باغيا فلينسكي هذه الطريق في اتجاه «بوشهر» بشكل رائع في مقالته «عبر ساحل الخليج العربي» التي يتضح من خلالها كيف كان هذا العالم الرحالة ذو التجربة العنيدة مبهوراً ومأخوذاً بالساحل الساحر، حيث الشمس الساطعة والأسماك الطائرة والدلافين الواقفة والنخيل والواحات والبيوت الصغيرة البيض.

وعندما دخلت سفينة «كورنيلوف» الخليج العربي كانت مسقط بمينائها الدولي الشهير أولى محطاتها. ومع سحر المنطقة وجمالها وكرم وضيافة أهلها انكب باغيا فلينسكي على البحث في كل ما يحيط به يملؤه شعور المواطن المُلزم بنقل كل تفاصيل ما يرى إلى شعبه الروسي.

وأخيراً وصل باغيا فلينسكي إلى «بندر - بوشهر» الميناء الرئيس

على الخليج العربي آنذاك. ولم تكن أهمية «بندر ـ بوشهر» تكمن في كونه ميناء تجاريا مهماً فحسب، بل كذلك لأنه كان مركزاً سياسياً بارزاً في منطقة الخليج العربي؛ إذ كانت توجد فيه قنصليات أهم الدول الفاعلة آنذاك على الساحة العالمية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولندا وروسيا.

اضطر باغيا فلينسكي أن يقضي الشهر الأول من رحلته في المدينة بسبب أحوال الطقس في ضيافة قنصل روسيا «أوفسيينكو» يحضر لتنفيذ مهامه العلمية، ويلتقي بأبرز شخصيات السلطة المحلية، وعندما تحسنت الأحوال الجوية بدأ العالم في مباشرة مهامه بجمع عينات من الحيوانات التي تنفرد بها منطقة الخليج العربي.

محطات البحث

أولى محطات البحث التي توقف عندها باغيا فلينسكي كانت مدينة «المحمرة» الواقعة على الجانب العربي من شط العرب حيث حصل على أولى عينات مما يودُ تجميعه هدية من مجموعة من أطفال المنطقة. وكانت مدينة «المحمرة» قد ظهرت في بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر، أسسها عدد من العرب والأتراك والفرس الهاربين من اضطهاد حكام بغداد بهدف تأسيس مدينة جديدة للتجارة الحرة. ويحكي باغيا فلينسكي في مذكراته كيف زاره شيخ المدينة على ظهر الباخرة ثم دعاه في اليوم التالي إلى قصره وعبر له عن عميق احترامه وتقديره للشعب الروسي، كما وضع تحت تصرفه عسكريين لحمايته من اعتداءات القراصنة.

أبحر باغيا فلينسكي من مدينة «المحمرة» نحو الكويت التي كانت تعد مدخلاً لمركز الجزيرة العربية ومخرجاً أساسياً لخط السكك الحديدية العراقي الشهير. وكان حاكم الكويت في بداية هذا القرن هو الشيخ مبارك الذي استضاف باغيا فلينسكي عدة أيام قضاها يتعرف المجتمع الكويتي، ويجمع عينات من الكائنات الحيوانية التي تعيش بالمنطقة.

ومن الكويت أبحر باغيا فلينسكي نحو البحرين، الجزيرة الصغيرة التي كانت دائماً تؤدي دوراً مهماً في حياة الخليج العربي، وكانت عاصمتها المنامة مدينة صغيرة بيوتها من الحجر الأبيض. وخلال لقائه مع حاكم البحرين الشيخ عيسى تأكد باغيا فلينسكي من توق العرب إلى توطيد العلاقات مع روسيا لمواجهة الهيمنة الإنكليزية في المنطقة.

وفيما بعد كتب في تقاريره للقنصلية الروسية أن «العلاقة مع

علاقات الاحترام المتبادل بين روسيا والخليج العربي في جميع المجالات لم تُشيد بفضل الدبلوماسيين فقط، بل وطدت كذلك بفضل حماسة العلماء والرحالين ورجال الدين

عرب الخليج مهمة جداً بالنسبة إلى روسيا ولابد من الاستفادة منها لتقوية التأثير في المنطقة».

وقد اهتم باغيا فلينسكي في البحرين بدراسة صناعة اللآلئ، وقضى وقتاً طويلاً في الميناء يراقب عن كثب عمل البحارة وهم يصطادون المحار.

وعندما عاد إلى موسكو تابع دراساته العلمية حول صناعة اللآلئ وتاريخها العريق وأساليبها الصعبة وتجارتها ودورها في المنطقة.

وانتهت رحلة باغيا فلينسكي من حيث انطلقت أي في مسقط، حيث استقبله بحفاوة سلطانها فيصل بن تركي. ومن مسقط أبحر نحو الهند ثم موسكو.

وهكذا انتهت ـ كما يقول المؤلفان في خاتمة الكتاب ـ رحلة عالم الأحياء الروسي أستاذ جامعة موسكو نيقولاي باغيا فلينسكي في الخليج العربي، هذه القطعة الفريدة والرائعة من العالم. وقد تكللت رحلته بنجاح باهر، إذ استطاع أن يجمع عينات من الحيوانات التي تعيش في المنطقة والتي وضعت بعد ذلك في متحف علم الحيوانات بجامعة موسكو، وبجهوده العلمية أضاف إسهاماً نوعياً إلى دراسة حيوانات المنطقة، كما قدم دراسات علمية عامة حول صناعة اللآلئ في منطقة البحرين، وقد كانت مقالته «صناعة اللآلئ في الخليج العربي» المنشورة سنة ١٩٠٥م أول دراسة باللغة الروسية حول هذا الموضوع.

إضافة إلى ذلك، فإن مذكراته وملاحظاته حول الرحلة أضاءت جوانب كثيرة للمستشرقين الروس، وفتحت أمامهم أبواباً جديدة واسعة لمعرفة هذه المنطقة من الشرق العربي، كما ساعدت السياسيين على فهم ما يجري في المنطقة والوضع السياسي آنذاك حين كان الحضور الروسي فيها محدوداً جداً.

أما الملحق الوثائقي فيتكون من جزء من مذكرات باغيا فلينسكي حول رحلته إلى الخليج العربي، وهي المذكرات التي اعتمدها المؤلفان ـ ضمن عشرات المراجع الأخرى ـ لإنجاز الكتاب. كما يتضمن الملحق مقالة باغيا فلينسكي عن «صناعة اللآلىء في الخليج العربي» ثم المراسلات، وهي في أغلبها رسائل متبادلة بين المسؤولين الروس وشيوخ إمارات الخليج العربي حول رحلة باغيا فلينسكي.

يعدُ الكتاب في مجمله مرجعاً علمياً لا غنى عنه لكل الباحثين والمهتمين بتاريخ العلاقات العربية ـ الروسية وتطورها عموماً، والخليجية ـ الروسية خصوصاً.

الهوامش

١. غينادي غرباتشكين: دكتور في العلوم التاريخية، الأستاذ بقسم التاريخ (الشرق الأوسط والأدنى) بمعهد أسيا وافريقية، ألف خمسة كتب عن تاريخ البلدان العربية وتاريخ العلاقات العربية الروسية.

٢. مارغريتا كيسلوفا، متخصصة في تاريخ العالم العربي. ناقشت هذه السنة بمعهد اسيا وإفريقية عن رسالة الماجستير حول موضوع «بداية العلاقات الثقافية بين روسيا والدول الخليجية».

المخطوطات الجغرافية العربية

في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج

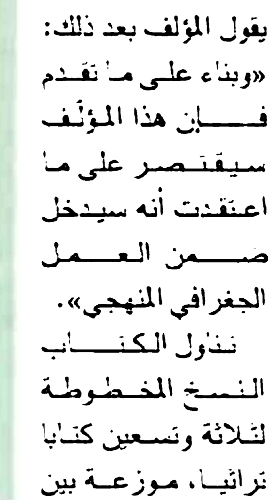
مراجعة: **لطف الله قاري**

ينبع الصناعية . السعودية

يجمع هذا الكتاب المعلومات عن المخطوطات، إلى جانب إفادتنا عن طبعات كل كتاب من هذه المخطوطات، ومعلومات فيها تشويق وطرافة عن ذكريات المؤلف مع كل كتاب. فإذا كانت فهارس المخطوطات مجرد مراجع يتصفحها الباحث حين الحاجة إليها كما يتصفح المعاجم، ولا يجد فيها متعة في القراءة كما يجد في الكتب الأخرى، فإن هذا المرجع يجمع متعة القراءة مع المعلومات القيمة. ولا عجب في ذلك فالمؤلف يقدم لنا عصارة خبرة عقود من الزمن مارس فيها البحث والتأليف والتدريس والتحقيق، بالإضافة إلى مهامه التي تولاها وزيرا ومسؤولا ورئيسا لعدة لجان وهيئات علمية في بلده الكويت وخارجها.

الحدود بين الجغرافيا والعلوم الأخرى

يبدأ الكتاب بدراسة تمهيدية يوضح المؤلف فيها رأيه في تحديد مفهوم كتب الجغرافية. فلا يخفى على المرء المشتغل بالتراث العربي تداخل المعارف العربية واتصال بعضها ببعض نتيجة التكوين الموسوعي الذي كان عليه علماء العرب قديما. فيجب إذن أن نحدد المقصود بالكتب الجغرافية. ولايؤيد المؤلف الآراء القائلة بعدم وجود حد فاصل بين التاريخ والجغرافيا. فكما وجدت معلومات جغرافية في بعض كتب الأدب واللغة والنبات والحيوان، كذلك نجد المعلومات الجغرافية المستفيضة في بعض كتب التاريخ. إلا أن ميدان علم البلدان واضح ومميز منذ القرن الثالث الهجري. فإذا أتت معلومات جغرافية في كتاب تاريخي أو العكس فإن هذه المعلومات أتت عرضا من أجل استكمال أهداف الكتاب. ثم يقول المؤلف بعد ذلك: «وبناء على ما تقدم فإن هذا المؤلَّف سيقتصر على ما اعتقدت أنه سيدخل ضمن العمل الجغرافي المنهجي».



تناول الكتاب النسخ المخطوطة لثلاثة وتسعين كتابا تراثيا، موزعة بين مقتنيات المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج. وفي كل مرة نجد النسخ المخطوطة من الكتاب نفسه مما تقتنيه المكتبة الوطنية بباريس. وفي أحيان قليلة يذكر إحدى النسخ الكاملة في مكتبات أخرى بمصر والمغرب وتركيا. وتدور موضوعات الكتب في ستة موضوعات رئيسة هي: الجغرافية الإقليمية وكتب البلدان، والجغرافية الطبيعية، والمعجمات الجغرافية وتقويم البلدان، وكتب الرحلات، وكتب الخطط وفضائل البلدان، وكتب العجائب.

ويبدأ كل قسم من هذه الأقسام بمقدمة تمهيدية مهمة

يرد فيها التعريف بالموضوع الذي تندرج تحته المخطوطات، والأقسام الفرعية لكل موضوع، ونبذة من تاريخه عند الجغرافيين العرب القدامى، وتطوره في العصر الحديث، وسبق الجغرافيين العرب في الإدلاء ببعض المفاهيم والنظريات التي اعتمدت في عصرنا. ولا يخفى على القارئ ما في هذه المقدمات من فوائد ومتعة.

نقص المعلومات

أكثر هذه المؤلفات تم تحقيقه وطبعه في المشرق والمغرب. وهنا يقوم مؤلف هذا الكتاب بدور مهم جداً بإطلاعنا على الطبعات المختلفة لهذه الكتب، وتقويم تلك الطبعات. وتتضح أهمية هذا العمل إذا علمنا أن كثيراً من الباحثين تنقصهم المعلومات عن طبعات الكتب المختلفة. فقد شاهد كاتب هذه الأسطر في المؤتمرات العلمية بعض الباحثين يقومون بعرض كتب يظنون أنها ما تزال مخطوطة، بينما هي طبعت ولم يعرفوا ذلك. وكذلك الحال في البحوث المنشورة لهؤلاء الباحثين الذين يعتمدون على مخطوطة قد تكون ناقصة لأحد الكتب، بينما الكتاب مطبوع طباعة جيدة.

وفي الكتاب معلومات جديدة نكشف أول مرة. فمن ذلك حديث المؤلف عن كتاب «عجائب الأقاليم السبعة» لسهراب، إذ تحدث عن طبعة الكتاب الكاملة الوحيدة بتحقيق المستشرق مجيك، ثم وصف إحدى مخطوطاته المحفوظة في المكتبة البريطانية، وجاء ضمن الوصف قوله: «ويوجد في هذه النسخة رسم لم يرد في نشرة مجيك، يمثل صورة قلعة ساروس بن كندمان». وفي الصفحة التالية نشر ذلك الرسم. ومن ذلك أيضا وصفه لرسمين نادرين يبينان تخطيط المعسكرات الحربية قديما، أقحما بطريق الخطأ في إحدى مخطوطات كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» للبيروني. وقد نشرهما المؤلف من أجل تعميم الفائدة، وذلك بعد أن بين أنهما ليسا من أصل كتاب البيروني.

ونجد في مواضع أخرى مناقشة آراء غير صائبة حول بعض الكتب. ومن ذلك قوله عن كتاب «المسالك والممالك» للإصطخري: «وقد شك دي خويه في نسبة هذا الكتاب، وتبعه بعض الباحثين العرب، فقالوا بأنه للبلخي، وليس للإصطخري. وذلك الشك ليس في محله لأمر بسيط: فقد أرّخ الإصطخري في كتابه لحوادث حدثت بعد وفاة البلخي...الخ».

وللراغبين في تأمل اللوحات الفنية نجد صوراً من صفحات كتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني تزين الكتاب، بالإضافة إلى صور ورسومات أخرى مثل التي ذكرناها في الأسطر السابقة. وهنا نتمنى أن يتحفنا المؤلف في الطبعة الثانية بصور كتاب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»؛ لأنها رسومات اعتمدت أساليب الرسم الهندسي لآلات ومنشآت عمرانية، تفيد الباحثين في هذه المجالات.

وخلاصة القول هي أن هذا الكتاب فيه علم غزير ومتعة للباحث الذي يراجعه. ونأمل أن نكون وفقنا في عرضه بإيجاز في هذه الأسطر. وطبيعي أن يكون في أي عمل بشري نقص فتكون هناك معلومات قليلة فاتت المؤلف، مثل عدم ذكره لبعض طبعات محققة ممتازة. ولن نطيل على القارئ بذكر الملاحظات على الكتاب - وهي قليلة جداً على كل حال - إلا أننا نجد حالة واحدة تستحق الذكر؛ فرحلة «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» لأبي حامد الغرناطي لم يذكر المؤلف منها سوى الطبعة الأوربية الناقصة، وهي صدرت بتحقيق إسماعيل العربي في بيروت والمغرب عام ١٩٩١م بالاعتماد على تسع نسخ مخطوطة، مع مقدمة عن الغرناطي وكتابه، وشروح مستفيضة بالحواشي، ومقتبسات عن الغرناطي في كتب أخرى لا توجد في مخطوطات كتابه، وفهارس أبجدية كشافة.

ويلاحظ على المؤلف أنه عندما يذكر طبعات الكتب يركز على أوائل الطبعات، ثم يذكر الطبعات الجديدة المتقنة لو وجدت. أما الطبعات السيئة التي صدرت بعد الطبعات الأولى، ويزعم أصحابها أنهم قاموا بتحقيق الكتاب دون أن يذكروا النسخ التي اعتمدوا عليها، أو قاموا بمقابلة النسخ المختلفة، أو زودوا الكتب بكشافات أبجدية تمكن من الاستفادة منها، فإننا نجد مؤلفنا كثيرا ما يهمل ذكرها. وكذلك يهمل ذكر أكثر الطبعات المصورة التي تنشر بعد شطب اسم الناشر الأصلي، وتاريخ الطبعة الأولى ومكانها. ونحن نؤيده في ذلك؛ لأنها لا تستحق الذكر.

أسطورة غرف الغاز النازية

أطروحة نانت وقضية روك

مراجعة: أحمد الحسين
الحسكة - سورية

يعدُّ هنري روك واحداً من دعاة مراجعة التاريخ، وقد أثارت أطروحته التي تقدّم بها إلى جامعة نانت الفرنسية عام ١٩٨٥م ضجة واسعة، تعدّت آثارها الساحة الفرنسية لتصل إلى أمريكا، وكثيرٍ من الدول الأوربية، وسواها من بلدان العالم.

وقد اختار هذا الباحث مادة لأطروحته «اعترافات جيرشتاين» فأخضعها للدراسة المقارنة بين رواياتها المختلفة بهدف الكشف عن مدى سلامتها، وصحتها، وصدقها؛ لأن هذه الاعترافات كما يرى روك: «استخدمت وثيقة تداولها المؤلفون في كتب ومقالات وأصبحت من بين الشهادات التي تؤكد وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية» وتعدّ هذه الوثيقة، من وجهة نظر تيار المؤرخين الإباديين الذين يمثلهم بولياكوف، وبيير فيدال، من أهم الوثائق في هذا المضمار، لكن هذه الوثيقة، وكما يعترف روك، قد ضلّلت كثيراً من القراء والباحثين بسبب الاختلافات والتناقضات المكشوفة في رواياتها المنشورة، مما أثار تساؤلات كثيرة تتعلق بغموض شخصية كاتبها. ومن بين أهداف الدراسة إماطة اللثام، والكشف عن سر ذلك الكائن اللغز الذي يصفه المؤرخ الصهيوني شاؤول فريدلاندر بأنه - أي جيرشتاين - «قديس تائه في العصر» ويراه بولياكوف «المصيب بين المخطئين».

يبحث المؤلف الفرنسي أندريه شيلان في كتاب «أسطورة غرف الغاز» «أطروحة نانت وقضية روك»، وقد صدر هذا الكتاب عن دار الذاكرة عام ١٩٩٧م، وترجمه إلى العربية رمضان العباسي، ويقع في ٤٤٦ صفحة.



أسطورة غرف الغاز النازية، أطروحة نانت وقضية روك
أندريه شيلان
ترجمة:
رمضان العباسي
دمشق: الذاكرة للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٧م.

نقرأ في المقدمة عرضاً دقيقاً ومسهباً للضجة الإعلامية التي أثارتها أطروحة نانت، ولا سيما بين الأوساط الصهيونية، ولدى بعض المؤرخين المؤيدين لفكرة المحرقة، حيث أطلق هؤلاء حملات عدائية مسعورة ضد المؤلف، ومارسوا الكثير من أساليب التشهير، والترهيب والاستعداء والتحريض بحقه وفق الطريقة المألوفة في مثل هذه الحالات، وقد عبّر عن ذلك قول السفير الإسرائيلي في باريس: «إن واجب الديمقراطيين، وجماعة العلماء هو النضال ضد جميع أشكال زعزعة استقرار العالم الحر، ومؤسسات التعليم العالي التي تقرُّ ألعاب الطلبة اللاواعين وتتعاون مع مخربي الحضارة والحرية».

ولكي تنفي وزارة التعليم العالي عن نفسها تهمة

تخريب الحضارة والحرية بادرت على لسان الوزير آلان دوفاكيه، ومن خلال مؤتمر صحفي، إلى إلغاء دفاع روك أمام لجنة المناقشة واعتباره باطلاً، وترتّب على ذلك سحب شهادة الدكتوراه التي فاز بها بنتيجة المناقشة العلمية، في سابقة خطيرة، شكّلت خرقاً واضحاً للأنظمة، والقوانين، والقرارات التعليمية في فرنسا.

والسؤال هل كان من المعقول أن تثار كل تلك الهجمات العدوانية على باحث لو كانت أطروحته ضرباً من التسلية، أو اللعب الصبياني كما يقولون؟ في الحقيقة إن أطروحة روك كانت جهداً علمياً منظماً، اعتمد على الوثائق والبيانات، وكانت النتائج التي وصل إليها مقنعة، وصحيحة لخضوعها لمنهج البحث العلمي. وتلك النتائج تنسف أسطورة الهولوكوست كما روّجت لها الصهيونية، وسعت إلى فرضها، وترسيخها لأسباب وغايات معروفة، وتلك الصدمة هي التي تفسر لنا ثورة الغضب والحقد، وحملات التشويش والتشويه التي انهالت على روك، وأطروحته الجامعية. ولتأكيد ذلك يكفي أن نقف على فصول تلك الأطروحة كما وردت في كتاب أندريه شيلان.

نص وروايات

كان الفصل الأول في أطروحة روك يبحث في وضع النصوص المنسوبة إلى جيرشتاين ضابط «فرقة حماية» في القوات النازية الذي كتب وثيقة الاعتراف بخط يده عند استجوابه بعد هروبه من القوات الألمانية، واستسلامه للجيش الفرنسي الأول في ٢٢ أبريل/ نيسان عام ١٩٤٥م.

لقد تكوّنت ست روايات مع بعض التفريعات الأخرى عن تلك الوثيقة، وحرص روك أن يضعها أساساً للبحث لما يترتب عليها من أهمية، وهي كما يلي:

- نص مكتوب بخط اليد في ٢٦ أبريل / نيسان عام ١٩٤٥م بالفرنسية.
- نص مكتوب بالآلة الكاتبة في ٢٦ أبريل / نيسان عام ١٩٤٥م بالفرنسية.
- نص مكتوب بالآلة الكاتبة في ٤ مايو / أيار عام ١٩٤٥م بالألمانية.
- نص مكتوب بخط اليد في ٦ مايو / أيار عام ١٩٤٥م بالفرنسية.
- نص مكتوب بالآلة الكاتبة في ٦ مايو/ أيار ١٩٤٥م بالفرنسية، وقد انبثقت منه ثلاثة نصوص أخرى، واحد منها بالإنكليزية.
- نص مكتوب بالآلة الكاتبة في ٦ مايو/ أيار ١٩٤٥م باللغة الألمانية.

وعندما أخضع روك تلك النصوص للموازنة والتحليل اكتشف وجود حالات واضحة من الاختلاف والتباين، والتناقض بين تلك الروايات التي تمثل بالأساس نصاً واحداً، وقد دفعت الاختلافات في المحتوى، والاختلافات في الشكل من حيث لغة الوثيقة، وطريقة الكتابة، وتاريخها إلى التساؤل عن مدى صحة نسبة تلك الوثائق إلى جيرشتاين، وهذا ما دفع روك إلى الشك في النص رقم ٣ والنص رقم ٦ وما تفرّع عنهما من روايات انطلاقاً من بعض الظروف والملابسات المرتبطة بكيفية العثور عليهما، وبطريقة كتابتهما، واختلاف مضمونهما عن النصوص المكتوبة بالفرنسية.

بين الحقيقة والاختلاق

وهذه الإشكالية التي برزت من خلال موازنة وضع النصوص جعلت روك يسأل عن صدق تلك النصوص، حيث أخضع مادتها للتحليل، والمناقشة، والموازنة من جديد.

وكانت النتيجة أن سجّل روك تسعاً وعشرين ملاحظة على المعلومات التي قدّمها جيرشتاين، وهي ملاحظات تستحق التوقف، والتأمل؛ لأنها تكشف عن أخطاء، وتناقضات، ووقائع وأرقام، وصفات وأسماء لا تصمد أمام العقل والمنطق والحقائق التاريخية، مما يشير إلى أن القسم الأعظم من تلك الرواية لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة، بل هو ضرب من الاختلاق، والتزوير، وتوهمات من صنع الخيال. وعندئذ تنتفي عن اعترافات جيرشتاين القيمة التاريخية، والمصداقية الحقيقية أو الواقعية.

ومن الملاحظات التي نبّه عليها روك ذلك الغموض الذي يتعلق بقبول جيرشتاين في «قوة الحماية» النازية، وتكليفه مهمة الإبادة بالغاز، وهي سرٌ من أسرار الدولة لم يطلع عليه سوى قلة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، في الوقت الذي ادّعى فيه أنه كان ملاحقاً من النازية، ومضطهداً تعرّض للطرد من العمل، والسجن مرتين، ثم كيف نفسّر فيزيائياً وتقنياً إمكان حشر

٧٠٠ ـ ٨٠٠ إنسان في غرفة غاز مساحتها ٢٥م٢ بمعدل ٣٠ شخصاً في المتر المربع الواحد؟ كيف نتخيل أن يبلغ ارتفاع أكوام أحذية الموتى إلى علو ٣٥ ـ ٤٠م؟ كيف نصدق أن طفلاً عمره بين ٣ ـ ٤ سنوات يقوم بمهمة توزيع أربطة لأحذية المحكومين بالموت يزيد عددهم على خمسة آلاف إنسان في كل وجبة إعدام؟ كيف نصدق أنه كان ينبّه الناس على ما يجري من مذابح بالغاز ليثير الرأي العالمي دون أن يخشى السلطات النازية؟ بل كيف نصدق أنه دفن مخزون حمض السيانيد في حفرة على بعد ١٢٠٠م من مدخل معسكر الاعتقال دون أن يسأله أحد عن ذلك؟

والواقع أن روك، وهو يسوق تلك الملاحظات، يريد أن يقول: إن تلك الوثيقة لا تمتلك نصيباً من الصدق، وليست لها سمة الأمانة. فهل كان روك الوحيد الذي اكتشف هذه الحقيقة؟

آراء ومواقف

في الفصل الرابع يستعرض روك موقف القراء، والباحثين، والمؤرخين من رواية جيرشتاين ويرى أن عدداً قليلاً جداً اطلع عليها قبل أن تنشر وخاصة بين ٢٦ أبريل/نيسان و ٦ مايو/ أيار عام ١٩٤٥م، وهذا العدد القليل صدّق الاعترافات، ولكنه لم يصدق نوايا جيرشتاين، وربما كان هذا الموقف وراء انتحار جيرشتاين أو موته مشنوقًا في ٢٥ يوليو/ تموز عام ١٩٤٥م، وبعد نشر وثيقة الاعتراف التي لم تأخذ بها محكمة نورنبرغ ظهرت ثلاثة تيارات من حيث الموقف منها، ومن صاحبها، وهي كما يلي:

ـ تيار صدّق الرواية، وعدّها صحيحة، ومن هؤلاء: هلموت فرانز، وليون بولياكوف، وجورج ويللز، وهم من أنصار فكرة الإبادة.

ـ تيار كذّب الرواية، ومن هؤلاء: بول راسينيه، وآرثر بوتز، ويلهيلم ستاغليش، وروبرت فوريسون، وأندريه بريسوا، وينتمي هؤلاء إلى مدرسة مراجعة التاريخ.

ـ تيار صدّق جوهر الرواية، وكذّب بعض معلوماتها التي تبدو غير معقولة، لكن هذا التيار مارس لعبة غير نزيهة، عندما أعاد صياغة تقديم تلك الوثيقة من جديد، بتنقيحها من الأمور والوقائع التي تبدو غير قابلة للتصديق، وطريقة هذا التيار تمثل خيانة للتاريخ، ودعاته بهذا الأسلوب مارسوا التضليل، وحافظوا عليه، ومن هؤلاء: فرنسوا دوفونيت، وأوجين كوغين، وآدالبير روكيرل وغيرهم من المؤرخين الذين قاموا، كما يقول هنري روك، بعمليات بتر، واقتطاعات، إنها عمليات تنظيف بيضاء، وهذا يوازي القول: «أكاذيب بيضاء».

والواقع أن جهود روك استطاعت عبر أطروحة علمية أكاديمية أن تؤكد زيف تلك الوثيقة التي تمسك بها دعاة الإبادة من المؤرخين وهشاشتها، كما تتمسك بها المؤسسات والمنظمات الصهيونية، وقد حققت تلك الأطروحة الغاية من كتابتها، وذلك من خلال النقاط الأساسية التي أشار إليها روك، وتمثلت في المرتكزات التالية:

سحب شهادة الدكتوراه من روك لآرائه حول المحرقة سابقة خطيرة شكلت خرقًا لكل الأنظمة التعليمية في فرنسا

ـ قدّم روك من خلال دراسته النقدية للنصوص أساساً صلبًا للمؤرخين يمكنهم من خلاله أن يوازنوا بين آرائهم على أسس علمية واضحة، ومتينة.

ـ أثبت من خلال المعطيات السابقة أن قصة ضابط «فرقة الحماية» ليس لها القيمة التي ينبغي أن تطلب من وثيقة تاريخية.

ـ حث القرّاء على عدم الاستسلام وقبول تلك الرواية المزيفة كما يفرخها دعاة الإبادة وذلك بتحريض طاقة الشك في عقولهم، للتساؤل عن السبب الذي يجعل أنصار فكرة الإبادة يتمسكون بنص يحفل بالغرابة، ويزخر بالحشو والأمور غير المعقولة، ويعدّون ذلك النص شهادة رئيسة، وأحد أفضل الأدلة على وجود غرف الغاز.

أخيراً نقول: لما كانت أطروحة روك قد منعت من دون أن تقرأ، ووضعت في قائمة الكتب المحرمة، فإن أندريه شيلان بكتابه هذا أتاح لكل فرد أن يكوّن لنفسه فكرة موضوعية عن هذه الدراسة التي أثارت، كما يقول جان ستينفرز، جدلاً ذا أبعاد عالمية. فهل ستشجع قضية روك هذه، بعد قضية فوريسون، على ظهور وعي جديد، بين المؤرخين، ورجال الثقافة والسياسة، يحرر العالم من سطوة الخرافة والأسطورة.

ردًا على خنوس يعقوب:
لماذا تنكر أمرًا معروفًا مشهودًا؟

ردًا على عبدالله بن سليم الرشيد
الأخطاء في كتابة الأعلام

كثيرا ما كنتُ أتضايق ممن يفهم مقالتي عكس ما أريد! أو يحكم عليها من عنوان قد أكون أخطأتُ في اختياره أو قصرت في دلالته على ما ابتغيتُ!

والذي يغيظني أكثر أن يكون ذلك الحكم (ببساطة من دون تعمّق في المضمون!)!

مثل هذا.. ما قرأته لأخينا الأستاذ خنوس يعقوب بن محمد، من الجزائر، في العدد (٢٧٨) من مجلة الفيصل الغراء.. إذ ساءني - يعلم الله - هذا الخلط الغريب الذي جاءت به مقالة الأخ محمد، والرد الأغرب على متانة الأستاذ الرشيد، هذا المنافح عن اللغة، المرابط على ثغر من ثغورها الواسعة.

لقد كان بودي من الأخ محمد وهو (الكاتب الصحفي والمراسل للإذاعات الدولية) أن يكون أكثر تحكمًا في كلامه، وأن ينبذ العصبيات، في سبيل نصر لغتنا وترقيع أخطائها. كما كان بودي أن يحرجه تواضع الرشيد، وهو من هو تخصصًا وعلمًا عندما قال: «أعرضها ولا أفرضها، أتطلع إلى من يخلي ذهنه برهة، ليفكر معي، ويتصدق عليّ بإعادتي للصواب إن كنتُ قد جنحتُ عنه»، لكنه يبدو لي أن بعض البشر يغريهم "تواضع ولا يحرجهم!

في البدء. كتب الأستاذ الرشيد يستعرض بعض الأخطاء الشائعة في كتابة الأعلام، وذلك في العدد (٢٥٧) استعراضًا يثلج صدر كل غيور، ويدل على حب وإخلاص لهذه اللغة يقل مثيله ويندر! لكني تفاجأت برد الأخ محمد، مما جعلني أعود للمقالة متأكدة من فهمي، مراجعة له! فوجدته كما قرأته أول مرة: رصدًا للأخطاء، ودعوة إلى الصواب، ومما قال: إن تلك الأخطاء وقعت يومًا ما.. ثم سار الناس عليها حتى اعتادوها، ولم يتهم أحدًا بسوء في تعمده تلك الأخطاء.

فجاء أخونا محمد.. وأخذ يخبط يمنة ويسرة، ويتكلم عن اللهجات واختلافها!! ما دخل هذا بالموضوع أولاً؟ وثانيا: إن الرشيد نفسه لم يقل بغير ذلك! ولم ينكر اختلاف اللهجات حتى ينبري الأخ محمد لإثبات العكس! بل كان اختلاف اللهجات حجة من حجج الرشيد في معركة دارت رحاها على أرض (اليمامة) قبل شهور، حول العامية وتدريسها في الجامعات.

أخي الكريم

لقد كان تهجمك وغضبك لا مسوغ لهما ألبته! إذ لم يصف الرشيد أحبابنا المغاربة بأي وصف مخل، ولم يقدح بإيمانهم، وإنما كان قوله عنهم: «وصل كلمة (ابن) بما بعدها في الكتابة، وهي ظاهرة تشيع عند المغاربة، فتجدهم يكتبون «محمد بنعيسى» و«بنيونس» وهكذا، صارت تكتب بخطنها الأصلع» أخوة يشكر عليها، واهتمام يذكر له! إذ استحضر مبدأ (الجسد الواحد) فأهدى إليكم أخطاءكم التي غفلتم عنها أو تغافلتم عن خطورتها!.. دلكم على ما سكت عنه الآخرون إما استخفافا بكم! أو سيرًا مع من اتهم أهل المغرب العربي بالتفريط باللغة العربية واستبدال الذي هو أدنى بها! لم لم تقتد - يا أخ محمد - بسلفك الصالح (رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي)؟ لم لم تنظر إليها من باب التناصح الذي يحيي الهمم، ويشعل فينا الحماسة؟

والطامة الكبرى التي جعلتني أقف مشدوهة، هي تلك العبارة التي أنكر فيها الكاتب الكريم أمرًا معروفًا مشهودًا، وهو قوله: « لا، ولم أكتب أبدًا بهذه الصيغة، بل تكتب في الجزائر، والمغرب، وتونس، وليبيا، وموريتانيا هكذا: بن عيسى.. ولا أدري من أين تحصل على هذه الصيغة؟». وليسمح لي الأستاذ الرشيد بأن أجيب عنه، فأقول: لقد تحصل على هذه الصيغة - يا

أخانا من صحفكم ومجلاتكم بل حتى من كتاباتكم أنفسكم! فهي صيغة - لكثرتها - يراها حتى الأعمى! (وأهل المغرب أدرى بشعابها!) ولكن هذا لا يعني أن غيرهم لا يدري عن تلك الشعاب شيئاً!

.. الطريف في الأمر كله.. أن أخانا الكريم لو قلب صفحتين بعد مقالته تلك، تحديداً (ص/١٢٩) لوجد اسم أحد أخواننا المغاربة مكتوبا بهذه الصيغة (المختار بنعبدلاوي)! ولعله يحتج: بأن هذه المجلة ليست مغربية، وليسوا مسؤولين عن أخطائها! فأرد عليه بأمرين:

أولهما: أن المجلة تكتب الاسم كما يكتبه صاحبه.

وثانيهما: أن بين يدي عددا من مجلة المشكاة المغربية وهو العدد (٢١ - ٢٢) من المجلد الخامس، مكتوب في فهرسه اسم أحد إخواننا المغاربة هكذا: (محمد بنعمارة)!.. وكذلك يُكتب اسم الباحث المعروف من وجدة بالمغرب (بنيونس الزاكي) و(محمد بنعيسى) صاحب مجموعة «المكان الوثني»، وكذلك بنعلال مصطفى، وبنسمر الجميل، وبنعلي أحمد ناه، وغيرهم كثيرون يعيا الحاصر دونهم!

أخيرا.. أختم بنصيحة أخوية صادقة تمليها عليّ أخوة الإسلام، ثم أخوة اللغة والأدب.. أن يعيد الأخ محمد قراءة مقالة الرشيد بهدوء وروية، وأن يتدبرها مراراً عوض السجال العقيم، والدخول في مهاترات لا تخدم اللغة العربية في حد ذاتها!

أما أنت أيها الرشيد! لتسر على ما أنت عليه! إياك والتخاذل بسبب تجاوز أحد عليك! فإن التاريخ وحده هو الذي سيعرف لك قدرك! واللغة هي التي لن تنسى لك فضلك! والله وحده المستعان.

تماضر الميمونية

الرياض

ردّاً على محمد قجة

هل وصلتك الأخبار يا متنبي ؟!

فرحت بل طربت عندما طالعت عنوان الحوار الذي نشرته مجلة الفيصل بعنوان: الباحث محمد قجة واكتشاف بيت المتنبي في حلب، وذلك في العدد ٢٧٩، وأجرى الحوار الدكتور محمد جمال طحّان، وجئت عيوني بشغف في الصور المرافقة للمقال، ثم قرأته، وأعدت القراءة كرة أخرى وأخرى، ولكن خيبة الأمل كانت حليفتي، فقد تمخض الجبل فولد فأراً، وأخذت التساؤلات: أين هو مكان بيت المتنبي في الواقع؟ فالباحث محمد قجة يعترف بأن المكان الأصلي الذي آوى الشاعر المتنبي سنة ٣٣٧ هـ، قد هدمه فيما بعد (سعد الدين كمشكين) وبنى مكانه [خانقاه] أي رباطاً لجماعة الصوفية، والذي تحول بدوره إلى انقاض بفعل الغزوات المتتابعة لحلب، وأعيد بناؤه بشكل مختلف إلى المدرسة (الصلاحية) ثم هدمت مرة أخرى وتحولت إلى المدرسة (البهائية) التي شادها السيد بهاء الدين القدسي سنة ١٢٦٠هـ، فخلال عشرة قرون تهدمت دار المتنبي الأصلية خمس مرات، وأعيد بناؤها من جديد، فمن دار للسكن تحولت إلى خانقاه ثم إلى مدرسة، فالشكل الحقيقي الأصلي لدار المتنبي لم يعد موجوداً، أما الصورة المرافقة للمقال والتي كتب تحتها : بهو بيت المتنبي فإنها لا تمت إلى شاعرنا الكبير بأي صلة، بل هي صورة لبهو المدرسة البهائية الموجودة حاليا.

ويدور السؤال: لماذا هذا الخلط؟ أهي رغبة المتحاورين في الحصول على خبطة صحفية مثيرة على حساب الحقيقة المجردة، أضف إلى ذلك أن الباحث محمد قجة لم يجب عن السؤال الذي طرحه على نفسه في بداية الحوار حول تفاصيل الحياة اليومية للمتنبي في حلب!!

والسبب بكل بساطة أن المصادر والمراجع

التاريخية التي اعتمدها لم تعطه أي إشارة ولو عابرة عن التفاصيل المطلوبة.

وليت شعري أين يقع بيت المتنبي الحقيقي!! الذي انتقل بجسده إلى الثرى وبقي تراثه الشعري في قلوب كل عشاق الأدب العربي، وهو الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وقام برحلات طويلة بروح وثابة لا تعرف الكلل، فمن المعروف أنه زار الديار المصرية وأقام فيها، فهل يستلزم الأمر أن نحاور كافوراً الاخشيدي لمعرفة موقع سكناه في مصر.

لقد زرت ميدانياً الموقع المزعوم لبيت المتنبي، وهو اليوم يستخدم مستودعاً تجارياً، وشعرت بنداء خفي من روحه تشكو ما كان يكرهه ويسخر منه.. فأين التحقيق العلمي الرصين والبحث التراثي الجاد، والمصداقية في طرح الأخبار واحترام عقل القارئ.

لقد دون المتنبي آخر سفر من أسفاره.. قصة الإنسان الفاني.. وإنه لدرس بليغ حتى لا نسعى إلى الشهرة على حساب الحقيقة.

عبدالعظيم عبدالحق - مهندس زراعي

حلب - سورية - ص.ب ١١٦٥٥

تعقيباً على مقال طارق شديد

المسألة تحكمها فتوة العرب

طالعت في العدد «٢٧٣» ربيع الأول ١٤٢٠هـ مقالاً تحت عنوان «بواتييه معركة كادت تغير وجه التاريخ» للأستاذ طارق عبدالفتاح شديد. وقد أثار الكاتب في هذا المقال التشويهات التي ألصقت بالإسلام زوراً، والتي تحفل بها كتب التاريخ الغربية. وضرب مثالاً يعكس هذا الزور والافتراء، وهو قضاء أوربا قضاء مبرماً على كل دين آخر يجرؤ على الظهور إلى جانب دينها الكاثوليكي، بينما كان النصارى واليهود يتمتعون بالحرية الدينية في الأندلس وغيرها من بلاد المسلمين.

والحقيقة أن هناك عدة عوامل، إلى جانب العامل الديني، في اختلاف هذا الموقف، منها الأريحية العربية والقوة والشجاعة والتكرم والسخاء والعدل والرحمة، وهي في مجملها صفات للفتوة العربية، وهذه صفات ضاربة في العربي بجذور قديمة قدم التاريخ.

وقد اتصف فتيان العرب بالجاهلية بكثير من خلال الخير ومكارم الأخلاق انعكاساً للطبيعة الخشنة كالصحراء الشاسعة، والفضاء المتسع الرحب، والرمال المختلفة الألوان والجبال الجرداء، والصخور العاتية، والشمس القوية المحرقة، والريح الزفوف، هذه الطبيعة الخشنة انعكست على نفس العربي قوة وصرامة وجلداً وأرهفت حواسه، ونمت نمواً عظيماً، ولا ريب في أن نماء الحواس وقوتها يزيدان في قوة العقل وحسن التصرف.

وفي الحديث الشريف قال صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فالحديث الشريف يثبت أن عرب الجاهلية كان فيهم من يتحلى بمكارم الأخلاق، وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد جاء برسالته العظيمة ليتمم هذه المكارم الخلقية.

كما اشتهر الإسلام بأنه دين الفطرة، والفطرة هي الخير، والخير هو الغاية التي تسعى إليها الإنسانية الكاملة. ولما كان العرب في الجاهلية على الفطرة، فقد جاء الإسلام مهذباً ومكملاً وموجهاً لهذه الفطرة العربية السليمة حتى يعدهم لرسالة جليلة، وهي هداية العالم؛ ولذلك قال تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله». آل عمران: ١١٠.

وقد أقر الإسلام هذه الأصول الأخلاقية المتينة لدى العرب، وهذبها ونماها، ووجهها وجهة خيرة، واعتمد عليها في نشر مبادئه. ووجدت الدعوة رجالاً أفذاذاً نبتوا على أديم الصحراء، فألهمتهم قوى معنوية عظيمة وما إن تشربت قلوبهم حب الإسلام وتفهم معانيه وغاياته حتى امتزجت الفتوة العربية بالمثل الأخلاقية الدينية. وقد أجمع على ذلك نفر من خيرة الباحثين الأوربيين الذين لم يعمهم التعصب الذميم، ويطمس على أفئدتهم الهوى المضل، وشهدوا أيضاً بأن تقاليد الفروسية الغربية مأخوذة من عرب الأندلس لطول احتكاكهم بفرسان أوربا مدة ثمانية قرون لم تخمد فيها نار الحرب

برهة، وقد تألّب على العرب أمم شتى من أوربا كلها، وشهدوا صدق بلائهم في الحرب، وكرم قلوبهم، وحسن معاملتهم ووفائهم بعهودهم، وصارت هذه الصفات الكريمة أمثلة عليا يحتذيها فرسان الغرب، ويتغنون بها(١). وهذه أمثلة تعكس مدى فتوة العرب.

بداية يجب أن نوضح بعض الصفات الحميدة للعرب كانت قد انتقلت إلى أوربا نتيجة الصلات التجارية والعلاقات السياسية والحروب المتصلة والمعاهدات الكثيرة التي عقدت بينهم، ولا أدل على ذلك من تلك المدنية العربية في الزراعة والصناعة والتقاليد الخلقية واللغة وبخاصة الكلمات المتعلقة بالفروسية، بل وبعض التدريبات الرياضية، وفي الخيال والتفكير؛ كما استعار سكان أوربا من العرب مع قوانين الفروسية احترام المرأة. وليست المسيحية، على الرغم من أن الكل يعتنقها، هي التي رفعت شأن المرأة، ولكنه الإسلام(٢).

وعلى العموم فقد كان العرب هم الأمثلة العليا في الشجاعة والشهامة وعزة النفس، ومكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة، وقرى الضيف، تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة منها ما رواه بعض مؤرخي الإسبان من أنه في سنة ٨٩٠هـ أراد ملك أشتوريه «ادفونس الكبير» أن ينتدب مؤدباً لابنه وولي عهده، فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة حرصاً على تهذيبه، إذ لم يجد في المسيحيين حينذاك من هو كفء لهذه المهمة(٣).

وقد ضرب العرب كل مثل شريف لهؤلاء المسيحيين سواء في الشجاعة أو الكرم وحسن المعاملة في أي مكان حلّوا به، وفي أي زمان كانوا فيه. فهذا والي غرناطة عبدالملك (٧٥٥هـ) يقذف ابنه وفلذة كبده بالرمح فينفذ من صدره؛ لأنه رآه يولي الأدبار أمام قوة أعظم من قوته، وهذا عبدالرحمن الثالث يكرم عدوه اللدود «سناس أميرليون» حين طلب منه أن يأتي إلى قرطبة ليستشير الأطباء العرب في سنة ٩٦٠م، فيؤمنه، ويقدم له الهدايا، ويزيد في إكرامه حتى يبرأ من مرضه. فأين هذا مما فعله ملك قشتالة بيير القاسي في سنة ١٣٦٠م حين دعا أمير غرناطة أبا سعيد إلى قصره فلبى دعوته، ولما رأى بيده خاتما ثمينا راقه، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم(٤).

وفي الحروب الصليبية نجد اختلافاً كبيراً بين أخلاق الجنود الصليبيين قبل أن يختلطوا بالمسلمين، ويأخذوا عنهم التقاليد النبيلة، والمعاملة الرقيقة، وأخلاقهم بعد اختلاطهم بهم من هذا ما رواه أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» من أنه كان له أصدقاء من فرسان المعبد ببيت القدس، فإذا زار بيت المقدس خصصوا له زاوية، صغيرة بالمسجد الذي كانوا يحتلونه، واتفق أنه ذهب مرة ودخل المسجد للصلاة فهجم عليه أحد الفرنجة يريد أن يحوله عن الصلاة، فبادر إليه بعض فرسان المعبد، وأخذوه، وأخرجوه عنوة. واستأنف أسامة صلاته، فاغتفلهم هذا الصليبي المتعصب، وهجم ثانية على أسامة، ورد وجهه إلى الشرق قائلاً له: كذا صلِّ، فعاد فرسان المعبد إليه، واعتذروا لأسامة، وقالوا له «هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام»(٥).

وروى التاريخ الأوربي أن شارلمان أسر أحد أمراء العرب، وأدخل عليه وهو بين فرسانه وحاشيته، والموائد موضوعة والكل يأكلون، فصاح فيه: إما أن ترتد عن دينك وإما أن تقتل، فقال الأمير العربي: بل أوثر القتل، فقال شارلمان: ولماذا؟ فقال ستعرف بعد برهة من هؤلاء الأشخاص الضخام الذين يلبسون الفراء، ويجلسون على مائدتك؟ فقال شارلمان: إنهم مطارنة وقساوسة. فسأله الأمير العربي ومن هؤلاء النحاف الذين يلبسون السواد؟ فأجاب إنهم رهبان يصلون من أجلنا، فسأله مرة ثالثة: ومن هؤلاء الذين يجلسون علي الأرض، ويلقى لهم فتات المائدة؟ فأجاب شارلمان: إنهم الفقراء. فصاح الأمير العربي أهكذا تعامل الفقراء. إن هذا مخالف للشرف والمروءة، ولا يرضى ربك الذي تعبده. والآن لا! لن أتنصر أبداً، وهذه سمة دينك وإني أفضل الموت.

وهناك مثل آخر على كرم القلب العربي المسلم، وعلى تلك المعاملة المثالية للأعداء، فقد وقع جان دي برين أسيراً في يد الملك الكامل بدمياط، فلما حضر أمامه أخذ يبكي وينتحب، فقال له الملك الكامل: مم تبكي أيها الملك؟ فقال أبكي لأني تركت القوم الذين أتولى أمرهم يموتون جوعاً، ويموتون غرقاً. فرق الملك الكامل له، وبكى مثله، ثم أرسل ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء من جيش عدوه على السواء أربعة أيام متوالية(٦)

هكذا كان العرب على خلق عظيم زاده الإسلام وتعاليمه رقة، فكانوا قواداً أفذاذاً وسادة محنكين، وقضاة عدولاً وحكاماً قادرين يقفون في ساحة التاريخ وحدهم؛ لأنهم يبهرون العالم بالأسس التي وضعوها، والنماذج التي ضربوها على غير مثال سبق أو خبرة أو تجربة إلا وحي الفطرة وهداية الأخلاق وإرشاد الدين.

المراجع

١. بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. ترجمة عبدالحليم النجار، دار المعارف مصر، ص ٣٨٠.
٢. حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص ٣٨٠.
٣. تاريخ غزوات العرب، ج رينو، ترجمة شكيب أرسلان، ص ٢٤٤.
٤. حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص ٣٨٧.
٥. الاعتبار، لأسامة بن منقذ، ص ١٣٥، طبعة فيليب حتي (برنستون) ١٩٣٠م.
٦. تاريخ مصر في العصر الوسيط، ستانلي لين بول، ص ٣٥٥.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي

دمشيت - ٣١٧٢١
طنطا - مصر

الملف الثقافي

الرياض تحتضن لقاء جمعية
التاريخ والآثار

نص جديد لبدر شاكر السياب

رحيل الكاتب الأمريكي الفرد ألتون
والشاعر الإيراني نادر بور

المرأة في القصة السعودية

جاك دريدا في مصر

المباحث الفدرالية الأمريكية
تتجسس على الكاتب توماس مان

ببلوجرافيا للثقافة العراقية
في المنفى



خاتمة المطاف:
كائنات نسيها الزمن

أبناء المبارك يهدون مكتبته الخاصة إلى مكتبة الملك فهد


سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز

وجه صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض المشرف العام على مكتبة الملك فهد الوطنية خطاب شكر إلى أبناء الشيخ عبدالعزيز بن ناجي المبارك على إهدائهم مكتبة والدهم الخاصة إلى مكتبة الملك فهد الوطنية، كما وجه سموه إلى تنظيم الكتب المهداة وإتاحة فرصة الاطلاع عليها للباحثين حتى تعم الفائدة.

وأعرب الأستاذ علي بن سليمان الصوينع أمين عام مكتبة الملك فهد الوطنية عن عظيم شكره وتقديره لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز لرعايته الدائمة ودعمه لهذه المكتبة حتى تحقق أهدافها.

وأضاف أن هذه المكتبة المهداة تضم «١٦٧ كتاباً» من أندر الكتب، معظمها من أوائل المطبوعات السعودية التي طبعت على نفقة الملك عبدالعزيز أو على نفقة ملوك المملكة ورجالاتها من المحسنين وأهل الخير.

وأشار الصوينع إلى أن من أبرز كتب المكتبة المهداة كتاب «أحسن القصص» لخالد الفرج، الطبعة الأولى، وكتاب «تقويم الأوقات لعرض المملكة العربية السعودية عام ١٣٦٢هـ»، وكتاب «الدرر السنية في الأجوبة النجدية والمنح المرعية» لشمس الدين محمد ابن مفلح عام ١٣٤٨هـ، وقد طبعت هذه الكتب كلها على نفقة الملك عبدالعزيز رحمه الله.

الرياض تحتضن لقاء جمعية التاريخ والآثار

تحتضن العاصمة السعودية الرياض خلال نهاية شهر أبريل/نيسان الحالي أعمال اللقاء العلمي الثاني لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية الذي تنظمه الجمعية بالتعاون مع دارة الملك عبدالعزيز حول موضوع «دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية تاريخها وآثارها عبر العصور».

ويشتمل اللقاء على أربعة محاور هي: عصور ما قبل التاريخ، والعصور القديمة، والعصور الإسلامية، والعصور الحديثة والمعاصرة، وقضايا تاريخية وأثرية، بالإضافة إلى قضايا مناهج البحث التاريخي والأثاري والكتاب الجامعي والمحافظة على الآثار، وقضايا أخرى تاريخية تتصل بموضوع اللقاء.

الحج عبر الإنترنت

شغلت كلمة حج أو Hajj مئات المواقع على شبكة الإنترنت العالمية، وتتبع ٥٠ في المئة من هذه المواقع مؤسسات إسلامية في أوربا وأمريكا وآسيا، وتقدم هذه المواقع دليلاً إرشادياً مفصلاً عن رحلة الحج في الإسلام وكيفية أداء المناسك وتقديم بعض النصائح الدينية.

كما تحتوي هذه المواقع على كتب ومؤلفات عن الحج مدعومة بالصور والرسوم البيانية، وعناوين لشركات سياحية في المملكة العربية السعودية وخارجها تقدم برامج رحلات منتظمة للحج والعمرة مع تحديد الأسعار والخدمات التي تقدمها هذه الشركات.

وقد حظي حج هذا العام بتغطية إخبارية واسعة من قبل وكالات الأنباء وشبكات التلفزيون التي تملك مواقع على الشبكة العالمية.

صدور المصباح المنير

صدر حديثاً عن مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع في الرياض كتاب «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» باللغة الإنجليزية، الذي قامت بإعداده



غلاف الكتاب

مجموعة من العلماء تحت إشراف صفي الدين المباركفوري، وتعد هذه أول ترجمة موثوقة وصحيحة لأحد أشهر تفاسير القرآن الكريم.

وقد أشار المباركفوري إلى أن تفسير ابن كثير - رحمه الله - يعد من أهم الكتب في تفسير القرآن الكريم ومن أعظمها وأكثرها انتشاراً، وأضاف قائلاً: «إن هذا الكتاب قد تم فيه تصحيح وتصويب كل أسماء الآيات القرآنية التي وردت في أثناء التفسير، فوضعت مشكّلة بخط المصحف بين قوسين مختصين لآيات القرآن أخذاً من المصحف المبرمج في الحاسب الآلي».

شاعرة سعودية في أمسية بلندن



أشجان الهندي

بدعوة من السفير السعودي في لندن الشاعر الدكتور غازي القصيبي، أحييت الشاعرة السعودية الوافدة إلى لندن حديثاً، أشجان محمد الهندي ليلة شعرية حضرها عدد كبير من الشعراء العرب في المنفى في مقدمتهم الشاعر العراقي سعدي يوسف.

قدم الشاعرة الملحق الثقافي السعودي في لندن الأستاذ عبدالله محمد الناصر، وألقت الشاعرة مجموعة من قصائدها القديمة والحديثة.

رسالة دكتوراه عن المرأة في القصة السعودية

«المرأة في القصة السعودية من عام ١٣٤٩ - ١٤١٨هـ» هو عنوان الرسالة التي نال بها الكاتب المذيع محمد بن عبدالله العوين درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وتعدّ هذه الرسالة الأولى في دراسة «أدب المرأة السعودية وقضاياها وهمومها في النصين القصصيين الرجالي والنسائي».

ناقش الرسالة الدكتوران مسعد بن عيد العطوي، ومحمد بن صالح الشنطي، وأشرف عليها الدكتور محمد بن سعد بن حسين.

رحيل كاتب روايات الخيال العلمي

فقدت الأوساط الثقافية الأمريكية مؤخراً واحداً من أشهر كتاب الخيال العلمي الفريد ألتون فان فوت الذي يعد أحد مؤسسي جمعية كتاب الخيال العلمي الأمريكي عام ١٩٦٥م وذلك عن عمر يناهز السابعة والثمانين عاماً.

مارس ألتون الكتابة وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبدأ ينشر بعض كتاباته في الصحف والمجلات الأمريكية واشتهر برواياته «حيوان من عالم آخر»، التي نشرها عام ١٩٣٩م، و«المدمر الأسود» و«صانعو الأسلحة» في عام ١٩٦٢م، و«الرجل العنيف».

رحيل الشاعر الإيراني نادربور

توفي في أواخر شهر مارس الماضي في لوس أنجلوس بأمريكا الشاعر الإيراني نادربور عن عمر يناهز الحادي والسبعين عاماً.

وُلد نادربور في مدينة طهران عام ١٩٢٩م من أسرة فارسية عريقة، وكان يقيم في السنوات الأخيرة من عمره في أمريكا متردداً كثيراً على فرنسا.

ويعد نادربور من أبرز الأسماء المعاصرة في الشعر الفارسي إلى جانب فوروح فاروق زاد المتوفى عام ١٩٦٧م، وسوهراب سيبيهري المتوفى عام ١٩٨٠م.

تكريم العزيزي

بمشاركة الأمين العام لوزارة الثقافة الأردنية الدكتور صلاح جرار، ورئيسة اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين الدكتورة رناد الخطيب، قام اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين بتكريم الأديب روكس بن زائد العزيزي عرفاناً بجهوده الريادية في الحياة الثقافية والأدبية والتربوية.

وُلد العزيزي في مادبا - جنوب الأردن - عام ١٩٠٣م، وعمل في سلك التعليم نحو نصف قرن،

وألّف نحو خمسين كتاباً في الأدب واللغة والتراث، بالإضافة إلى المساهمة في الأعمال الدرامية، وقد شغل عدة مناصب، منها عضوية المجلس الوطني الاستشاري، وعضوية مجمع اللغة العربية، كما رأس رابطة الكتاب الأردنيين عدة دورات سابقة.

جرائم فرنسا في الجزائر

«جرائم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية» هو عنوان الكتاب الذي صدر حديثًا في الجزائر عن دار الغرب للنشر والتوزيع لمؤلفه الدكتور عبدالكاظم العبودي وهو أستاذ باحث في جامعة وهران، ومتخصص في الفيزياء النووية والإشعاعية، ويقع الكتاب في ٢٢٠ صفحة.

ويأتي إصدار هذا الكتاب إحياءً للذكرى الـ ٤٠ للتفجيرات النووية الفرنسية في الجزائر.

معرض دولي للكتاب في مسقط


مانع سعيد العتيبة

احتضنت العاصمة العمانية مسقط في اليوم الأول من مارس/ آذار الماضي حتى العاشر منه، فعاليات معرض مسقط الدولي الخامس للكتاب، وقد شهدت فعاليات المعرض عدداً من المحاضرات والندوات والليالي الشعرية من بينها ليلة شعرية أحياها الدكتور مانع سعيد العتيبة، وختمت بمحاضرة ثقافية ألقاها الدكتور علي المذكور عميد كلية التربية بجامعة السلطان قابوس حول ثقافة السلام التي تعنى بها اليونسكو بعنوان «تعايش الأجناس المختلفة من منظور الثقافة العربية والإسلامية».

مكتبة قطرية لرعاية المعوقين

تعتزم الجمعية القطرية لرعاية المعاقين وتأهيلهم إنشاء مكتبة عامة بمقر المركز الثقافي والاجتماعي متخصصة في مجال الإعاقة والمعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة بصفة عامة.

وأوضح السيد محمد عبدالرحمن السيد مدير المركز الثقافي الاجتماعي أن الهدف من إنشاء المكتبة هو تأكيد الاهتمام بنشر الثقافة والمعرفة بين أوساط المجتمع، وتوفير المادة العلمية المتكاملة للمتخصصين والباحثين والمهتمين والطلاب.

وقال إنه ليس هناك وقت محدد لافتتاح المكتبة، مشيراً إلى أنه تمت مخاطبة الجهات المعنية بذوي الاحتياجات الخاصة داخل الدولة وخارجها للمساهمة في دعم هذا الحلم وبلورته حتى يخرج إلى النور بالطريقة الملائمة.

ودعا مدير المركز رجال الأعمال للمساهمة والتبرع لدعم هذا المشروع الإنساني الذي سيسهم بشكل كبير في إغناء الحركة الثقافية المتخصصة في مجال الإعاقة والمعاقين.

سابقة قضائية لإعادة الآثار المسروقة

بحصول مصر على حكم قضائي برجوع أحد آثارها المسروقة «رأس ميريت» يكون الطريق قد انفتح أمام عودة الآثار المسروقة إلى بلدانها.

وقد استعرض السفير المصري في لندن عادل الجزار في حديث لصحيفة الزمان الصادرة في ٦ مارس/آذار الماضي، المراحل التي مرت بها هذه القضية، والعقبات التي واجهتها حتى صدور الحكم الذي أقر بحق الدولة المصرية في استعادة الآثار إليها، وهو ما تم بالفعل في الحادي والعشرين من يناير/كانون الثاني الماضي.

وقال الجزار في ختام حديثه: «يمثل هذا الحكم سابقة ذات أهمية بالغة؛ لأنه وضع قاعدة قانونية لم يكن معترفا بها من قبل»، وأضاف: «سوف يكون سهلاً على أي قاضٍ في المستقبل النظر في قضية مماثلة، وأن يرجع إلى السوابق التي اعتمد عليها في إصدار هذا الحكم».

العثور على عاصمة الفرعون رمسيس الثاني

تمكن فريق من علماء الآثار الألمان من اكتشاف مدينة كبيرة تغطي مساحتها ٣٠كم²، مطمورة منذ

آلاف السنين في إحدى القرى الزراعية من قرى دلتا النيل بمصر، ويعتقد الفريق أن هذا الموقع هو عاصمة رمسيس الثاني، الذي عاش قبل أكثر من ٣٢٠٠ سنة.

وكان علماء الآثار الألمان قد استخدموا أحدث تقنيات التصوير، وهي أجهزة التصوير المغناطيسية، من النوع الذي يستعمله علماء الجيوفيزياء للبحث عن النفط، وقد أظهر الرسم الحاسوبي (الكمبيوتري) الذي أعده الفريق العلمي معالم المدينة المطمورة من شوارع وأبنية وقصور ودور وغيرها.

وقد صرح أدغار بوتش رئيس فريق علماء الآثار الذي جاء من متحف بليزيوس في هيلدز هايم بألمانيا أن هذه المدينة كبيرة وواسعة إلى حد أنه ليست هناك كلمات لوصفها، ولم يسبق أن اكتشف موقع بهذا الحجم في مصر من قبل.

كتاب جديد للموسوي



محسن جاسم الموسوي

صدر مؤخراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، كتاب بعنوان «انفراط العقد.. منعطفات الرواية العربية بعد نجيب محفوظ» للناقد العراقي الدكتور محسن جاسم الموسوي، يتعرض فيه لعشرات الروايات العربية التي صدرت منذ ثلاثة عقود ونيف.

ويبحث الكتاب في أغلب الاتجاهات والتيارات الأدبية البارزة في ميدان الرواية وتوقف طويلاً عند مرحلة ما بعد الحداثة.

دريدا في مصر

في إطار خطة المجلس الأعلى للثقافة المصري لاستضافة أربع شخصيات دولية في السنة، زار القاهرة مؤخراً الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا، والتقى المثقفين المصريين، وألقى محاضرة عن التفكيكية والعلوم الإنسانية في الغد، ودعا إلى قيام جامعة حديثة تتمتع بحرية غير مشروطة، كما انتقد الفيلسوف الفرنسي «العولمة» بالشكل الذي تجري الدعوة إليه الآن.

وفي إطار هذه الزيارات الدولية كان فارجو يوسا الذي زار القاهرة في يناير / كانون الثاني الماضي أهم أدباء أمريكا اللاتينية، بينما يزورها الناقد إدوارد سعيد في نوفمبر / تشرين الثاني القادم لإلقاء عدد من المحاضرات ولقاء النقاد والأدباء المصريين.

اكتمال طباعة قاموس المسرح



فاطمة موسى — غلاف القاموس

صدر مؤخرا في القاهرة الجزء الخامس والأخير من «قاموس المسرح» الذي أشرفت على إخراجه الهيئة المصرية العامة للكتاب. وكان الجزء الأول من هذه الموسوعة قد صدر في عام ١٩٩٦م، ثم توالى صدوره جزءاً كل عام حتى اكتمل بصدور الجزء الخامس في هذا العام.

ويعد هذا القاموس موسوعة تجمع بين المسرح العربي والعالمي، وتوفر «ببليوجرافية» شاملة لمراجع البحث في شؤون المسرح مستمدة من المراجع العربية والأجنبية، كما يضم كشافاً كاملا بأسماء الرواد الأجانب لفن المسرح مرتبة ترتيبا أبجديا وفق حروف اللغة اللاتينية، بينما رتبت الموضوعات وأسماء الرواد العرب لفن المسرح قديما وحديثا ترتيبا أبجديا وفق اللغة العربية.

وفي ندوة أقيمت حول القاموس استعرضت الدكتورة فاطمة موسى، محررة القاموس، المصاعب والعقبات التي واجهت العمل فيه، وقالت: «إننا استخدمنا أضعف الإمكانات وأقلها بما حصلنا عليه

من مساعدات الأصدقاء، وقدمنا عملاً جديداً في الثقافة العربية عموماً، وفي الثقافة المسرحية خصوصاً، وعلى الأجيال القادمة أن تطور هذا العمل بما يستجد لها من أفكار وإمكانيات».

مسرح ضخم في الخرطوم

اكتملت الدراسات الخاصة بإقامة مسرح ضخم بولاية الخرطوم قدرت ميزانيته المبدئية بـ ٥٠٠ مليون جنيه سوداني.

أعلن ذلك المدير العام للثقافة والإعلام بالولاية، وأضاف أنه تم وضع برامج لمسيرة الحركة الثقافية بالولاية روعي فيها الطرح الثقافي المؤثر في المجتمع لمعالجة بعض القضايا، كما أكد اهتمام الإدارة بحركة النشر والتأليف.

وأوضح نيه الولاية في إصدار نشرة شهرية لأفضل الأعمال المسرحية والأدبية والشعرية، وكذلك طباعة دليل الخرطوم الثقافي الذي يحتوي على معلومات عن المراكز والمواقع والمجلات الثقافية.

محمود درويش في الأدب الإسرائيلي

أعلنت وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية أن المنهج الدراسي لطلاب المدارس اليهودية في موضوع الأدب سيشمل لأول مرة قصائد لشعراء فلسطينيين بينهم محمود درويش.



محمود درويش

ونقلت إذاعة إسرائيل عن يوسي ساريد وزير التربية والتعليم الإسرائيلي قوله: إنه آن الأوان ليعرف الطلاب اليهود حضارة الجيران عندما نتطلع إلى السلام وعلاقات حسن الجوار. وأشارت الإذاعة إلى أن عضو الكنيست أحمد الطيبي رحب بهذه الخطوة، بينما وصف رئيس لجنة التربية والتعليم في الكنيست قرار الوزير ساريد بأنه قرار خطير قائلاً: «إن هذا القرار اتخذ لاعتبارات حزبية وسياسية».

سرقة غزالتين من كنيسة بالقدس

استطاع رجال جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني القبض على عصابة مكونة من خمسة أشخاص قامت بسرقة غزالتين نحاسيتين من سطح الكنيسة الجثمانية في مدينة القدس، يعود تاريخهما إلى عصور متأخرة.

وصرحت مصادر في الشرطة أن اللصوص، وجميعهم من الفلسطينيين، كانوا يقومون بهذا العمل تحت ضغط جهات أجنبية لها علاقة بالمافيا وتهديدها، ولم تشرح السلطات طبيعة هذه العلاقة، كما أنها لم تحدد القيمة المالية والأثرية لهذه المسروقات.

والمعروف أن الكنيسة الجثمانية تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بالنسبة إلى المسيحيين بعد كنيسة «القيامة» في القدس، ويؤمها ألوف من الزوار من مختلف أرجاء العالم سنويا.

غضب إسرائيلي لكتاب فلسطيني

أثار كتاب حول جغرافية الأرض الفلسطينية «أطلس» حفيظة وزارة المعارف الإسرائيلية، ودفعها للاحتجاج، ورأت أن إشراف السلطة الفلسطينية على إصدار هذا الأطلس إجراء أحادي الجانب.

وكان الأطلس المذكور قد جاء مشتملا على الخرائط التاريخية لفلسطين كاملة دون أي إشارة إلى قيام الكيان العبري على جزء منها.

ويشتمل الأطلس، الذي قام بإصداره معهد الأبحاث التطبيقية الفلسطينية، على معلومات جغرافية عن الضفة الغربية وقطاع غزة، ويتضمن فصولا حول التاريخ والسياسة والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والخصائص الطبيعية والمصادر المائية واستخدامات الأراضي والمدن الفلسطينية بين الماضي والحاضر.

وقدم للأطلس أحمد قريع «أبوعلاء» رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني، وأهديت النسخة الأولى منه للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، وهو يقع في ٢٠١ صفحة ملونة.

اكتشاف ٥٨ وثيقة لسعد زغلول


سعد زغلول

أدت المصادفة وحدها إلى اكتشاف ٥٨ وثيقة من الوثائق المصرية التي تتعلق بمبايعة سعد زغلول والوفد المرافق له في المفاوضات مع لجنة فلنر الحكومية البريطانية على أثر ثورة ١٩١٩م الوطنية.

وقال أحمد نوار المشرف على المتاحف الفنية والقومية في مصر: إن عمالاً من الذين يقومون بترميم بيت سعد زغلول - الذي يطلق عليه المصريون اسم «بيت الأمة» وتم تحويله إلى متحف - عثروا على الوثائق في خزانة قديمة مهملة داخل المنزل.

وقال نوار لوكالة فرانس برس: إن لجنة من الخبراء شُكلت لفحص هذه الأوراق أكدت أصالتها وأهميتها التاريخية ولاسيما أنها النسخة الوحيدة من الوثائق التي توضح حركة التوكيلات التي منحها المصريون إلى سعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧م) ورفاقه الذين أدوا دوراً كبيراً في حصول مصر على استقلالها.

ربط المكتبات العربية بالحاسوب

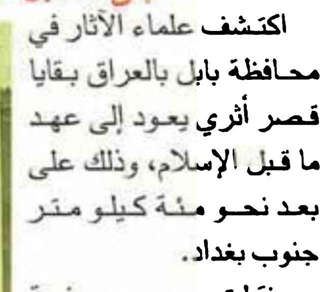
نظمت «لجنة آسيا وأوقيانيا» المنبثقة عن الاتحاد الدولي للمكتبات بالتعاون مع الجامعة الأمريكية في بيروت مؤتمراً عن «ربط المكتبات في العالم العربي بشبكات الكومبيوتر من أجل تطويرها»، وشارك في المؤتمر عدد من الخبراء من جمعيات ومؤسسات المكتبات، وأشرفت على تنظيم المؤتمر السيدة هيلدا نصار، مديرة المكتبة الطبية في الجامعة.

ببلوجرافيا للثقافة العراقية في المنفى

«ببلوجرافيا الثقافة العراقية في المنفى» هو حصيلة جهد الباحثة خيال الجواهري من نتاجات المبدعين من الكتّاب والمفكرين العراقيين في المنفى. ويغطي هذا الإصدار مرحلة امتدت بين عامي ١٩٧٩م و١٩٩٩م وهي الفترة التي شهدت هجرات الكثير من المثقفين العراقيين لظروف مختلفة عاشها العراق.

وقد لخصت المؤلفة جهدها في هذا العمل بقولها: إن الكتاب يرصد «كل ما وقع تحت اليد، وكل ما استطعت الحصول عليه من معلومات ومعطيات عما طبع ونشر في المنافي وبجهد شخصي أو ما جاءني من ردود على أكثر من نداء».

اكتشاف قصر أثري يعود إلى ما قبل الإسلام




بوابة مدينة بابل

اكتشف علماء الآثار في محافظة بابل بالعراق بقايا قصر أثري يعود إلى عهد ما قبل الإسلام، وذلك على بعد نحو مئة كيلو متر جنوب بغداد.

ونقلت صحيفة «الزوراء» العراقية عن رئيس هيئة التنقيبات في دائرة الآثار والتراث عبدالحميد عكار قوله: «إن القصر المكتشف الذي يعود تاريخ بنائه إلى ما قبل ظهور الإسلام يتميز بطراز معماري رائع من مادة اللبن المطلي بالجص المزخرف على نحو يؤكد الذوق الرفيع والإبداع الفني».

وقال عكار: إنه عثر في القصر القائم فوق تلال حبر إبراهيم الأثرية الذي نشرت الصحيفة صوراً له على «كثير من اللقى الأثرية من دمى ومسكوكات وأوان فخارية وحجرية وزجاجية مختلفة الأشكال».

وتابع يقول: «إن التقنيات أسفرت عن العثور على بيوت وقصور أخرى ذات طرز بنائية يعود تاريخ تشييدها إلى فترات الاحتلال الساساني والفرثي».

والفرثيون أقاموا إمبراطورية بقيت حتى سنة ٢٢٤ ميلادية. أما الساسانيون فحكموا حتى سنة ٦٥١ ميلادية.

نص جديد لبدر شاكر السياب


بدر شاكر السياب

أوردت مجلة «ألف باء» الأسبوعية العراقية نبأ العثور على نص جديد للشاعر العراقي الراحل بدر شاكر السياب كتبه عام ١٩٥٧م.

وأضافت المجلة أن النص الذي تم العثور عليه ليس شعراً، بل هو النقد المسرحي الوحيد الذي كتبه السياب، واحتفظ به طوال هذه الفترة زميله محسن حسين الذي كان يعمل معه في مجلة «الأسبوع» في ذلك الزمن.

ويتعرض النص الجديد إلى نقد مسرحيتين هما «إيراد ومصرف»، و«فلوس الدواء» اللتين مثلهما يوسف العاني بمشاركة سامي عبدالحميد وزاهرة سامي.

مركز ثقافي فرنسي جديد

افتتح مؤخراً في مدينة اللاذقية السورية مركز ثقافي فرنسي جديد، وقد بدأ المركز مزاولة نشاطاته الثقافية والتعليمية بالفعل.

ويُعد هذا المركز هو الثاني بعد المركز الثقافي الفرنسي في دمشق الذي افتتح قبل عدة سنوات.

ندوة عن دور المرأة المغربية في الاستقلال

نظمت المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير بالتنسيق مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن طفيل، ندوة علمية حول موضوع «دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة»، وذلك من خلال أربعة محاور هي: المقاومة الوطنية: مفاهيم ومقاربات، وأشكال الكفاح الوطني النسائي عبر التراب الوطني، والأوضاع الاجتماعية والثقافية للمرأة المقاومة، والتنظيمات النسائية في ظل الحركة الوطنية.

وتمثلت المداخلات التي عرضت في جلسات الندوة في: ملامح من مساهمة المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة لمحمد بنجلون، ودور المرأة في المقاومة الشعبية وإشكالية المصادر لمحمد البكراوي، وتأثيث المقاومة أو إعادة بناء الذاكرة الجماعية لإبراهيم أعراب، ونقاش حول حرية المرأة في الصحافة المغربية في الخمسينيات لجامع بيضا، وأشكال الكفاح الوطني النسائي بالمدن، وغير ذلك من الموضوعات.

توزيع جوائز سعاد الصباح للإبداع


سعاد الصباح

تحت رعاية الدكتور عبدالعزيز حجازي رئيس وزراء مصر الأسبق، أقيم بالنادي الثقافي المصري بالقاهرة في الأول من مارس/آذار الماضي، حفل توزيع جوائز دار سعاد الصباح للإبداع العلمي والفكري للشباب العربي التي تشمل مجالات الشعر والرواية والدراسات الأدبية والقصة القصيرة.

ومن شروط الفوز بهذه الجوائز أن يكون المتقدم لها عربياً، وألاّ يتجاوز عمره الثلاثين عاماً. وتبلغ قيمة الجائزة الأولى ثلاثة آلاف دولار، والثانية ألفي دولار، والثالثة ألف دولار.

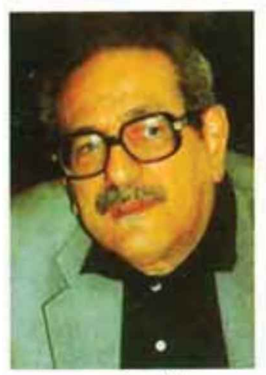
وفاز بجوائز هذا العام عدد كبير من الشباب العربي من الجنسين، وقد تم فتح الباب لاستقبال مساهمات المتسابقين لجوائز الإبداع الفكري والأدبي لعام ٢٠٠٠م، وتحدد تاريخ ٣١ أغسطس/آب المقبل موعداً أقصى لتلقي الأعمال، ومن الشروط المعلنة تقديم خمس وعشرين قصيدة في مجال الشعر، أو نص مسرحي من فصل واحد أو أكثر لا يقل عدد صفحاته عن خمس وسبعين صفحة، وفي مجال القصة القصيرة بواقع عشرين قصة، وخصصت مسابقة الدراسات الأدبية لاختيار عشر روايات معاصرة وتوضيح أسباب اختيارها.

مهرجان دولي حول الخزف

تبدأ في مدينة «نابل» التونسية في السابع والعشرين من شهر أبريل/نيسان الحالي فعاليات المهرجان الدولي للخزف في دورته الأولى التي تتواصل على مدى ثلاثة أيام.

ويتضمن برنامج المهرجان الذي يشارك فيه عدد من المؤسسات التونسية والأجنبية المنتجة للخزف، إقامة عدة معارض، منها معرض حول الخزف الفني، كما يتضمن ندوة دولية حول الخزف في العالم ستتركز مناقشاتها حول موضوعين أساسيين هما التكنولوجيا الحديثة المستخدمة في صناعة الخزف، والتأهيل والتدريب في هذا القطاع.

المبدعات العربيات في سوسة


الفريد فرج

يشارك عدد من كبار الفنانين العرب، وكذلك عدد من الكتاب المسرحيين والإعلاميين في ملتقى المبدعات العربيات الخامس الذي يعقد في مدينة سوسة التونسية في الفترة من ٢٧ إلى ٢٩ أبريل/نيسان الحالي.

وقد وجه الدكتور عبدالعزيز بلعيد مدير مهرجان سوسة الدولي الدعوة إلى عدد من الدول المشاركة في فعاليات الدورة القادمة للمهرجان الذي يعد أكبر تظاهرة عربية للمبدعات في فن المسرح. ومن المتوقع أن تشارك في المهرجان من مصر الفنانة سميحة أيوب، وسهير المرشدي، وعبلة كامل، وصفية العمري، والكاتبة فتحية العسال، والناقدة نهاد صليحة، والكاتب المسرحي الفريد فرج، والناقد فاروق عبدالقادر، ومن لبنان الكاتب بول شاوول.

صدور قصص فارسية بالعربية

ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط «سلسلة نصوص وأعمال مترجمة»، صدر مؤخراً كتاب تحت عنوان «ماوراء النهر: أنتولوجيا القصة القصيرة الفارسية المعاصرة» للكاتب الإيراني صادق هدايت وآخرين، ترجمة الكاتب المغربي محمد اللوزي أستاذ اللغة الفارسية والدراسات الإيرانية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط.

يقع الكتاب في ٤٢٢ صفحة من الحجم المتوسط، ويضم أربعة عشر نصا من القصة الفارسية المعاصرة مترجمة إلى العربية لعدد من القصاصين الإيرانيين والأفغان.

وقال أحمد شحلان في تقديمه لهذا الكتاب: «إنه سيغني المكتبة العربية، وسيساهم في إطلاع الباحثين في الأدب المقارن على نماذج من الأدب الفارسي المعاصر، كما سيفسح لنظرة جديدة إلى أهم التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تفاعل معها الأدب الإيراني المعاصر شكلاً ومضموناً».

الحفريات الأثرية تنفي أرض الميعاد

أثبتت الحفريات الأثرية كذب الروايات التي وردت في «التوراة» عن أرض الميعاد، كما أثبتت الوقائع الأثرية أن الأحداث التي جاءت في «التوراة» تتناقض بشدة مع ما توصل إليه علم الآثار في المنطقة بكاملها، صرح بذلك أستاذ الآثار في جامعة تل أبيب زائيف هرزوج، وأضاف أن الحفريات الأثرية التي تبحث عن الدليل على «حق» اليهود في «أرض الميعاد» تبعث نوعا من الهوس العام داخل إسرائيل، وتعد جزءا حيويا من عملية بناء الدولة.

وأثارت هذه التصريحات ضجة كبرى في إسرائيل، إذ إنها تزامنت مع المحاولات الجديدة لإعادة تقويم تاريخ إسرائيل الحديث، وقد وصف الحاخام سبيرو المسؤول عن جلب طلاب الدين اليهودي من جميع أنحاء العالم إلى أريحا، ما يقوم به هرزوج بأنه خطير جداً على إسرائيل، إذ يشكك في تاريخ «التوراة» وصدق ما تقوله، وهذا يعني أنها أسطورة، وأن ليس لليهود أي حق أكثر من غيرهم في المعيشة هنا على أرض فلسطين.

وقد سببت تصريحات هرزوج كثيراً من المشكلات لسكان المستوطنات اليهود الذين يؤسسون حقهم اعتمادا على ذلك الوجود اليهودي القديم في فلسطين.

الكلمة الممنوعة

صدر عدد جديد من مجلة «الكلمة الممنوعة»، وهي مجلة شهرية سياسية مستقلة تصدر في لندن، ويرأس تحريرها عبدالله المعراوي. واشتمل العدد على كثير من الموضوعات والمتابعات جاء بعضها حول المفاوضات العربية الإسرائيلية، والمناطق الإعلامية العربية الحرة، ومحاولة واشنطن توطين اللاجئين الفلسطينيين، بالإضافة إلى موضوعات حول مهرجان الجنادرية، وتدريب وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A لشبان العالم الثالث.

مركز الأبحاث في استانبول يفوز بجائزة إيرانية


أكمل الدين احسان

منحت جائزة إيران العالمية للتميز والإبداع في ميدان دراسات مختلف موضوعات الحضارة الإسلامية، لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إستانبول (ارسيكا) التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي؛ وذلك للدور المميز الذي يقوم به للتعريف بتراث العالم الإسلامي وثقافته، وما أنجزه من دراسات أكاديمية في مجال تاريخ العلوم والفنون والببليوجرافيا ودراسة المخطوطات وتوثيق التراث الإسلامي.

وتسلم الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو المدير العام للمركز الجائزة من الرئيس الإيراني محمد خاتمي في احتفال رسمي أقيم مؤخراً بطهران.

فن الطهو العربي في كتاب

أثار كتاب صدر عن دار ثيندريرا ثاريكي يتحدث عن فن الطهو العربي للكاتب صلاح جمال بعنوان «نكهة العرب»، اهتمام الصحافة الإسبانية، وقد وصفه أحدهم بأنه «قصص ووصفات من الأحلام». وقال عنه بالتسار بارثيل في صحيفة «الطليعة»: «للتعرف على الثقافة العربية أنصح بقراءة «نكهة العرب» لأنه كتاب مختلف وممتع». كما قال خابير موريه في صحيفة «البايس»: «سفر عبر العادات العربية، صحناً صحناً». وكان أغناسي ريرا قد قال في مقدمته للكتاب: «كتاب محمل بالدعابة والحنين المعكوسين بطريقة فلسفية».

إيطاليا تحتفل بشاعرها كوازيمودو

يقام حالياً بالقصر الملكي للعروض الفنية وسط مدينة ميلانو معرضٌ فنيٌ احتفالاً بمناسبة مرور ٤٠ عاماً على نيل شاعر إيطاليا الراحل سلفاتوري كوازيمودو جائزة نوبل للآداب.

ويضم المعرض رسوماً للشاعر مع عدد كبير من الأعمال الفنية المستوحاة من قصائده، لعدد من الرسامين الإيطاليين مثل ريناتو كوتوزو، وجاكمو كمزو، وفرانشيسكو ميسينا، ودومينيكو كنتونورا.

ولد الشاعر كوزايمودو في مدينة سيرقوسة بجزيرة صقلية عام ١٩٠١م، وتوفي في مدينة نابولي عام ١٩٦٨م.

روائع الفن الأوربي في معرض بالقاهرة

افتتح مؤخراً في القاهرة معرض «روائع الفن الأوربي» الذي يضم مجموعة من الأعمال الفنية التي لم تعرض من قبل.

ويضم المعرض الذي يقام بقاعة «أفق» للعروض بالعاصمة المصرية ٤٠ عملاً من مقتنيات متحف الجزيرة يعود تاريخها إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

والأعمال الفنية المعروضة من إبداع مجموعة من الفنانين الذين تميزوا في هذه الفترة على المستوى العالمي، منهم هايك جوزيف، وفرانسوا بوشيه، ومونتشيللي، وروجيه بريفال، كما شارك فرانسوا دوبيني، وفان ديرنير. وكان أغلب المعروضات من الأعمال الزيتية، بالإضافة إلى بعض الأعمال المنفذة بالألوان المائية، ولوحتين بالموازييك.

تصوير روايات أجاثا كريستي البوليسية

أخيراً وافق ورثة الروائية البريطانية الراحلة أجاثا كريستي على ترك حرية أكبر للمخرجين لتصوير رواياتها البوليسية بعد أن طالبوا سنوات عديدة بالالتزام الصارم بنصوصها.

وقال المخرج مايتو رتشارد، وهو أحد حفدة الروائية الراحلة

لصحيفة الإندبندت التي أوردت هذا النبأ: «نشعر أن عدداً كبيراً من روايات أجاثا كريستي لا عمر لها، ويمكن أن تلائم القرن الحادي والعشرين».

ويذكر أن عدداً كبيراً من روايات كرستي، التي بلغت ٦٩ رواية قد تحولت إلى أفلام سينمائية، ووجد رواجا كبيرا من المشاهدين مثل «جريمة على النيل»، و«جريمة في قطار الشرق السريع».

أجاثا كريستي

وتأتي روايات كريستي في المرتبة الثالثة من قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في العالم بعد الإنجيل ومسرحيات شكسبير.

ثقافة على الجدران

«الفن والحياة» هو الشعار الذي طرحته وزارة النقل والمواصلات الفرنسية في خطوة قصدت إلى الارتقاء بذوق المواطن الفرنسي الذي شغلته الحياة عن التردد على المؤسسات الثقافية.

وتتمثل الخطوة التي أقدمت عليها الوزارة في قيام مرفق مترو الأنفاق بالتعاون مع متحف اللوفر بوضع ملصقات ونسخ لأشهر فناني العالم الذين يحتفظ المتحف بأعمالهم، والتي تتضمن أشهر الأعمال الإبداعية لرواد الفن في أوربا خلال القرن السابع عشر.

وقال بيير روزنبرج مدير متحف اللوفر إن هذه الخطوة اتخذت بعد أن لوحظ أن ٧٠٪ من المترددين على المتحف هم من السواح الأجانب، بينما انشغل الشعب الفرنسي بأعباء الحياة اليومية عن التردد على هذه المؤسسات.

أقدم كتاب عن كرة القدم

اشترى متحف كرة القدم في بريستون شمال إنجلترا أقدم كتاب في العالم عن كرة القدم كما يقول المتحف، ودفع المتحف مبلغ ٤٨ ألف جنيه مقابل مجموعة تاريخية خاصة بكرة القدم من ضمنها الكتاب المذكور، وقد تكفلت هيئة اليانصيب الوطنية بدفع المبلغ.

والكتاب من تأليف جيوفاني دي برادي عام ١٥٨٠م بعنوان «محاضرة عن لعبة كرة القدم»، وهو يتحدث عن كرة القدم الإيطالية في القرون الوسطى.

وقال كيفين مور المتحدث باسم المتحف: «بالنسبة إليّ فإن أكثر شيء إبهاراً في المجموعة قميص ارتدي في أول مباراة دولية على الإطلاق وأقيمت بين إنجلترا واسكتلندا عام ١١٨٧٢م».

ارتفاع مبيعات الكتب عبر الإنترنت

كشفت دراسات حديثة أن مجموع مبيعات الكتب في العالم بلغ ٣٠ بليون دولار عام ١٩٩٩م بارتفاع نسبته ٣ ٦٪ عن عام ١٩٩٨م.

أما مبيعات الكتب من خلال الإنترنت فقد ارتفعت بنسبة ٣٠٠٪ بين عام ١٩٩٧م وعام ١٩٩٨م لتبلغ تقريبا ٦٥٠ مليون دولار.

ويظهر ذلك أن مبيعات الكتب على الشبكة بكل تأكيد أسرع وأعلى ونيرة حديثة لبيع الكتب.

ويعتقد الخبراء أنه على الرغم من أن مبيعات الكتب على الإنترنت أخذت حيزاً من المبيعات التقليدية فلقد أحدثت مبيعات الكتب ومراجعتها على الشبكة نقلة نوعية كبيرة ساهمت في إيصال الكتاب إلى مناطق جديدة مما وسّع من نسبة مبيعات الكتب.

اكتشاف أدوات أثرية إفريقية في الصين

جاء في مجلة «ساينس» العلمية أن باحثين صينيين وأمريكيين كشفوا أخيراً أن الأدوات الحجرية من النوع المسمى «أشولي» التي كانت تنسب إلى الإنسان الإفريقي الأول كانت تصنع أيضاً في الصين قبل ٨٠٠ ألف سنة.

وهذه الصناعة التي تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ اكتسبت تسميتها من الأدوات المصنوعة من الصوان المصقول التي عثر عليها في عام ١٨٧٢م في طمي نهر السوم بمنطقة سان - أشول قرب إميان.

ودلت المكتشفات في إفريقية بعد ذلك على أن الأدوات الأشولية التي تتميز بأنها أدوات حجرية مصقولة على وجهين، مثل المكشط والبلطة والإزميل تكون غالبا بشكل حربة. وقد ظهرت فعلاً في هذه القارة قبل ١٫٦ مليون سنة، واستمر استخدامها خلال حقبة طويلة جداً، ولم تترك مكانها لتقنيات أكثر تقدماً إلا ما قبل ٢٠٠ أو ٣٠٠ ألف سنة.

وحتى الآن كان العلماء يعتقدون أن هذه الأدوات التي كانت تستخدم لكشط الجلود أو قشرها وقطع الأخشاب أو النباتات كانت مقتصرة على إفريقية وعلى القسم الغربي لأوراسيا ولكن الفريق الصيني الأمريكي بقيادة هوانغ ويوين من أكاديمية العلوم في بكين اكتشف منذ فترة قصيرة أدلة تنقض هذه النظرية في جنوب الصين، عند عثورهم على أدوات يعود تاريخها إلى ٨٠٠ ألف سنة متطابقة مع الأدوات «الأشولية» في طمي نهر يو - جيانغ الذي يمر بحوض بوزي غرب مدينة نانينغ.

إف بي آي الأمريكي يتجسس على الكاتب توماس مان


توماس مان

أظهرت وثائق رسمية نشرت مؤخراً أن مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي «إف. بي. آي» كان يتجسس على الكاتب الألماني توماس مان الحائز على جائزة نوبل للأدب، على مدى ٢٠ عاماً حتى وفاته عام ١٩٥٥م بسبب ميوله الشيوعية.

والأديب توماس مان مولود في ألمانيا، لكنه حصل لاحقاً على الجنسية الأمريكية. وقال مكتب التحقيقات الفيدرالي في بيان« إن مان كان موضع تحقيق الـ«إف. بي. آي» منذ عام ١٩٢٧م إلى عام ١٩٤٥م، وثبت انخراطه في قضايا شيوعية وقربه من شخصيات شيوعية»، كما نشر مكتب التحقيقات الفيدرالي مئات الوثائق التي حذف الكثير من مقاطعها، تفصل نشاطات الكاتب وتنقلاته، فضلاً عن مواقفه العلنية في الصحف.

إنقاذ مخطوطات الموسيقار الألماني باخ

توصل باحثون ألمان إلى تقنية جديدة لإنقاذ المخطوطات القديمة من الاندثار سيجري تطبيقها لحفظ المؤلفات الموسيقية للموسيقار الألماني يوهان سيباستيان باخ، بمناسبة الذكرى المئتين والخمسين لوفاته التي تصادف ٢٨ يوليو/تموز المقبل.

وظاهرة تعرض مؤلفات الموسيقار باخ إلى التلف ناجمة عن استخدام الموسيقار باخ حبراً يحتوي على الحديد يفرز مع تأكسده بالهواء حمضاً يتلف الورق، وبمرور الوقت يمتد الحبر بحيث تتداخل النوتات الموسيقية إلى درجة تجعلها كتلة غير مفهومة.

ويقول أنطونيوس يامرز مدير المكتبة الوطنية في برلين إن بعض صفحات المؤلفات باتت غير صالحة للاستخدام وإن وسائل الحفظ التقليدية لم تعد كافية، موضحاً أن ٢٠ في المئة من أصل ٧٧٨٤ صفحة من مؤلفات الموسيقار في المكتبة الوطنية متضررة بصورة كبيرة، وأن الثلث فقط يعاني من التقادم الاعتيادي.

ترينالي مصر الدولي للجرافيك

شاركت ٧٧ دولة، منها ١٣ دولة عربية، في فعاليات ترينالي مصر الدولي الثالث للجرافيك، وذلك في الفترة من ٥ فبراير/شباط حتى ٢٨ من الشهر نفسه، وقد شارك في المعرض ٧٢٠ فناناً عالمياً عرضت أعمالهم في مركز الفنون بأوبرا القاهرة.

وقال فاروق حسني وزير الثقافة المصري: «إن ترينالي مصر الدولي لفن الجرافيك واحد من الفعاليات المهمة في رسم صورة المستقبل والاتصال عن طريق الفن الذي يمثل في عصرنا الراهن ضرورة من ضرورات الحياة في إطار منظومة العالم الجديد القائم على التعاون والتنافس معاً».

معرض لكازمير ماليفيش حول التكعيبية

يقام حالياً بمدينة برن السويسرية معرض تحت عنوان «ماليفيش والتكعيبية» يلقي الضوء على أبرز إبداعات الفنان الروسي كازمير ماليفيش في مجال الاتجاه التكعيبي، وأهم خطوط التحديث التي أدخلها على هذا الفن الثري، ويستمر المعرض حتى الثاني عشر من يونيو/حزيران القادم.

ويستعرض منظمو المعرض، الذي تستضيفه مؤسسة بييار جينادا للفنون، نخبة متفردة من أعمال هذا الفنان التي تصل إلى ما يقارب تسعين لوحة توثق بشكل دقيق لمراحل تبلور الخط الفني المتميز الذي حدد لهوية الفنية الخاصة لهذا الفنان، ويكشف المعرض أيضاً سيطرة اللون الأبيض على أعمال ماليفيش، ولا سيما التشكيلات الهندسية المربعة.



قدور، أحمد محمد/ مبادئ اللسانيات.- دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩م، ٣٦٠ص.

الكتاب محاولة لتقديم الإطار اللساني الأجنبي مع سعي لتكييف هذا الإطار ووضعه ضمن الدرس اللغوي العربي، وقد حاول الكاتب جاهداً أن يكون للمعطيات العربية مكان ضمن المقولات الرئيسة التي أبرزتها اللسانيات العامة.

جاءت فصول الكتاب «الأربعة» متسلسلة وفق مستويات التحليل اللساني، فاختص فصله الأول بالأصوات من خلال فرعيها الأساسيين وهما الفونيتيك والفونولوجيا، وجاء الفصل الثاني عن الدراسة الصرفية التي يعبر عنها مصطلح المورفولوجيا، ثم الفصل الثالث والذي عني بالدرس النحوي الخاص بالتركيب Sytaxe وتحليل المعنى الإسنادي، وختم بالرابع الذي جاء ليدرس الدلالة ويقف على جوانبها.

نبه المؤلف أن الكتاب لم يعرض لشيء من اختصاصات اللسانيات التطبيقية كالمعجم وتعليم اللغات وأمراض الكلام، كما لم يعرض لتاريخ المدارس اللسانية وأعلامها تفصيلا؛ لأن ذلك يحتاج إلى حيّز أكبر من هذه الدراسة.

دعم الكتاب بعدد من الأشكال رمى منها المؤلف إلى تقريب المعنى إلى ذهن القارئ.

وفي ختام مقدمته ذكر المؤلف المصادر التي اعتمد عليها الكتاب، ثم ختم بفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للأشكال، والأخير لموضوعات الكتاب.

الندوي، سيد رضوان علي/ اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية عبر القرون.- كراتشي: جامعة كراتشي، ١٤١٦هـ، ٥٢٦ص.

بدأه المؤلف بمقدمة ضافية عن «تاريخ الأدب» وأهميته، ثم عالج المؤلف تاريخ اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية «إقليم السند» عبر اثني عشر قرناً، منذ دخول الإسلام في الهند حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وهو بذلك يغطي جانباً من جوانب النقص في تراجم علماء شبه القارة الهندية الباكستانية أمثال: أبي عطاء السندي، والحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، ومحمد أعلى التهانوي، والسيد مرتضى البلكرامي الزبيدي، وأبي بكر الدماميني، والنهروالي، وابن معصوم الدستكي، والملتاني، وأبي ضلع السندي، وسندي بن ورقة وغيرهم.

قسم المؤلف كتابه خمسة فصول، وتناول في فصله الأول «مسالك اللغة العربية إلى شبه القارة الهندية وانتشارها فيها».

وناقش الفصل الثاني اللغة العربية وآدابها في «العصر العربي الغزنوي (٩٣ - ٦٠٢هـ/ ٧١١ - ١٢٠٦م)»، ثم تناول في الفصل الثالث اللغة العربية وآدابها في «عصر سلطنة دهلي (٦٠٢ - ٩٣٣هـ/ ١٢٠٦ - ١٥٢٦م)»، وتحدث في الفصل الرابع عن اللغة العربية وآدابها في «العصر المغولي الأول ٩٣٣ - ١١١٩هـ/ ١٥٢٦ - ١٧٠٧م)»، وجاء الفصل الخامس، وهو آخر الفصول وأطولها، للحديث عن اللغة العربية وآدابها في «العصر المغولي الثاني ١١١٦ - ١٣١٨هـ/ ١٧٠٧ - ١٩٠٠م».

أورد المؤلف في ختام الكتاب ملاحق بـ «نماذج من الأدب المنظوم والمنثور»، وفهرساً بالشخصيات المترجم لها في الكتاب على الترتيب الهجائي، ثم فهرساً بالمصادر والمراجع العربية، وآخر بالمراجع الأردية والفارسية والإنجليزية.



موسوعة أسبار للعلماء والمتخصصين في الشريعة الإسلامية/ أسبار للدراسات والبحوث والإعلام.- الرياض، ١٤١٩هـ، ٣ج.

تسعى الموسوعة إلى توثيق سير العلماء والمتخصصين في الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية بدءاً من تاريخ فتح الرياض عام ١٣١٩هـ حتى الوقت الحاضر، بحيث تشمل جميع من عاش في تلك الفترة ولو يوماً واحداً ممن توافرت

فيهم الشروط والضوابط التي وضعت كأساس لاختيار شخصيات الموسوعة، وقد شملت هذه الضوابط في صورتها النهائية الفئات التالية:

أولاً ـ فئة العلماء والمشايخ الذين تأهلوا من خلال الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن الكريم والمساجد وحلقات الحرمين الشريفين، ولم تتح لهم فرصة الدراسة الأكاديمية، حيث ضمت الموسوعة كل من له إنتاج علمي مطبوع في علوم الشريعة أو اشتغل بالتدريس في الحرمين الشريفين أو المساجد الكبرى، أو تولى القضاء، أو حصل على إجازة علمية بالتدريس في العلوم الشرعية.

ثانياً ـ العلماء الحاصلون على مؤهلات أكاديمية حيث يضم إلى الموسوعة كل من حصل على الدكتوراه في أحد فروع الشريعة، وكل من حصل على مؤهل جامعي، بكالوريوس على الأقل، في العلوم الشرعية، وكان له إنتاج علمي مطبوع في الشريعة، وأيضاً كل من اشتغل بالقضاء من فئة رئيس محكمة فما فوق.

بدأت الموسوعة بكلمة شكر وتقدير لصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام على دعمه السخي معنوياً ومادياً لهذا العمل منذ أن كان فكرة حتى تم إنجازه بعون الله.

تقع الموسوعة في ثلاثة مجلدات، ضم المجلد الأول الشخصيات من ١ إلى ٥٧٣، والمجلد الثاني من ٥٧٤ إلى ١٢٩١، والثالث من ١٢٩٢ إلى ١٧٦١.

ختمت الموسوعة بإيراد عدد من الكشافات شملت كشافاً بالأسماء، وكشافاً بالتخصصات، وكشافاً بالمساجد، وكشافاً بالأماكن، ثم ثبتاً بالمصادر والمراجع، وقائمة بالمحتويات.



المسفر، عبدالعزيز بن محمد/ المخطوط العربي وشيء من قضاياه.ـ الرياض: دار المريخ للنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٠١ص.

الكتاب دراسي يخدم مقرر المخطوط العربي على المستوى الجامعي، حاول فيه المؤلف أن يجمع أكبر قدر من المعلومات التي تتعلق بقضايا المخطوط العربي وتصب في خدمته، ليسد النقص، ويحقق هدفه المتمثل بتلبية احتياجات المادة العلمية لطلاب وطالبات التخصص.

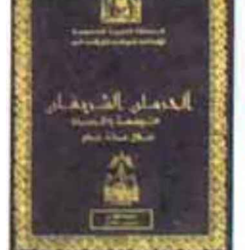
جاء الكتاب في أربعة أبواب، جاء الباب الأول في أربعة فصول: الفصل الأول عن «الكتابة: نشأتها وتطورها»، والثاني عن «أدوات الكتابة»، والثالث عن «الإصلاحات في الكتابة العربية»، والرابع عن «انتشار الخط العربي وتطوره».

وجاء الباب الثاني في ستة فصول، حيث كان الفصل الخامس عن «تعريف المخطوط»، والسادس عن «صناعة الكتاب العربي المخطوط»، والسابع عن «الوراقة والوراقون»، والثامن عن «ملامح الكتاب العربي المخطوط»، والتاسع عن «المخطوطات العربية في العالم»، والعاشر عن «صيانة المخطوطات».

وتضمن الباب الثالث ثلاثة فصول، حيث كان الفصل الحادي عشر عن «الفهرسة والتصنيف»، والثاني عشر عن «المصادر والمراجع التي ينبغي توافرها في مكتبات المخطوطات»، والثالث عشر عن «تحقيق الكتاب العربي المخطوط».

واقتصر الباب الرابع على فصل واحد هو الفصل الرابع عشر الذي جاء عن «فهرس الأشكال والنماذج واللوحات المختارة في الخط العربي»، التي بلغت ٧٨ شكلاً، كان المؤلف قد استعان بها في توثيق المعلومات التي أوردها في الكتاب.

حرص المؤلف على إيراد المصادر والمراجع في نهاية كل باب.



الحرمان الشريفان: التوسعة والخدمات خلال مئة عام/ الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.ـ مكة المكرمة: دار عكاظ للطباعة والنشر، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٣٨٠ص.

أصدرت هذا الكتاب الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بمناسبة الاحتفال بمئوية تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز، طيب الله ثراه، وشارك في

وضعه عدد من المؤلفين.

بدأ الكتاب بمقدمة ضافية شرح فيها المؤلفون ما كانت عليه أحوال الحرمين الشريفين قبل مئة عام، وما كان يصيب قاصدي الديار المقدسة في نفوسهم وأموالهم من جراء انفراط عقد الأمن حتى غدت الرحلة إلى الحج ضربا من المخاطرة، وسلسلة من العنت والعذاب.

أبرز الكتاب، في بابين، جهود الدولة السعودية في عمارة الحرمين الشريفين وخدمة الحجاج والمعتمرين، جاء الباب الأول عن عمارة الحرمين الشريفين من عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله.

والثاني عن الخدمات التي قدمتها الدولة للحجّاج والعمّار والزوّار.

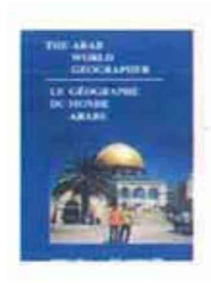
زيّن الكتاب ببعض الصور التي تبرز المراحل التي مر بها تطور عمارة الحرمين الشريفين منذ القدم حتى التوسعة السعودية الثانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، حفظه الله.

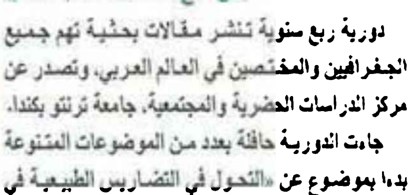
صمود، نورالدين/ العروض المختصر ـ تونس: دار شوقي للنشر، ١٩٩٦م، ١٣٥ص.

صدر هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٧١م، ذكر المؤلف فيه أسماء معظم الشعراء الذين استشهد بشيء من شعرهم، ثم شكّل الأمثلة وبعض التمارين والكلمات التي خشي أن يقع فيها إشكال.

مال المؤلف إلى اختيار نماذج سهلة أو معروفة من الشعر القديم والحديث، وإن اضطرته بعض البحور المهجورة إلى أخذ نماذج من الشعر القديم، بعضها غير مستساغ، وفيه شيء من الغموض.

جاء الكتاب، بعد المقدمة، تحت ثلاثة عناوين رئيسة هي: مقدمات العروض، والبحور الشعرية، والموشحات والأزجال.





جغرافيو العالم العربي (مج٢، ع٣، خريف عام ١٩٩٩م)

دورية ربع سنوية تنشر مقالات بحثية تهم جميع الجغرافيين والمختصين في العالم العربي، وتصدر عن مركز الدراسات الحضرية والمجتمعية، جامعة ترنتو بكندا.

جاءت الدورية حافلة بعدد من الموضوعات المتنوعة بدءا بموضوع عن «التحول في التضاريس الطبيعية في الفترة الانتقالية لمنطقة سهول البحر الأبيض المتوسط في الأردن من منظور جغرافي أثري». ثم «الوعي القومي بين النصارى الفلسطينيين». و«الإسلام، والسياسة والهوية في أوزبكستان والخلفية الثقافية في ولاية لينشن في أسيا الوسطى». و«نمو قرية أشايمن التي استوطنها الأهالي والمهاجرون في مقاطعة تيما في غانا ١٩٥٠ - ١٩٩٠م».

إضافة إلى استعراض عدد من الكتب. وختمت الدورية بإيراد شروط الكتابة بها وذكر المراجع وكيفية الاشتراك.

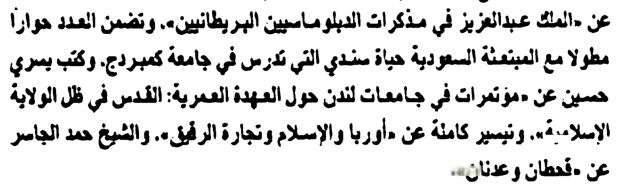


الثقافية (س٦، ع ٣٤ - ٣٥، ذو القعدة/ذو الحجة ١٤٢٠هـ - فبراير/مارس/٢٠٠٠)، وتصدر عن المكتب الثقافي السعودي في بريطانيا وأيرلندا.

صدرت مجلة «الثقافية» هذه المرة وهي تجمع عددين في عدد واحد، وقد جاء حافلاً بكثير من المقالات المتنوعة في مختلف مجالات الثقافة.



وكتب الموضوع الرئيس في المجلة نجدة فتحي صفوة، عن «الملك عبدالعزيز في مذكرات الدبلوماسيين البريطانيين». وتضمن العدد حوارا مطولا مع المبتعثة السعودية حياة سندي التي تدرس في جامعة كمبردج. وكتب يسري حسين عن «مؤتمرات في جامعات لندن حول العهدة العمرية: القدس في ظل الولاية الإسلامية». وتيسير كاملة عن «أوربا والإسلام وتجارة الرقيق». والشيخ حمد الجاسر عن «قحطان وعدنان».



إضافة إلى الأبواب الثابتة ومراجعات بعض الكتب. وجاء الغلاف الأخير للمجلة لوحة بعنوان «الرياض عاصمة الثقافة» من عمل الفنان المبتعث: فؤاد مغربل. بينما اشتمل باطن الغلاف الأخير على لوحة للفنان صالح التركي بعنوان «آخر خريف في القرن العشرين».

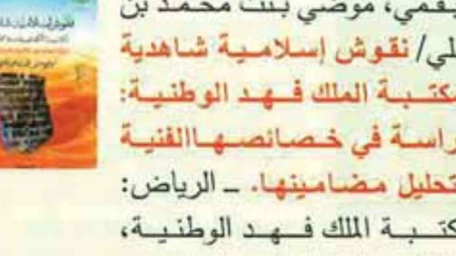
نوافذ (العدد العاشر، شعبان ١٤٢٠هـ/ديسمبر ١٩٩٩م)

دورية تعنى بترجمة الأدب العالمي، تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة.

اشتمل العدد على مجموعة من الأعمال المترجمة، فجاء في باب المقالات: «تاريخ الأدب» لتزفيتان تودوروف، و«في إنشائية الفواتح النصية» لأندري دي لنجو، و«الرواية» لجي دو موباسان، و«الرواية والواقع» لفارسيا فينيو، و«إيقاف جمالية التلقي على قدميها» لكلود كاندلمان.

كما احتوى العدد على سبع قصائد مترجمة لهاينرش هاينة، وهان دونغ، ومحمد إقبال، وفروغ فرخزاد، وماريا جاميسون، وستيف رايدر. وخمس قصص قصيرة لجي دوموباسان، وبدرو انطونيو دي آلاركون، وفيرجينيا وولف، وجيمس فاريل، وألفونس دوديه. وترجمة جديدة لمسرحية بيكيت تحت عنوان «صموئيل بيكيت ومسرح العبث: فصل بلا كلمات».







البقمي، موضي بنت محمد بن علي/ **نقوش إسلامية شاهدية بمكتبة الملك فهد الوطنية: دراسة في خصائصها الفنية وتحليل مضامينها**. ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٧٥ص.

البيروني، أبوالريحان محمد بن أحمد (٣٦٢ ـ ٤٤٠هـ)/ **الجماهر في الجواهر**، تحقيق: يوسف الهادي. ـ طهران: مكتب نشر التراث المخطوط التابع لمعاونية الشؤون الثقافية بوزارة الثقافة بالتعاون مع شركة النشر العلمي والثقافي، ١٩٩٥م، ٥٦٢ص.

التازي، عبدالهادي/ **الطب النبوي بين المشرق والمغرب**. ـ الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ١٤٢٠هـ، ١٤١ص.

ألتونجي، محمد/ **معجم أعلام الحديث النبوي (من الصحيحين)** ـ الكويت: مركز المخطوطات والتراث والوثائق، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٦٩ص.



السماري، فهد بن عبدالله/ **الملك عبدالعزيز وألمانيا: دراسة تاريخية للعلاقات السعودية الألمانية ١٣٤٤ ـ ١٣٥٨هـ (١٩٢٦ ـ ١٩٣٩م)** ـ الرياض: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ، ٢٦٦ص.

الخرس، محمد علي (وآخرون)/ **البيت الكويتي القديم**. ـ الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٩م، ٢١٦ص.



سبنسر، لايل م وسيجان م سبنسر/ **الجدارة في العمل: نماذج للأداء المتفوق**، ترجمة: أشرف فضيل عبدالمجيد جمعة. ـ الرياض: معهد الإدارة العامة، ١٤١٩هـ، ٥٠٥ص.



السلطي، مأمون وسهيلا إلياس/ **دليل عملي لتطبيق أنظمة إدارة الجودة**. ـ دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٣٣٢ص.



السلمان، محمد بن عبدالله/ **دخول الملك عبدالعزيز الحجاز «دراسة تاريخية»**. ـ الباحة: النادي الأدبي بمنطقة الباحة، ١٤١٩هـ، ١٦٨ص.



السيد، محمد قاري عادل علي/ **هوية السياحة في المملكة العربية السعودية**. ـ الطائف: المطبعة الأهلية للأوفست، ١٤٢٠هـ، ٢٥٦ص.



سيدو، أمين سليمان/ **أبوالريحان البيروني: دراسة عن حياته ونتاجه الفكري**. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدرسات الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٣٢.

الشهري، عجلان بن محمد/ **التقنيات المكتبية الحديثة والوظائف الإدارية المعاونة في الأجهزة الحكومية (دراسة ميدانية)**.ـ الرياض: معهد الإدارة العامة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢١٠ص.



الصالح، نادية فواز/ **الركض في مساحات الحزن**.ـ أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١٤٩ص.



العبدلي، محمد علي طاهر/ **المرأة في مسرح أحمد شوقي (دراسة وتحليل)**.ـ الرياض: مطابع المجد التجارية، ١٤١٩هـ، ٣٦٦ص.



العجمي، محمد بن ناصر/ **آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل**.ـ بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٦٤ص.



العسيري، أحمد معمور/ **موجز التاريخ الإسلامي منذ ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العهد الحاضر**. ط٣.ـ الدمام، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٥١٤ص.

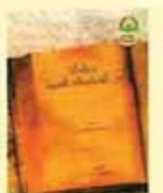
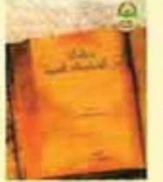


عيساوي، أحمد بن محمود علي/**الإعلان من منظور إسلامي**. ـ الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٩٠ص (سلسلة كتاب الأمة، ٧١).

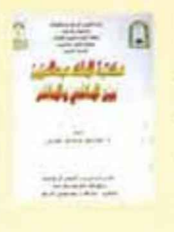
القاعود، حلمي محمد/ **حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسورية**. ـ دمشق: إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ٣٠٤ص.



كعيّد، أحمد تيسير/ **الإنسان والبناء في التصور الإسلامي**. ـ حلب: دار القلم العربي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٢٦٠ص.

المحاسني، سماء زكي/ **دراسات في المخطوطات العربية**. ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٤٦ص.



المزيني، عبدالرحمن بن سليمان/ **مكتبة الملك عبدالعزيز بين الماضي والحاضر**. ـ المدينة المنورة: مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٩١ص.

ابن معمر، عبدالمحسن بن محمد/ **سدوس عبر الماضي والحاضر (دراسة وصفية)**. ـ الرياض: مطبعة سفير، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢١٠ص.



النسفي، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد (٤٦١ - ٥٣٧هـ)/ **القند في ذكر علماء سمرقند**. تحقيق: يوسف الهادي.ـ طهران: مركز نشر التراث المخطوط، ١٤٢٠هـ.

كائنات نسيها الزمن

مصطفى غنيم
الكويت

على مدى العصور (الجيولوجية) المختلفة التي مرت بكوكب الأرض، كانت الظروف المناخية كثيرا ما تتغير، فتتغير معها أشكال الحياة، فتنقرض كائنات وتظهر كائنات أخرى، والله يخلق ما يشاء ويختار. ولكن هناك كائنات تمكنت من التكيف مع ظروف التغير. فالأمر بالنسبة إليها كان إما التكيف وإما الموت. وهناك كائنات أخرى تمكنت من الاختباء بعيدا عن الأنظار وإما تحت الأرض أو في أعماق البحار، يمر عليها الزمان وهي تعيش في أعماق الظلام كأنها حفريات حية نسيها الزمن.

ومن هذه الكائنات الإسفنج آكل اللحوم، والسمندر الأبيض، وأسماك الكويلاكانث؛ هذه الكائنات انسحبت منذ ملايين السنين إلى أكثر الكهوف ظلاما في قاع المحيط، والكهوف، كما نعلم، سواء أكانت على ظهر الأرض أم في البحار تعد كنوزا أحيائية (بيولوجية) تضم كل غريب ومدهش، إنها من العوالم التي لم يكتشف كل ما فيها بعد، فهي ملاجئ خاصة بنقصها الضوء والغذاء، ولهذا فهي بيئة قاسية تشوه أجسام ساكنيها في معركة نضالهم من أجل البقاء.

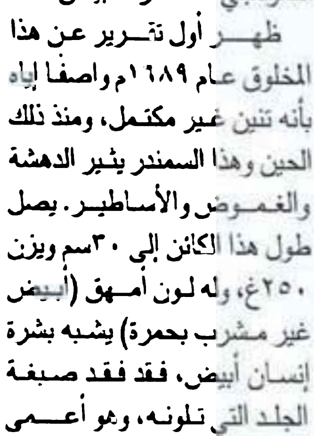
ولأن كل كهف ينعزل عما حوله من بيئة، فسكانه قد لا تعرف خارج سجنها المنعزل، وفيما يلي نعرض لثلاثة أنواع من هذه الكائنات التي أثارت دهشة العلماء عندما تم اكتشافها.

السمندر الأبيض

هذا المخلوق الغامض هو أغرب ساكن كهوف في أوربا، فهو يعيش في الكهوف الجيرية العميقة في سلوفينيا ويعرف باسم «السمكة البشرية»؛ لأن لونه يشبه لون بشرة الإنسان، هذا المخلوق حفيد فريد لمجموعة من البرمائيات عاشت منذ ٣٥٠ مليون سنة قبل الديناصورات؛ ولأن هذه البرمائيات لم تكن تجد الراحة لا فوق الأرض ولا في الماء، فهي عرضة لهجوم الأسماك المفترسة، مثل سمك الكراكي وسمك الدنفش في البحر، وعلى البر تعد وجبة شهية للحيوانات الآكلة اللحوم أو للطيور الجارحة، لذلك ففي العشرين مليون سنة الأخيرة انسحبت هذه البرمائيات باحثة عن مأوى بعيدا عن أعدائها الطبيعيين، وكانت الكهوف المظلمة في سلوفينيا هي المأوى النموذجي للسمندر الأبيض.



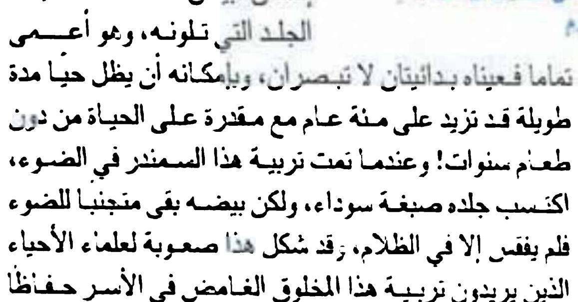
السمندر الأبيض يزحف فوق صخور أحد كهوف سلوفينيا. هذه الدولة تعده رمزا للبقاء، وأصبح رمزا قوميا لها، كما يبدو على أحد طوابع البريد



ظهر أول تقرير عن هذا المخلوق عام ١٦٨٩م واصفا إياه بأنه تنين غير مكتمل، ومنذ ذلك الحين وهذا السمندر يثير الدهشة والغموض والأساطير. يصل طول هذا الكائن إلى ٣٠سم ويزن ٢٥٠غ، وله لون أمهق (أبيض غير مشرب بحمرة) يشبه بشرة إنسان أبيض، فقد فقد صبغة الجلد التي تلونه، وهو أعمى تماما فعيناه بدائيتان لا تبصران، وبإمكانه أن يظل حيا مدة طويلة قد تزيد على مئة عام مع مقدرة على الحياة من دون طعام سنوات! وعندما تمت تربية هذا السمندر في الضوء، اكتسب جلده صبغة سوداء، ولكن بيضه بقي متجنبا للضوء فلم يفقس إلا في الظلام، وقد شكل هذا صعوبة لعلماء الأحياء الذين يريدون تربية هذا المخلوق الغامض في الأسر حفاظا



الإسفنج القاتل أجبره نقص الغذاء على التحول من آكل نبات إلى آكل لحوم



عليه من الانقراض الذي يهدده نتيجة لتلوث الأنهار الجوفية التي يعيش فيها بعض أفراده، وكان الحل الوحيد هو إقامة معامل تحت الأرض في الكهوف حيث تتوافر الظروف الملائمة لتناسله.

الإسفنج أكل اللحوم

من أكبر المفاجآت (البيولوجية) في السنوات الأخيرة، اكتشاف ساكن آخر منعزل من ساكني الكهوف، وهو الإسفنج الآكل للحوم في البحر المتوسط، فالإسفنج الذي نعرفه في قاع البحر يبدو غير مؤذ أبداً، ويشبه النبات إلى حد كبير، ولكن العالمين الفرنسيين: جين فاسيليه، ونيكول بوري - إزنو من مركز دراسات المحيط في مرسيليا، اكتشفا نوعاً من الإسفنج آكلاً للحوم يقبع في ظلام كهف غمرته المياه منذ سبعة آلاف عام في نهاية آخر عصر جليدي، ففي ظلام هذا الكهف تكون المياه ساكنة باردة تنقصها المواد الغذائية، ولمواجهة هذا النقص في الغذاء (الميكروسكوبي) الذي تعتمد عليه أنواع الإسفنج الأخرى، اضطر هذا النوع إلى اتخاذ خطوات عنيفة للحصول على غذائه وإلا فسيموت، فكيف أشواكه التي تشبه الصنارة، ونخرج من جسمه مكونة ما يشبه القدم اللاصقة، ومن ثم فإن أي قشريات صغيرة مثل براغيث البحر تحتك بهذا الإسفنج تعلق به، وفور حدوث ذلك يسحقها الإسفنج عن طريق خلاياه المتحركة ويهضمها في غضون أيام، ولولا تكيف هذا الإسفنج مع هذا الوضع الجديد واعتماده على الغذاء الحيواني بدلاً من النباتي، لكان مصيره الفناء.

أسماك الكويلاكانث

يعدُّ هذا النوع من الأسماك أشهر الحفريات الحية الساكنة الكهوف، فقد سكنت هذه الأسماك البحار مدة تزيد على ٣٠٠ مليون سنة، وحتى عام ١٩٣٨م كان العلماء يعتقدون أن هذه الأسماك قد انقرضت منذ مئة مليون سنة، ولكن تم اصطياد نوع من الأسماك قرب الساحل الشرقي لجنوب إفريقية تم تصنيفه على أنه من أسماك الكويلاكانث المنقرضة، فله ملامحها نفسها ولا سيما الزعانف المفصصة التي تشبه الأقدام، والتي لم تتغير منذ تحولت أسلاف هذه الأسماك إلى حفريات في قاع البحر.

ولأن هذه الأسماك، علاوة على كونها نادرة، تعيش في أعماق البحار التي تتراوح بين ٢٠٠ و٥٠٠ متر، لذلك فما يعرف عن عاداتها قليل جداً. ولكن في الآونة الأخيرة قام فريق من علماء البحار الألمان بقيادة هانز فريكي بركوب غواصة إلى أماكن حياة هذه الأسماك، وكشفت ملاحظاتهم بعض المعلومات عن هذه الأسماك، فهي تحتمي وتتناسل في الكهوف الموجودة تحت الماء، لا تخرج منها إلا لاصطياد غذائها، وهو الظرف الوحيد الذي تتعرض فيه للخطر، فالصيادون في جزر كوموروس يستخدمون خيوطاً طويلة لاصطياد الأسماك التي تتغذى عليها أسماك الكويلاكانث، وكلا النوعين؛ الآكل والمأكول يعيشان في عمق واحد.

حفرية لإحدى أسماك الكويلاكانث عمرها ١٤٠مليون سنة وجدت في جنوب إفريقية على بعد ٢٠٠ متر تحت الماء



سمكة الكويلاكانث التي كان يظن أنها انقرضت منذ مئة مليون سنة تبحث عن غذائها في قاع البحر قرب سواحل جنوب إفريقية

ومن الغريب أن هذه الأسماك التي تمكنت من مقاومة الانقراض عبر ٣٠ مليون سنة تتعرض الآن للخطر أكثر من أي وقت مضى، ويقدر العالم الألماني فريكي أن أعداد هذه الأسماك الموجودة الآن تقل عن مئتي سمكة، ويريد هذا العالم أن يقنع الصيادين بترك صيد هذه الأسماك، ويقترح مصدراً بديلاً للدخل في هذا المكان؛ فمثلاً يمكن تركيب آلات تصوير تلفزيونية على مدخل الكهف الذي تعيش فيه هذه الأسماك لتعرض صورتها على سطح الماء لتجذب السياح إلى هذا المكان، فيكون دخل السياحة بديلاً عن الصيد.

مرجع

• مترجم عن مجلة Focus، عدد أكتوبر/ تشرين الأول، ١٩٩٥م.